

رواية







- هرمان هسه
- غرترود / رواية
- الطبعة الأولى: 1998.

- دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق: ص. ب. 32105

☎ 6713079

هرمان هسه

غرترود

ترجمة: أسامة منزلجي



1

حين أنظر إلى حياتي بموضوعية، لا تبدو لي بشكل عام سعيدة. إلا أني لا أستطيع أن أصفها بحق بأنها تعيسة، على الرغم من كل مثالبها. على أي حال، من الغباء المحض أن أتكلم عن السعادة والتعاسة، لأنه يبدو لي إني لن أبادل أتعس أيام حياتي بكل الأيام السعيدة.

حين يصل إنسان إلى مرحلة من حياته يقبل عندها المحتومَ برباطة جأش، بعد أن يكون قد اختبر الخير والشر حتى الثمالة، ويكون قد حفر لنفسه بخطٍ موازٍ لحياته الخارجية، وجوداً داخلياً، أشد واقعية وليس وليد المصادفة، لا تبدو لي حياتي على هذا الأساس، فإن حياتي لم تكن خاوية وعقيمة. وإذا كان قدري الخارجي ظل لغزاً كما هو الحال مع كل إنسان، وهذا أمر حتمي قضت به الآلهة، فإن حياتي الداخلية كانت هي عملي، بكل مُتَعِهِ ومراراتهِ، وأنا وحدي أُعتبر المسؤول عنها.

حين كنتُ أصغر سناً، أردت أحياناً أن أكون شاعراً. ولو كنت كذلك لما قاومت إغراء اقتفاء أثر حياتي الماضية حتى منطقة الظلال المبهمة لطفولتي وحتى منابع ذكرياتي المبكرة المختزلة بحنان. لكن تملّك الفكرة أنفس بكثير وأقدس من أن أفسدها بأي شكل. وكل ما سأقوله عن طفولتي هو أنها كانت فترة طيبة وسعيدة. فقد وُهِبتْ لي حرية اكتشاف ميولي الخاصة ومواهبي، وخَلْق متعي الحميمة وأحزاني بنفسي وأن أعتبر المستقبل أمل مقدرتي ونتاجها وليس بوصفه شيئاً صمَّمته قوة غريبة آتية من الأعالي. لذا انتقلت بين مراحل الدراسة دون أن ألفت الانتباه باعتباري تلميذاً عادياً، قليل الموهبة، وهادئ الطباع تُرك وشأنه بعد أن اتضح أني لن أخضع لأية مؤثرات قوية.

عندما كنت في نحو السادسة أو السابعة من عمري، أدركت أنه من بين كل القوى المرئية، سوف أتأثر بقوة بالموسيقى وسأخضع لسلطانها. ومنذ ذلك الحين أصبح لي عالمي الخاص، وملاذي، وسمائي، لا يمكن لأي إنسان أن ينتزعها مني أو يصغِّر من شأنها، ولم تكن لديَّ أي رغبة في مشاركتها مع أي إنسان. لقد كنت موسيقياً على الرغم من أني لم أتعلم العزف على أي آلة قبل بلوغي الثانية عشرة، ولم أكن أعتقد أني فيما بعد سأرغب في كسب لقمة عيشي بالموسيقى.

هكذا سارت الأمور منذ ذلك الحين، دون أي تغيير جوهري، ولهذا لا تبدو لي حياتي، حين أسترجعها، متنوعة ومتعددة الجوانب، وإنما كانت منذ البدء مدوزنة على مقام موسيقي واحد وموجهة مباشرة نحو نجم واحد. وسواء أتحسنت أحوالي أو ساءت، فإن حياتي الداخلية تبقى دون تغيير. قد أُبحرُ لفترات طويلة أمخر عباب بحار غريبة، لا أقرب أي مخطوطة كتاب أو أي آلة موسيقية، ولكن في كل

لحظة يجري في دمي نغم ويتردد على شفتي إيقاع أو قافية مع كل نفحة حياة. ومهما كانت لهفتي في البحث عن الخلاص، والنسيان والانعتاق بطرق متعددة، مهما كان ظمأي إلى الله، والفهم والسلام، كنت دائماً أعثر عليهم في الموسيقى وحدها. وليس من الضروري أن يكون في نتاج بيتهوفن أو باخ: كان دائماً يعزيني ويبرر لي الحياة كلها مجرد وجود الموسيقى في العالم، وكون الإنسان قادراً أحياناً على أن يتأثر بعمق الإيقاعات وأن تتغلغل التناغمات فيه. آه، يا للموسيقى! إن لحناً يخطر لك، فتغنيه بعمق، داخلياً فقط، وينغمس كيانك كله فيه، ويملك عليك كل قواك ومشاعرك، وطوال فترة سكناه فيك يمحو كل ما هو تصادمي، وشرير، وفظ وحزين داخلك؛ يخلق انسجاماً ما بينك وبين العالم، يخفِّف الأثقال ويمنح أجنحة للمخدرين! يمكن للحن أغنية شعبية أن يفعل كل هذا. والتناغم يقع في المرتبة الأولى! لأن كل تناغم ممتع لنغمات مركبة بوضوح، ربما في جملة موسيقية واحدة، يسحر الروح ويبهجها، ويشحن الشعور مع كل نغمة جديدة، ويمكنه أحياناً أن يترع القلب بالفرح ويجعله يرتعش بالنعيم كما لا يمكن لأي متعة حسيَّة أن تفعله.

من بين كل تصورات النعيم الخالص التي حلم بها الناس والشعراء، بدا لي أن نعيم الإنصات إلى تناغم الأكوان هو الأرقى والأكثف. هناك أبحرتْ أعزُّ أحلامي على قلبي وأشدها إشراقاً. عندما سمعت، خلال فترة نبضة قلب، الكون والحياة برمتها بكل تناغمها الغامض، المتأصل. لهفي! كم يمكن للحياة أن تكون مشوَّشة ونشازاً وزائفة، كم يظهر بين الناس من أكاذيب، وشر، وحسد وكراهية، عندما تبشِّر أقصر أغنية وأبسط مقطوعة موسيقية بتجلِّي الجنة في صفاء، وتناغم عزفٍ حميم لنغمات واضحة النبرة! وكيف لي أن ألقي باللائمة

على الناس وأغضب في حين أني أناء بذاتي، بكل ما أتمتع به من شهرة لم أتمكن من أن أستلهم من حياتي أية أغنية أو موسيقى عذبة! إني على وعي حق، في داخلي، بوجود حافز ملحّ، رغبة نهمة في لحن نقي، ممتع، قدسي في عمقه وفي تلاشيه، لكن أيامي ملأى بسوء الطالع والتنافر وكيفما استدرت وكيفما اتجهت، لا أجد صدى واحداً صادقاً وواضحاً.

ولكن كفى، سوف أقص عليك الحكاية. وعندما أفكر في مَنْ أملأ هذه الصفحات لأجلها والتي لها، في الحقيقة، سيطرة طاغية عليَّ حتى إن في استطاعتها أن تستدرج اعترافاً مني وأن تخترق وحدتي، أجدني مضطراً إلى إعطاء اسم امرأة حبيبة، لا ترتبط بي فقط من خلال تجربة وقدر لا يستهان بهما، وإنما تهيمن أيضاً بالنسبة إليَّ على كل شيء مثل نجمةٍ ورمز مقدس.

2

لم أبدأ بالتفكير في مستقبلي المهني إلا من خلال آخر سنة أو سنتين من دراستي في المدرسة، وذلك حين بدأ كل رفاقي في المدرسة يتحدثون عن مستقبلهم المهني. وكانت إمكانية جعل الموسيقى مهنتي ووسيلة عيشي بحق بعيدة كل البعد عن تفكيري، بيد أني لم أفكر في أي خط مهني آخر يمكن أن يُدخل السعادة إلى قلبي. ولم يكن لدي أي اعتراض على مجال التجارة أو على المهن الأخرى التي اقترحها أبي، كل ما في الأمر أنه لم يكن لدي أي اهتمام بها. ربما لأن زملائي على مقاعد الدراسة كانوا شديدي الفخر بمستقبلهم المهني الذي اختاروه بأنفسهم، بحيث أن صوتاً داخلياً أخبرني أنا أيضاً أنه من الخير والصحيح أن أضع مستقبلاً مهنياً يملأ أفكاري ويمنحني وحده متعة حقيقية. وقد أفادني أني تعلمت العزف على آلة الكمان مذ كنت في الثانية عشرة وأحرزت بعض التقدم على يد معلم جيد، أثرت إعجابه، فدعم أمنيتي بكل قوته. وفي نهاية المطاف رضخ والدي، ولكن فقط لكي يختبر قوة تحملي وآملاً بهذا أن أغيِّر فكري، وطلب مني أن أمكث في

المدرسة مدة سنة أخرى. وتحمَّلتُ هذا الإجراء بصبر عاقل وخلال تلك الفترة ازدادت رغبتي قوة.

أثناء سنتي الأخيرة في المدرسة عرفت الحب لأول مرة مع صبية جميلة كانت ضمن مجموعة أصدقائنا. وبدون أن أراها كثيراً وأيضاً بدون أن أشعر نحوها برغبة جامحة، عانيت لواعج الحب الأول ومتعته كما لو في حلم. وخلال تلك الفترة، عندما كنت أفكر في موسيقاي بقدر ما أفكر في حبيبتي ويجافيني نوم الليالي بسبب الإثارة الضافية، احتفظت عن وعي ولأول مرة بألحان خطرت ببالي. كانتا أغنيتين قصيرتين حاولت أن أدوِّنهما، مما جعلني أشعر بالحياء لكنه منحني متعة حادة، حتى كدت أنسى غصص حبي الغض. وفي تلك الأثناء، علمت أن حبيبتي كانت تأخذ دروساً في الغناء وتقتُ توقاً جامحاً لأسمعها وهي تغني. وبعد مرور بضعة أشهر تحققت أمنيتي خلال سهرة عائلية في منزل والديّ. وطُلب من الفتاة الجميلة أن تغني، فتمنَّعت بقوة لكنها في النهاية اضطرت إلى الرضوخ ورحت أنتظر بشوق عارم. ورافقها شاب على آلة البيانو الصغيرة المتواضعة خاصتنا، فكان يعزف بضع نغمات ومن ثم تبدأ هي بالغناء، أوه، كم كان غناؤها سيئاً، بل سيئاً جداً، وبينما كانت تغني، تبدَّل روعي وعذابي تعاطفاً ومن ثم فكاهة، ومنذ ذلك الحين تحررتُ من حبها.

لقد كنت أتحلى بالصبر ولم أكن متكاسلاً بشكل كامل، غير أني لم أكن طالب علم جيد، وخلال سنتي الدراسية الأخيرة لم أكن أبذل أي مجهود يذكر. ومردُّ ذلك لم يكن إلى الكسل وإلى افتتاني، بل إلى حالة من أحلام يقظة الشباب ومن اللامبالاة، إلى خمول الأحاسيس والعقل لم يكن يُخرق إلا بين حين وآخر وفجأة وبقوة عندما تغلفني إحدى الساعات الرائعة من الرغبة الخلاقة المبكرة كالأتي. عندئذ

كنت أشعر وكأني محاط بجو نقي، صاف كالبلور يستحيل فيه الحلم والخمول، وتُشحذ أحاسيسي كلها وتتيقظ. وخلال تلك الأويقات كان إنتاجي يشح، ويقتصر على عشرة ألحان وبوادر عمل هارموني، لكني لن أنسى دهري الجو المخلخل والبارد تقريباً الذي كان يسود في ذلك الوقت، والتركيز الكثيف المطلوب لشحن لحن ما بالانفعال والتعبير الصحيحين وعدم الاكتفاء بالتصور التقريبي له. ولم أكن راضياً عن تلك النتائج الصغيرة ولم أعتبر أنها على أي قدر من الأهمية، غير أنه كان واضحاً بالنسبة إليَّ أنه لن يكون في حياتي ما يضاهي رغبتي في استعادة سويعات الصفاء والإبداع تلك.

في الوقت نفسه كنت أحصل أيضاً على فترات من اللحظات الحالمة عندما أرتجل على آلة الكمان وأستمتع بثمالة الانطباعات السريعة الزوال والأمزجة المحلِّقة. وسرعان ما أدركت أن هذا ليس إبداعاً وإنما فقط عبث ونزوة مستهترة، وكان عليَّ أن أحترس منها. وأدركت أيضاً أن هناك فرقاً شاسعاً بين الانغماس في أحلام اليقظة وأوقات الثمالة، والتصارع بعنف وحزم مع أسرار الشكل وكأنما مع شياطين. وأيضاً أدركت جزئياً في ذلك الوقت أن الطاقة الخلاقة الحقيقية تعزل صاحبها وتتطلب شيئاً يجب إسقاطه من الإستمتاع بالحياة.

أخيراً تحررتُ. أضحت أيام الدراسة خلفي. ودَّعتُ والديّ وبدأت حياة جديدة كطالب في معهد الموسيقى في العاصمة. باشرت تلك المرحلة الجديدة مع آمال كبيرة واقتنعت بأني سأغدو طالب علم مُجيداً في معهد الموسيقى. غير أنه اتضح أن هذا غير صحيح. ووجدت صعوبة في مواصلة الدرس في كل الاتجاهات. وجدت دروس العزف على البيانو التي كان عليّ أن آخذها مجرد محاولة كبيرة، وسرعان ما رأيت أن مسار الدراسة برمته يقف في وجهي مثل جبل لا يمكن

ارتقاؤه. ولم أفكر في الاستسلام، لكني أُصبت بخيبة الأمل وبالاضطراب. وأدركت أنه على رغم كل تواضعي كنت أعتبر نفسي بشكل ما عبقرياً وكنت أستخف أي استخفاف بالعوائق والمصاعب التي تعترض طريقي إلى إنجاز فن ما. زيادة على ذلك، كان أسلوبي في التأليف الموسيقي قد تأثر بذلك لأنني لم أعد أرى في أصغر تمرين إلا جبالاً من المصاعب والقواعد. وتعلمت أن أرتاب تماماً في أحاسيسي ولم أعد أعرف إن كنت أتّصفُ بأي موهبة. لذا أصبحت مستسلماً، متواضعاً وحزيناً. وصرت أؤدي عملي كما يؤديه موظف في مكتب أو ما شابه، باجتهاد وبلا استمتاع. ولم أجرؤ على التذمّر، وخاصة في الرسائل التي أرسلها إلى الوطن، بل واصلت السير في الطريق التي بدأتها بخيبة أمل سرية، وأملت في أن أصبحَ على الأقل عازف كمان جيد. ورحتُ أواصِل التدرُّب وأتحمل كلمات التجريح والسخرية منَ الأساتذة. ورأيت الكثيرين غيري ممّن لم أؤمن بمقدرتهم على النجاح، يتقدمون بسهولة ويتلقون التقريظ، فأصبح هدفي أكثر تواضعاً. لأنه حتى مع الكمان لم تكن الأمور تسير على ما يرام بحيث أشعر بالفخر وربما أعتقدُ بإمكانية أن أغدو عازفاً بارعاً. وبدا أنه ربما إذا اجتهدتُ في عملي أستطيع على الأقل أن أصبح عازف كمان ماهراً في إمكانه أن يلعب دوراً متواضعاً في أوركسترا صغيرة، فلا أكون مشيناً ولا مشرِّفاً، وأكسب لقمة عيشي بواسطته.

إن هذه الفترة التي طالما تقتُ إليها والتي وعدتْني بكل شيء، كانت الفترة الوحيدة في حياتي التي طرقتُ خلالها دروباً كئيبة مخذولاً من روح الموسيقى وعشت أياماً لا معنى لها ولا إيقاع. وحيثما بحثت عن السرور، والعلاء، والتألق والجمال، لم أعثر إلا على المطالب، والقواعد، والمصاعب، والمهام والمحاولات. فإذا تبدَّت لي فكرة

موسيقية، إذا بها إما مبتذلة أو مقلَّدة، أو تكون وبكل وضوح مناقضة لكل قوانين الموسيقى ولا قيمة لها. وهكذا ودَّعتُ كل آمالي العريضة. لقد كنت أحد آلاف الذين ولجوا مجال الفن مزوَّدين بثقة الشباب وكانت قدراتهم لا ترقى إلى طموحاتهم.

استمر هذا الوضع نحو ثلاث سنوات. وكنت قد تجاوزت عندئذ العشرين من عمري. وبات واضحاً أني قد فشلت في مهمتي ولم يعد يدفعني الاستمرار في المشوار الذي بدأته غير إحساسي بالخجل وبالواجب. ولم أعد أعرف المزيد عن الموسيقى، خلاف تمارين الإصبع، والمهام الصعبة، والتناقضات في دراسة الهارموني، ودروس العزف على البيانو الرتيبة على يد أستاذ متهكم لا يرى في كل ما أبذله من جهد غير إضاعة للوقت.

لو لم يكن المثل الأعلى القديم ما يزال حياً سراً داخلي، لما استطعتُ أن أستمتع بحياتي خلال كل تلك السنين. لقد كنت حراً ولدي أصدقاء. كنت شاباً صحيحاً ووسيماً. وإبناً لوالدين ثريين. وقد استمتعت بكل هذا خلال فترات وجيزة، كانت أياماً ملؤها السرور، والغزل، والمرح الصاخب والعطل. بيد أنني لم أكن من النوع الذي يستمد السلوان بهذه الطريقة، أن أتخلى عن التزاماتي فترة وجيزة وفوق ذلك أن أستمتع بشبابي. لقد كنت ما أزال أصبو بتوق، في ساعات الشرود، ودون وعي مني، إلى نجم الفن الخلاق الساقط، وكان مستحيلاً عليَّ أن أنسى مشاعري المحبطة وأخنقها. ولم أنجح حقاً في هذا إلا مرة واحدة ووحيدة.

كان ذلك في يوم من أشد أيام شبابي الأحمق حماقة. وكنت عندئذ ألاحق تلميذة تدرس على يد أستاذ شهير في الغناء، اسمه هـ. وكنا هي وأنا معاً في وضع واحد، هي كانت قد وصلت تحدوها آمال

عريضة، فوجدتُ أساتذة صارمين، ولم تكن معتادة على مثل ذلك العمل، وأخيراً توصلتُ حتى إلى الاعتقاد إنها ستفقد صوتها. كانت خفيفة الظل، وتعبث مع زملائها وتعرف كيف تغيظنا. وكانت تتمتع بنوع مبهرج، مفعم بالحيوية من الجمال سرعان ما يذبل.

هذه الفتاة الجميلة التي اسمها "ليدي" كانت دائماً تأسرني بغنجها البارع كلما قابلتها. ولم أكن أقع أسير حبها فترة طويلة، وكثيراً ما كنت أنساها تماماً، ولكن حالما نجتمع معاً يعاودني افتتاني بها. وكانت تعبث معي كما تفعل مع الباقين، فتغويني وتستمتع بممارسة سيطرتها، لكنها كانت تكتفي بالانغماس فيما يتسم به شبابها من فضول حسّي. لقد كانت فائقة الجمال، ولكن فقط عندما تتكلم وتتحرك، عندما تضحك بصوتها الدافئ العميق، وعندما ترقص أو تتسلى بغيرة المعجبين بها. وكنت كلما عدت إلى المنزل من حفلة تشترك هي فيها، أضحك من نفسي وأدرك أنه من المستحيل على مثلي أن يكون جاداً في حبه لهذه الفتاة اللاهية، المسلية. إلا أنها كانت أحياناً تحرز نجاحاً باهراً في إغوائي، بإيماءة أو بكلمة ودية هامسة، حتى إني أقضي نصف الليل وأنا أتسكع بالقرب من منزلها، تضطرم فيَّ مشاعر لاهبة.

عندئذ كنت أمر بفترة من الجموح والتبجح شبه المفروضة عليَّ. وبعد أيام طويلة من الانقباض والركود، تطلّب شبابي انفعالات عاصفة وإثارة وانطلقت مع بعض الرفاق من أقراني سعياً وراء اللهو. وكان يُنظر إلينا بوصفنا مشاغبين مرحين، وجامحين وحتى خطرين، وهذا الكلام لم يكن ينطبق عليَّ، وتمتعنا بسرعة مريبة ولكنها بطولية مرضية مع "ليدي" وشلتها الصغيرة. ولا أستطيع أن أقرر الآن كم من هذه الحوافز يمكن إرجاعه إلى فورة شباب حقيقية وكم منها كان

رغبة في النسيان، فقد كبرت كثيراً ومنذ زمن بعيد على تلك المظاهر وعلى كل فورات الشباب المفرطة. فإذا كنت قد انغمست في الإفراط، فإنني أكفِّر عن هذا منذ ذلك الحين.

ذات يوم شتائي لم يكن لدينا عمل، خرجنا لنقوم بنزهة في ضواحي البلدة. وكنا ثمانية من الشباب أو عشرة، بيننا "ليدي" وثلاث من الصديقات. أخذنا معنا مزالق، وكان استخدامها ما يزال مصدر متعة طفولية لنا، وفتشنا عن منزلقات جيدة في المناطق الشديدة الانحدار خارج البلدة، على الطرقات وعلى منحدرات الحقول. إنني أتذكر ذلك اليوم جيداً. كان الطقس بارداً جداً، والشمس لا تظهر إلا أحياناً مدة تقارب الربع ساعة، وكانت رائحة الثلج الرائعة تفعم الرياح القوية، ومنظر الفتيات جميلاً وهن بأثوابهن البراقة على الخلفية البيضاء، وكان الهواء القارس مُسكراً والتدرب النشط في الهواء المنعش مبهجاً. وسرتْ في شلتنا الصغيرة أقصى حالات الجذل، وساد الكثير من الإلفة والمزاح كان الرد عليه بكُرات الثلج وأدَّى إلى معارك قصيرة إلى أن شاعت الحرارة فينا جميعاً وتسربلنا بالثلج. ثم كان علينا أن نتوقف برهة لنستعيد أنفاسنا قبل أن نباشر من جديد. ثم بنينا قلعة كبيرة من الثلوج وحصَّنَّاها وكنا كثيراً ما ننزلق على منحدرات الحقول.

عند الظهيرة، وبعد ما نال الجوع كل منال نتيجة رياضتنا، رحنا نبحث إلى أن عثرنا على قرية فيها نُزُل جيد، فهدأنا، واحتللنا جهاز البيانو، وغنينا، وصرخنا، وطلبنا نبيذاً، ومشروباً مسكراً. ثم أُحضر الطعام واستمتعنا بتناوله أيما استمتاع، وكان النبيذ الجيد وافراً. بعد ذلك طلبت الفتيات قهوة أثناء تناولنا المشروب. وكان المكان الضيق يهدر بالضجيج حتى بتنا في حالة ارتباك كاملة. وبقيت ملازماً

"ليدي"، التي اختارتني وهي في مزاج رائع، وخصتني في ذاك اليوم بامتياز خاص. لقد كانت في ذاك الجو المرح والضاج في أحسن حالاتها، كانت عيناها تلمعان وسمحت بالكثير من مداعبات التحبب المترددة. وبدأت لعبة الغَرَامات وفيها لا يُترك المُغرَّمون إلا بعد أن يقلِّدوا أحد أساتذتنا وهو يعزف على آلة البيانو، ولكن أيضاً مع الكثير من تبادل القبل، كنا نتابع عددها ونوعيتها عن قرب.

عندما غادرنا النُزُل وانطلقنا إلى منازلنا، ونحن في أحسن مزاج ونثير الكثير من الضجيج، كانت فترة المساء ما تزال في أولها ولكن العتمة كانت قد زحفت قليلاً. فعدنا نعدو بمرح صاخب خلال الثلوج كأطفال لا يحملون هماً، ونحن في طريق عودتنا إلى البلدة بلا عجلة والمساء يقترب باضطراد. ونجحتُ في البقاء إلى جانب "ليدي" معيِّناً نفسي مرافقها الخاص، ولم يخل الأمر من معارضة الآخرين. فجذبتها إلى مزلقتي وحميتها بأقصى ما في استطاعتي ضد الهجمات الجديدة بكرات الثلج. وأخيراً، تُركنا وشأننا، وعثرتْ كل فتاة على مرافق لها، أما الشابان الفائضان فتضامنا معاً في الكثير من المزاج والقتال الساخر. ولم أكن قد مرحت هكذا وتملكني الحب المشبوب كما فعلت في تلك المناسبة. وأمسكتْ "ليدي" بذراعي وسمحتْ لي بجذبها إليَّ ونحن نتقدم في المسير. وسرعان ما انغمست في الثرثرة، ثم ران عليها الصمت وهي، كما خيل إليَّ، راضية ببقائها إلى جواري. واضطرمت جذوة عواطفي، وقررت أن أستغل هذه الفرصة إلى أقصى حد، فحافظت على الأقل على هذه الحالة الودية البهيجة أطول مدة ممكنة.

عندما اقترحت التفافة أخرى قبيل أن نصل إلى البلدة بقليل لم يعترض أحد، وانعطفنا إلى طريق جميلة تمر عالياً مطلة على الوادي

بشكل نصف دائري، غنية بالمناظر المشرفة على الوادي، والنهر والبلدة التي كانت تبدو على البعد، متوهجة بأرتال من المصابيح البراقة وبآلاف من الأضواء الوردية.

كانت "ليدي" ما تزال متعلقة بذراعي وتركتْ زمام الحديث لي، واستقبلتْ عروضي المتّقدة بخفة مرحة إلا أنها بدت في غاية السعادة. ولكن عندما حاولت أن أقربها مني وأقبّلها، تحررت مني وابتعدتْ.

هتفتْ، وهي تتنفس بعمق: « أنظر، يجب أن ننزلق إلى أسفل ذاك الحقل! أم أنك خائف، يا بطلي؟ ».

نظرت إلى الأسفل ودهشت إذ وجدت المنحدر شديد الانحدار حتى إن الخوف تولاني، للوهلة الأولى، لفكرة القيام بمثل هذا الانزلاق الخطير.

قلت بهدوء: « آه، كلا، لقد أصبح الظلام حالكاً ».

على الفور بدأت تسخر مني وتستفزني، ونعتتني بالجبان وقالت إنها ستنزلق إلى أسفل وحدها ما دمت من وهن القلب بحيث أمتنع عن مرافقتها.

قالت وهي تضحك: « سوف ننقلب طبعاً، ولكن هذا أشد جوانب الانزلاق إمتاعاً ».

بينما كانت تتمادى في استفزازي خطرت لدي فكرة.

قلت بنعومة: « ليدي، سنذهب. وإذا انقلبنا تستطيعين أن تفركي الثلج عليَّ، ولكن إذا وصلنا إلى أسفل بسلام، فإني أريد جائزتي ».

اكتفتْ بالضحك وجلستْ على المزلقة. ألقيتُ نظرة إلى وجهها، كان مشرقاً وبراقاً. واتخذتُ مكاني في المقدمة، وطلبتُ منها أن تتمسك بي بقوة وانطلقنا. أحسستُ بتشبث يديها وتصالبهما على

صدري. وأردتُ أن أهتف لها بشيء ولكن لم يعد في استطاعتي أن أفعل ذاك. فقد كان المنزلق شديد الانحدار حتى أني شعرتُ وكأننا كنا نندفع مخترقين الفضاء. وللتو حاولتُ أن أضع كلتا قدميّ على الأرض لكي أكبح السرعة أو حتى أن ننقلب فقد انتابني فجأة قلق عظيم على "ليدي". إلا أن الأوان قد فات. واندفعت المزلقة تئز بفعل السرعة الهائلة أسفل التل. ولم أعد أعي إلا وجود كتلة الثلج العنيفة، الواخزة والباردة على وجهي. سمعتُ "ليدي" تصرخ بقلق ـ ثم لم أعد أسمع شيئاً. أحسستُ بضربة هائلة تلقيتها على رأسي وكأنما من مطرقة ضخمة، وكان هناك ألم حاد في مكان ما. وآخر ما شعرت به كان البرودة.

أفقت من عزم الصدمة والاضطراب اللذين سادا بعد الحادثة، أما الآخرون فقد أمضوا وقتاً مؤلماً. لقد سمعوا "ليدي" تصرخ فضحكوا وراحوا يزعجوننا وهم فوق وسط الظلام. وأخيراً، فهموا أن ثمة خطباً قد وقع وهبطوا بحذر إلينا، وقد استغرق منهم بعض الوقت ليصحوا من سكرتهم ويدركوا طبيعة الوضع. كانت "ليدي" شاحبة الوجه وشبه غائبة عن الوعي، ولكن لم يصبها أي مكروه، غير أن قفازيها كانا قد تمزقا ويداها البيضاوان الرقيقتان قد تأذتا قليلاً وأدمتا. ونقلوني معتقدين أني قد متُّ. وفي وقت لاحق بحثت عبثاً عن شجرة التفاح أو الأجاص التي كانت المزلقة قد اصطمت بها وكسرت عظامنا.

ساد اعتقاد بأني قد أصبت بارتجاج في المخ لكن الأمور لم تكن سيئة كثيراً. وقد أصيب رأسي ومخي بدون شك ولم استعد وعيي إلا بعد وقت طويل وأنا في المستشفى، لكن الجرح التأم وكان مخي سليماً. ومن ناحية أخرى لم تبرأ ساقي اليسرى تماماً، وكانت قد أصيبت بكسور في مواضع مختلفة. ومنذ ذلك الوقت وأنا معاق أسير

بخطى عرجاء، ولم يعد في إمكاني أن أمشي بخطى واسعة أو أركض أو أرقص. وهكذا وُجِّه شبابي باتجاه درب يفضي إلى مناطق أكثر هدوءً، وعليه سرت، مع شعور بالخجل والتردد. لكني سرت وأحياناً يخيل إليَّ أني ما كنت لأرغب قط في أن يفوتني ذاك الانزلاق المسائي مع ما نتج عنه.

أعترف أن آخر ما يهمني من نتائج الحادثة هو ساقي المكسورة، التي كانت أشد سعادة مني بكثير. وسواء أكان في الإمكان عزو الصدمة وإلقاء نظرة خاطفة إلى الظلام، أو فترة ملازمة السرير الطويل، إلى الحادثة، فإن الركون إلى السكينة على مدى شهور طويلة وتقليب التفكير في الأمور، قد أثبت مسار العلاج أنهما نافعان لي.

لقد تلاشت تماماً ذكرى بداية فترة الاستلقاء في السرير الطويلة تلك، أو فلنقل مثلاً الأسبوع الأول منها، من ذهني. فقد كنت غائباً عن الوعي معظم الوقت وحتى بعد أن استعدت أخيراً وعيي الكامل، بقيت واهناً وفاتر الهمة. ثم وصلت أمي وأصبحت تجلس في كل يوم بكل إخلاص بجوار سريري في المستشفى. وعندما نظرت إليها وتبادلت معها بضع كلمات، بدت هادئة بل أكاد أقول مرحة، مع أني علمت لاحقاً أنها كانت قلقة جداً عليّ، ليس على حياتي، في الواقع، إنما على عقلي.

أحياناً كنا نتسامر وقتاً طويلاً في جناح المستشفى الصغير الهادئ. بيد أن علاقتنا لم تكن مرة شديدة الحميمية. لقد كنت دائماً أقرب إلى والدي. وقد جعلنا التعاطف من جانبها والامتنان من جانبي أكثر تفاهماً وميلاً إلى التقارب، ولكن كلينا انتظر وقتاً طويلاً جداً واعتاد على "laisser - fair" "عدم تدخل" كل منا في شؤون الآخر، لنفسح المجال لاستيقاظ العاطفة كي يتبدّى في حديثنا. كنا سعيدين

باجتماعنا وتركنا بعض الأمور معلقة دون إفصاح. لقد عادت من جديد أمي التي رأتني وأنا على فراش المرض واعتنت بي، ومرة أخرى شاهدتها بعينيَّ فتى صغير ونسيت كل ما عدا ذلك بعض الوقت. ولا شك في أ ن العلاقة القديمة قد استؤنفت لاحقاً وكنا نتفادى التحدث كثيراً عن فترة المرض هذه لأن ذلك كان يحرجنا.

بدأت أدرك، تدريجياً، وضعي، وبعد أن برأت من الحمى واستقرت حالتي، لم يعد الطبيب يخفي عني أني سوف أظل أحتفظ بتذكار من سقطتي. ورايت شبابي، الذي بالكاد كنت قد استمتعت به عن وعي، يُبتَر بشكل محزن ويُسلَب من عنفوانه. وتوفر لدي الكثير من الوقت كي أعي خلاله وضع الأمور وأنا طريح الفراش فترة ثلاثة أشهر أخرى.

ثم حاولت جاهداً أن أفهم وضعي وأن أتصور شكل حياتي المستقبلية، لكني لم أحرز الكثير من التقدم. فقد كان الإفراط في التفكير ما يزال يضرُّ بي. وسرعان ما نالني التعب وغصت في تأمل حالم حمتني طبيعته من القلق واليأس وأجبرتني على الركون إلى الراحة لكي أستعيد عافيتي. وكان تفكيري في سوء حظي كثيراً ما يعذبني، وغالباً ما يستمر معي حتى منتصف الليل، بدون أن أحصل منه على أي عزاء.

ثم كان أن استيقظت ذات ليلة بعد فترة من النوم الهانئ الغافي امتد بضع ساعات. وخيل إليَّ أني رايت حلماً ساراً وحاولت عبثاً أن أستعيده. وشملني شعور رائع وطمأنينة، وكأني تجاوزت كل الأمور البغيضة وخلفتها ورائي. وبينما كنت مستلقياً هكذا أفكر وأشعر بدفقات خفيفة من الصحة والارتياح تغزوني، صعد إلى شفتي لحن بدون أن يصدر تقريباً أي صوت. وبدأت أهمهم به وإذا بموسيقى،

كانت قد غابت عن ذاكرتي طويلاً، تعود إليَّ، بدون استئذان، كنجم اكتُشِفَ فجأة، وأخذ وجيب قلبي يتناغم مع إيقاعه، وأزهر كياني كله واستنشقت هواءً جديداً، نقياً. ولم يصل إلى وعيي، فقط شعرتُ بحضوره وتغلغل في كياني برفق، وكأن جوقات متناغمة كانت تغني لي عن بُعد.

مع هذا الشعور الداخلي النضر عدت إلى الاستغراق في النوم. وفي الصباح كنت في مزاج طيب وقد تحررت من غمِّي، وهي حالة لم أكن قد مررت بها منذ أمد بعيد. وقد لاحظت أمي ذلك وسألت عما يجعلني سعيداً إلى ذلك الحد. فكَّرتُ قليلاً ومن ثم قلت إني لم أكن قد أتيت على ذكر آلة كماني منذ زمن طويل، ومن ثم فجأة عدت إلى التفكير فيها فبثّ ذلك فيَّ السرور.

قالت بنبرة صوت تنم عن شيء من القلقَ: « ولكن لن يتاح لك أن تعزف قبل مرور وقت طويل ».

« لا يهم. حتى ولو لم أعد إلى العزف قط ».

لم تفهم ولم أستطع أن اشرح لها. غير أنها لاحظت أن أموري تسير سيراً حسناً وأنه لا وجود لعفريت كامن خلف هذا الحبور غير المبرَّر. وبعد مرور بضعة أيام عادت إلى ذكر الموضوع بحذر.

« هل تحرز تقدماً مع موسيقاك؟ لقد شعرنا أن هذا يسبِّب لك التعب وقد تحدَّث والدك مع مدرسيك حول الأمر. إننا لا نريد أن نثنيك عنه، على الأقل ليس في الوقت الحاضر... غير أننا نشعر أنك إذا كنت قد ارتكبت خطأ وترغب في أن تتخلى عن الأمر، فعليك أن تفعل وأن لا تستمر فيه بدافع من شعور بالتحدي أو بالخجل. ما رأيك؟ ».

مرة أخرى عدت إلى التفكير في فترة العزلة تلك. حاولت أن أخبر أمي عن شؤوني وبدت أنها تفهم. واعتقدت أني بدأت الآن من جديد أرى هدفي بوضوح وأني لن أهرب منه، بأي حال، وإنما سأواظب على الدراسة وحتى النهاية. وظلت الأمور على هذا الحال في تلك الفترة. وكان هنالك في أعماق روحي التي تعجز أمي عن النفاذ إليها، موسيقى عذبة. أما فيما يتعلق بوجوب إحرازي أي تقدم في عزفي على آلة الكمان، فكان في استطاعتي أن أسمع العالم من جديد وكأنه خُلِق متناغماً، وعرفت أنه لا خلاص لي خارج عالم الموسيقى. وحتى لو أن حالتي منعتني تماماً من معاودة العزف على الكمان، لتكيفت مع الوضع، ولكنت ربما فكرت في مسار مهني آخر أو حتى أصبحت تاجراً، لم يكن الأمر هاماً. ولم أكن، وأنا تاجر أو أي شيء آخر، لأكون أقل حساسية اتجاه الموسيقى أو أن أعيش وأتنفس بقدر أقل من خلال الموسيقى. كنت سأؤلف الموسيقى من جديد! إن ما أشاع الفرح بي لم يكن، كما قلت لأمي، التفكير في كماني، وإنما الرغبة العارمة في أن أضع موسيقى، أن أبدع. وصرت من جديد كثيراً ما أشعر بالاهتزازات الصافية بجو عالي النقاء، وبالتركيز الشديد للأفكار، كما كنت قد فعلت سابقاً في أفضل أوقاتي، وشعرت أيضاً أنه على هامش هذا، فإن ساقاً معاقة وأشياء أخرى مؤسفة لا أهمية لها.

منذ ذلك الوقت وأنا اشعر بالانتصار، ومهما سافرتْ رغباتي نحو أصقاع من الصحة الجسدية والمتع النضرة، ومهما كرهتُ حالة الإعاقة التي أعيشها ولعنتها بمرارة وبحس عميق بالعار، والذي لم يكن يفوق طاقتي على تحمل عبئه، كان هناك شيء يواسيني ويعوضني.

كان والدي يعرِّج بين حين وآخر ليزورني، وذات يوم، وأثناء فترة تحسن حالتي، أخذ والدتي معه وعادا إلى المنزل. وخلال الأيام القليلة

الأولى شعرت بالوحشة، وأيضاً بالخجل لأني لم أكن قد تكلمت بحميمية أكثر مع أمي ولا أظهرت اهتماماً أكبر بأفكارها وهمومها. لكن شعوري الآخر كان من القوة بحيث أن هذه الأفكار عن النوايا الطيبة ومشاعر الإشفاق تراجعت إلى الخلفية.

ثم جاء شخص غير متوقع ليعودني، لم يغامر بفعل ذلك أثناء وجود أمي معي. كانت "ليدي". ودهشتُ لرؤيتها. للوهلة الأولى لم يخطر ببالي أني مؤخراً كنت على علاقة وثيقة بها وفي حالة حب غامر لها. ودخلت عليّ وهي في حالة ارتباك شديد، عملت على إخفائها بشكل سيئ جداً. كانت تخشى أمي وإدانتها لها لأنها كانت تعلم أنها المسؤولة عما وقع لي من حادث مؤسف، ولم تدرك إلا بالتدريج أن الأمور ليست بذاك السوء، وأنها لم تتأثر كثيراً. وعاد إليها ارتياحها ولم تتمكن من إخفاء شعورها بشيء من الخيبة. وعلى الرغم من اضطراب ضمير الفتاة، إلا أنها كانت مثارة من أعماق قلبها الأنثوي من الأمر كله، ولفداحة الحادث المؤسف. حتى أنها استخدمت كلمة "مأساوي" في مناسبات عدة، ولم أستطع أن أخفي ابتسامة ارتسمت على شفتي جراء ذلك. فلم تكن مستعدة تماماً لرؤيتي مرحاً جداً وشديد الاستخفاف بمصابي. وكانت تنوي أن تطلب غفراني لها، وكان منحه لها بوصفي عشيقها سيوفر لها راحة كبرى، وفي ذروة هذا المشهد المثير كانت ستغزو قلبي من جديد وتعلن انتصارها.

الحق، إن ارتياح الفتاة الحمقاء كان كبيراً عندما رأتني راضياً إلى ذاك الحد ولتحررها من أي لوم أو اتهام. إلا أن هذا الارتياح لم يجلب لها السعادة، وكان كلما ارتاح ضميرها وزال قلقها، وجدتها تزداد هدوءً وفتوراً. وبالتالي لم يزعجها قط أني اعتبرت دورها في القضية صغيراً جداً، بل إني في الحقيقة نسيته. لقد أخمدتُ اعتذارها

وكل انفعالها وهدمت كامل المشهد الجميل. وعلى الرغم من أدبي الجم، لاحظتْ أني لم أعد أحبها، وأن ذلك هو أسوأ شيء على الإطلاق. وحتى لو كنت قد فقدت ذراعيّ وساقيّ، لظللت معجباً بذراعيها وساقيها، أنا الذي لم تحبه ولم أكن مصدر أي سرور لها، ولكني لو كنت مضنى إلى حد البؤس من الحب، لكان ذلك مصدر رضى عظيماً لها. لكن واقع الحال لم يكن كذلك، كما لاحظت هي جيداً، ورأيت الدفء والاهتمام الباديين على الوجه الجميل للزائرة المتعاطفة يخبوان تدريجياً ثم يتلاشيان. وبعد أن ودعتني بإفاضة، رحلت ولم تعد قط بعد ذلك على رغم أنها وعدتني بإخلاص أن تفعل.

على الرغم مما سببته لي الزيارة من ألم وما تركته من أثر على قدرتي على المحاكمة بحيث ارى افتتاني السابق يغوص في التفاهة ويغدو مثيراً للضحك، إلا أنها أفادتني حقاً. لقد فوجئت كثيراً إذ رأيت هذه الفتاة الجذابة للمرة الأولى بلا شغف وبلا نظرة وردية، ولإدراكي إني لم أكن قد عرفتها قط. ولو أن أحدهم أراني الدمية التي عانقتها وأحببتها وأنا في الثالثة من عمري، لما كان فقدان الاهتمام وتغير المشاعر أدهشاني أكثر مما دهشت في هذه الحالة، عندما رأيت هذه الفتاة التي كنت قد اشتهيتها بقوة قبل بضعة أسابيع، وقد أمست غريبة تماماً عني.

من بين الرفاق الذين كانوا موجودين خلال نزهة يوم الأحد تلك في الشتاء، زارني إثنان مرات عدة، ولكن لم نجد الكثير من الحديث لنتبادله، ولاحظت مدى ارتياحهما عندما أخذت صحتي تتحسن، وطلبت منهما أن يكفّا عن إحضار المزيد من الهدايا. بعد ذلك لم نلتق قط. كان أمراً غريباً وقد ترك أثره المحزن والغريب عليَّ، وزال عني كل ما كان ينتمي إليَّ في تلك السنوات من حياتي، اغترب عني وضاع مني.

فجأة بتُّ أرى كم كانت حياتي خلال تلك الفترة حزينة وزائفة، لقد طُرحت علاقات الحب، والأصدقاء، والعادات والمسرات عن تلك السنين مثل ملابس لم تعد مطابقة لمقاييس الجسم. انفصلت عنها بلا ألم ولم يبق إلا أن أتعجَّب من طولِ ما تحمَّلتُها.

أدهشني أن أتلقى زيارة أخرى لم تخطر ببالي قط. فذات يوم إذا بذاك السيد الصارم المتهكم، أستاذي في تعلم العزف على البيانو، يأتي لزيارتي، حاملاً عصا السير خاصته ويلبس القفازين وهو يتكلم بنبرة صوته الحادة، اللاذعة، المعتادة، ويصف ركوب الزلاقة المشؤوم إنه "خليق بالنساء"، وبدا من نبرة كلماته أنه يعتبر من البديهي أن يتبع ذلك سوء حظ. ومع ذلك، كانت زيارته لفتة رائعة منه، وقد برهنت أيضاً، على الرغم من أنه لم يغير نبرة صوته، على أنه لم يأت مضمراً أية نوايا سيئة، وإنما ليقول لي إنه على الرغم من كل أخطائي يعتبرني تلميذاً حساساً، وأن زميله، أستاذ العزف على الكمان، يحمل الرأي نفسه ولهذا فهما يأملان في أن استرد قريباً صحتي وعافيتي وأُدخل السرور إلى قلبيهما. وعلى الرغم من أن هذا الخطاب بدا أقرب شبهاً بالاعتذار لمعاملة خشنة سابقة، وأُلقي بالنبرة الحادة ذاتها، فإن أثره كان عذباً عندي وكأنه مصارحة بالحب. فمددت يدي ممتناً للأستاذ غير المحبوب وحاولت، مبيناً ثقتي به، أن أشرح مسار حياتي خلال تلك السنين وكيف أن موقفي القديم من الموسيقى قد بدأ يعود إلى سابق عهده.

هزَّ الأستاذ رأسه وصفَّر ساخراً. ثم قال: « أتريد أن تغدو مؤلفاً موسيقياً؟ ».

قلت وقد ثبطت همتي: « إذا أمكنني ذلك ».

« حسن، أتمنى لك التوفيق. حسبتُ أنك ستعاود التمرين بحماسة متجددة، ولكن ما دمت تريد أن تؤلف موسيقى، فأنت، طبعاً، لم تعد بحاجة إلى أن تفعل ذلك ».

« أوه، لم أقصد هذا ».

« ماذا إذن؟ في الواقع، عندما يكون تلميذ الموسيقى كسولاً ولا يحب العمل المجدّ، فإنه دائماً يتجه إلى التأليف الموسيقي. إن أي شخص يستطيع أن يفعل ذلك وكل إنسان، طبعاً، هو عبقري ».

« إنني بدون أدنى شك لم أقصد. هل أصبح عازف بيانو إذن؟ ».

« كلا، يا صديقي العزيز. لن تكون كذلك أبداً ـ ولكن في إمكانك أن تصبح عازف كمان جيداً بقدر معقول ».

« أتمنى أيضاً أن أصبح هذا! ».

« آمل أن تكون جاداً. حسن، يجب أن لا أطيل مكوثي. وآمل أن تتحسن صحتك سريعاً. إلى اللقاء ».

على الأثر رحل وتركني مع شعور بالذهول. فلم أكن أفكر مطلقاً في العودة إلى دراستي. كنت ما أزال أخشى أن تكون الأمور صعبة وتسير بشكل خاطئ، وأن يعود كل شيء إلى ما كان عليه سابقاً، لكن هذه الأفكار لم تلازمني طويلاً، وبدا أيضاً وكأن زيارة الأستاذ الفظة كانت حسنةالنية وبمثابة إشارة صادقة إلى الارتياح.

بعد أن استعدت صحتي بشكل كاف، كانت النيَّة تتجه إلى أن أذهب لقضاء فترة النقاهة. لكني فضلت أن أنتظر حتى حلول موعد العطلة الطويلة. كنت أرغب في أن أعود إلى العمل فوراً. ثم عرفت للمرة الأولى الأثر المذهل الذي يمكن لفترة من الراحة، خاصة إذا كانت إجبارية، أن تنطوي عليه. وبدأت دراستي وتدريباتي مع عدم ثقة، لكن كل شيء أخذ يسير بشكل أفضل من السابق. بل لقد أدركت إدراكاً

تاماً أني لن أغدو عازفاً إفرادياً ماهراً أبداً، لكن هذا لم يزعجني وأنا في مزاجي ذاك. ثم إن الأمور كانت تسير سيراً حسناً، خاصة وإن الطبقة الكتيمة من دراسة الموسيقى نظرياً، والهارموني ودراسة التأليف الموسيقي قد تحولت إلى حديقة غنّاء سهلة المنال. شعرت أن الغارات والغزوات التي قمت بها خلال أدائي لدروسي لم تعد تتحدى كل القواعد والقوانين، بل تكشّف لي، من خلال دراسة مواظبة، درب ضيق ولكن واضح المعالم يفضي إلى الحرية. وكان لا يزال أمامي بحق ساعات وأيام وليال سأواجه خلالها عوائق لا تخترق، وأجفلت بذهن تعب في وجه العقبات والأشراك، لكني لم أنكفئ إلى اليأس ورأيت الدرب الضيق يغدو أشد وضوحاً وأسهل منالاً.

لدى إغلاق المدارس من أجل تمضية الإجازات عند نهاية الفصل الدراسي، قال لي استاذ الدروس النظرية، وأنا في دهشة عارمة: «أنت الطالب الوحيد في هذا العام الذي يبدو حقاً إنه يفهم شيئاً عن الموسيقى. فإذا ما قُدِّر لك أن تؤلف أي مقطوعة موسيقية، أود أن أراها».

مع هذه الكلمات التي كان صداها يتردد في أذنيَّ، انطلقت لقضاء العطلة. لم أكن قد زرت الوطن منذ فترة طويلة، وخلال رحلة القطار تخيلت من جديد مسقط رأسي مع شعور بالحب، واستحضرت سلسلة من ذكريات شبه منسية عن فترة طفولتي وشبابي الأول. كان والدي في انتظاري في المحطة وتوجهنا إلى المنزل بسيارة أجرة. وفي صباح اليوم التالي شعرت بإلحاح قوي لأنطلق وأسير في الشوارع العتيقة. ولأول مرة غمرني إحساس مأساوي بفقداني لياقة الشباب البدنية. وآلمني اضطراري أن أتكئ على عصا وأعرج بساقي المقوسة، المتيبسة على طول الأزقة، التي يذكرني كل ركن فيها بألعاب صبيانية ومسرات بائدة. لقد عدت إلى الوطن

شاعراً بالاكتئاب، وكل شخص أراه، وكل صوت أسمعه، وكل فكرة تراودني، بل كل شيء كان يذكرني مع شعور بالمرارة بالماضي وبحالتي المعاقة. وفي الوقت نفسه، كنت أيضاً تعيساً لأن أمي كانت أقل حماسة من ذي قبل لاختياري لمسيرتي المهنية، وإن لم تخبرني بذلك صراحة. لقد كان يمكن أن تعترف بموسيقي يظهر كعازف نحيل القامة، منتصبها أو كقائد أوركسترا ذي مظهر مؤثر، أما رجل شبه مقعد لا يتصف إلا بمميزات متواضعة ومزاج خجول يواصل سعيه ليكون عازف كمان فمسألة غير مفهومة. وكانت تساندها في ذلك صديقة قديمة وتربطها بها صلة قرابة بعيدة. وكان والدي قد حرَّم عليها ذات مرة دخول المنزل، مما دفعها إلى أن تضمر له كراهية عنيفة، وإن كان ذلك لم يصدها عنا لأنها كثيراً ما كانت تأتي لزيارة أمي أثناء وجود والدي في المكتب. وهي لم تحبني قط ولم تكلمني قط منذ أن كنت صغيراً. وكانت ترى في اختياري لمسيرتي المهنية إشارة مؤسفة إلى الانحطاط وفي الحادثة التي ألمت بي عقاباً واضحاً وتدخلاً من يد العناية الإلهية.

أراد والدي أن يدخل السرور إلى قلبي، فعمل على أن أُدعى لكي أقوم بالعزف الإفرادي في حفل موسيقي تُعدُّه جمعية الموسيقى في البلدة. لكني شعرت أني لا أستطيع أن أفعل ذلك. فرفضت واعتزلت مدة أيام عديدة في الغرفة الصغيرة التي كنت أشغلها وأنا فتى، وكان يزعجني بشكل خاص الأسئلة المتواصلة وضرورة تحمل الأحاديث حتى إني بالكاد كنت أخرج. ثم وجدتني أطل من النافذة على الحياة التي تجري في الشارع وإلى أولاد المدارس، ونظرت قبل أي شيء إلى الفتيات الصغيرات اللاتي يبدو عليهن توق كئيب.

قلت في نفسي، كيف يمكنني أن آمل أبداً في أن أعلن حبي لفتاة! سيكون عليَّ دائماً أن أقف جانباً، كما في أوقات الرقص، وأكتفي بالنظر، وأن لا تحملني الفتيات على محمل الجد. فإذا أبدت إحداهن وداً ضافياً لي، فإن ذلك سيكون بدافع العطف. آه، لقد كنت أكثر من سَئِم من نظرة العطف!.

ثم إني لم أكن أطيق البقاء في المنزل. وقد عانى والديَّ أيضاً الكثير نتيجة كآبتي المفرطة، ولم يبديا أي اعتراض عندما طلبت السماح لي بالانطلاق فوراً في الرحلة التي كنت قد خطّطت لها منذ زمن بعيد، وكان والدي قد وعدني بها. وفيما بعد، دفعتني عاهتي إلى الخلق، وفي الوقت نفسه حطمت رغبات قلبي وآماله، لكني لم أكن قد شعرت بضعفي وعجزي بتلك الحدّة، وذلك عندما كان مرأى كل شاب صحيح الجسم وكل امرأة جميلة يغمّني ويؤلمني. واعتدت على عصاي ببطء وعلى عرجي إلى أن لم يعودا يزعجاني قط، ومع مرور السنين بقيت واعياً لعجزي بدون إحساس بالمرارة وقبلته بلا استسلام أو مداراة.

لحسن الحظ كنت قادراً على السفر وحدي، ولم أضطر إلى أن أنتظر أي شيء. كنت أجد فكرة اصطحاب رفيق معي بغيضة وكانت ستفسد حاجتي إلى السكينة الداخلية. وشعرت بارتياح حالما جلست في القطار حيث لا أحد ينظر إليَّ بفضول وعطف. وسافرت نهاراً وليلاً بدون توقف، مع إحساس بأني أحلِّق طائراً وأطلقت زفرة ارتياح عندما لمحت، في اليوم التالي، قمم الجبال الشاهقة من خلال زجاج النوافذ المبخَّر. ووصلت إلى المحطة الأخيرة عند بداية هبوط الظلام. ومشيت وأنا مرهق ولكن سعيد في الأزقة المظلمة أبغي أول نزل يصادفني في بلدة صغيرة ململمة. وبعد أن شربت كأساً من النبيذ

الأحمر نمت مدة عشر ساعات، طارحاً عني عناء السفر وأيضاً قدراً كبيراً من كرب الفكر الذي أحضرته معي.

في صباح اليوم التالي اتخذت لي مجلساً في قطار الجبال الصغير الذي راح يتخلل وديان ضيقة ويمر بجداول بيضاء براقة ميمماً وجهه شطر الجبال. ومن ثم، ومن محطة صغيرة نائية، تابعت السفر بالعربة، وبحلول منتصف النهار كنت قد وصلت إلى إحدى أعلى قرى البلد.

بقيت حتى ما بعد بداية فصل الخريف في النزل الوحيد الصغير في القرية الصغيرة الهادئة، وأحياناً كنت النزيل الوحيد فيه. وكنت قد قررت أن آخذ هنا قسطاً من الراحة فترة قصيرة ومن ثم أن أسافر أبعد متوغلاً في سويسرا وأزور مزيداً من الأجزاء الأجنبية في العالم. ولكن هناك في الأعالي كانت تهب ريح هي من الإنعاش والقوة بحيث شعرت أني لا أريد أن أغادر المكان. وكان أحد منحدرات الوادي السحيق مكسواً حتى أعلاه تقريباً بأشجار التنوب، أما المنحدر الآخر فكان صخرياً محضاً. هنا أمضيت أيامي، بالقرب من أحد أسرع الجداول، وأصخبها مياهاً، وكان في الإمكان سماع موسيقاها خلال الليل من جميع أنحاء القرية. وفي البداية استمتعت بالعزلة كاستمتاعي بمشروبٍ شافٍ، بارد. لم يكن حولي ما يزعجني، ولا من يُظهر لي فضوله أو عطفه. كنت وحدي وحراً كعصفور يطير في الجو وسرعان ما نسيت ألمي ومشاعر جسدي المرضية. أحياناً كنت آسف لعجزي عن أن أذهب أبعد بين الجبال لأشاهد وديان مجهولة وقمماً وأن أرتقي ممرات خطرة. إلا أنني كنت سعيداً مع ذلك. فبعد أحداث الأشهر الأخيرة وإثارتها اكتنفتني العزلة الهادئة كحضن. لقد عثرت من جديد على السكينة وتعلمت أن أقبل عاهتي الجسدية بتكيُّف، وإن لم يكن ربما بمرح.

لعل الأسابيع التي قضيتها هناك في الأعالي كانت أجمل ما قضيته في حياتي. فقد كنت أستنشق الهواء النظيف، النقي وأشرب الماء المثلج من الجداول وأرقب قطعان الماعز ترعى على المنحدرات السحيقة، يحرسها رعاة متأملون، سود الشعر. وأحياناً كنت أسمع هدير عواصف يتردد صداه في أرجاء الوادي وأرى الضباب والسحب من مسافات قريبة بصورة غير عادية. وعلى جروف الصخور راقبت الزهور الصغيرة، وفي الأيام الصافية كنت أحب أن أسير إلى أعلى التل مدة ساعة من الزمن إلى أن أتمكن من رؤية الحدود الواضحة للقمم النائية للجبال الشاهقة ومقاطع ظليلة زرقاء وحقولاً من الثلوج، بيضاء، متلألئة عبر الجانب الآخر من التل. وكان وشلٌ من الماء يرطب جزءً من ممر للمشاة، وكنت أعثر في كل يوم صاف على حشد من مئات الفراشات الزرقاء الصغيرة، تشرب الماء. ولم تكن تحرك ساكناً لدى اقترابي منها، فإذا أزعجتها، تروح تحوّم مرفرفة بأجنحة صغيرة، حريرية. ومنذ أن قمت باكتشافي، لم أسلك ذاك الدرب إلا في الأيام المشمسة، وكنت في كل مرة أجد الحشد الأزرق الكثيف متجمعاً هناك، وفي كل مرة يكون عيد.

عندما أملي التفكير في الأمر، أجد أن تلك الفترة لم تكن حقاً تتصف بالصفاء والإشراق والفرح التام كما تبدو عند تذكُّرها. إذ لم تكن هناك فقط أيام تمطر خلالها وتثلج ويحل البرد، بل كانت هناك أيضاً أيام تهب خلالها عواصف الكآبة داخلي. لم أكن معتاداً على البقاء وحدي وبعد انصرام أيام الراحة والبهجة الأولى، شعرت من جديد بالألم الذي كنت قد هربت منه يعود فجأة على فترات بكثافة مخيفة. كم من ليلة باردة جلست في غرفتي الصغيرة وأنا أضع بطانية السفر على ركبتي مفسحاً الطريق لدخول الأفكار الحمقاء بضجر وبلا

قيد. كان كل ما يشتهيه الدم الشاب ويرغبه، الحفلات وبهجة الرقص، وحب النساء والمغامرة، وانتصار القوة والحب، يقع على الجانب الآخر من الشاطئ، وقد أمسى بعيداً عني وفقدته إلى الأبد. حتى تلك الفترة المفعمة بالتحدي والجموح والمتسمة بالمرح شبه المتكلف، والتي انتهت بسقوطي بالمزلقة، بدت عندئذ في مخيلتي جميلة وملونة بأسلوب فردوسي كأرض متع مفقودة، ما يزال صداها يتناهى إليّ بثمالة باخوسية من البعيد. وأحيًاناً، بعد التغاضي عن العواصف ليلاً، وعندما يطغى الحفيف القوي، الحزين، لشجر التنوب الذي تجتاحه العاصفة، على صوت انهمار المطر البارد، المتواصل، وتتردد أصداء آلاف الأصوات المبهمة في ليلة صيفية أرقة في أنحاء عوارض سقف منزل متهالك، أرقدُ وأحلم بيأس وقلق بالحياة وبلواعج الحب، غاضباً من الله وواضعاً اللوم عليه. كنت أشعر كأني شاعر وحالم بائس، أجمل أحلامه ليس أكثر من فقاعة صابون ملونة، رقيقة، بينما هنالك في العالم آلاف آخرون، سعداء بقوتهم الفياضة، يمدون بفرح أيديهم ليغرفوا من هبات الحياة.

تماماً مثلما بدا لي أني أرى كل جمال الجبال المهيب وكل ما استمتعت به حواسي وكأنما من خلال حجاب ومن مسافة هائلة، كذلك نهض بيني وبين تفجّر الأسى العنيف المتكرر حجابٌ وقليلٌ من الشعور بالغربة، وسرعان ما أمسى بريق النهارات وحزن الليالي أشبه باصوات خارجية أنصتُّ إليها بقلب طاهر. رأيتني وشعرتني مثل كتلة من السحب المتحركة، مثل ساحة حرب تعج بالقوات المقاتلة، وسواء أشعرت بالسرور والفرح، أم بالحزن والغم، فكلا المزاجين كانا أوضح بالنسبة إليَّ ومفهومين أكثر. لقد صعدا من أعماق روحي،

ووصلا إليَّ من الخارج على شكل تناغمات وسلسلة من الأصوات سمعتها وكأنما في منامي وتملكني رغماً عني.

وفي هدأة ذات أمسية ولدى عودتي من الجانب الصخري من الوادي فهمت الأمر كله بوضوح للمرة الأولى، وبينما كنت أتفكر فيه وقد وجدت أني لغز تبدّى لي فجأة فحواه الكامل ـ إنه عودة تلك الساعات الغريبة النائية التي عشتها بشيء من الريبة وأنا أصغر سناً. وبعودة هذه الذكرى، عاد ذاك الصفاء الرائع، سطوع المشاعر وشفافيتها كما الزجاج حيث يظهر كل شيء بلا قناع، حيث لا تعود الأشياء تُصنَّف تحت خانة حزن أو سعادة، بل كل شيء يدل على القوة والمغزى والتحرر الخلاق. لقد كانت الموسيقى تتصاعد من هياج حساسياتي المتعمقة، وتنوعها وتلاطمها.

عندئذ بت أرى الأيام المشرقة، وأشعة الشمس والغابة، والصخور البنية والجبال البعيدة المجللة بالثلوج بمشاعر السعادة والفرح المتزايدة، وبإدراك جديد. كنت خلال ساعات الليل أشعر بقلبي العليل يتسع ويخفق بقوة أكبر، ولم أعد أفرِّق بين المتعة والألم، بل أصبح كل منهما يشبه الآخر، كلاهما يوجع وكلاهما أثير. وسواء أكانت حياتي الداخلية تجري على ما يرام أم بشكل سيء، فإن قوتي المكتشفة كانت تقف بهدوء في الخارج تكتفي بالنظر وعرفت أن النور والظلام متلازمان وأن الحزن والسكينة متناغمان، ويشكلان جزءاً لا يتجزأ من الموسيقى العظيمة نفسها.

لم أتمكن من تدوين هذه الموسيقى، كانت ما تزال غريبة عليّ وكان مجالها ما يزال غير مألوف. ولكن كان في استطاعتي أن أسمعها. واستطعت أن أشعر بالعالم مكتملاً معي، استطعت أيضاً أن أستبقي شيئاً منه، جزءاً صغيراً وصدى منه، مختصراً ومترجماً. فكَّرتُ فيه

وركَّزتُ تفكيري عليه على مدى ايام طويلة. ووجدت أنه يمكن التعبير عنه بواسطة آلتي كمان وبدأت بكل براءة، كفرح طائر يجرب جناحيه، أؤلف سوناتتي الأولى.

بينما كنت أعزف الحركة الأولى على كماني في غرفتي ذات صباح، كنت أعي وعياً تاماً نقاط ضعفها، ولا اكتمالها وعيوبها، لكن كل نغمة فيها كانت تتغلغل فيَّ كارتجاف القلب. لم أكن أعلم إن كانت تلك الموسيقى جيدة، لكني كنت أعرف أنها موسيقاي الخاصة، ولدتْ في داخلي وخبرتها ولم أسمعها قط في أي مكان آخر.

في الطابق السفلي في غرفة شرب القهوة كان والد صاحب النُزُل يمضي وقته جالساً، عاماً بعد عام، بشعره الأبيض كالثلج، لا يأتي بحركة، وكان عمره يتجاوز الثمانين. لم يكن يتفوه بأي كلمة ويكتفي بالنظر فيما حوله بانتباه من خلال عينيه الهادئتين. ولم يكن معروفاً إن كان الرجل الرزين، الصامت، يمتلك أكثر من الحكمة الإنسانية وسكون الروح، أو فيما إذا كانت قواه العقلية قد فارقته. فنزلت إلى الرجل العجوز ذات صباح، وأنا أتأبط كماني، فقد كنت قد لاحظت أنه دائماً ينصت بانتباه إلى عزفي بل في الحقيقة إلى كل موسيقى. ولما ألفيته وحده وقفت أمامه، ودوزنت كماني ورحت أعزف حركتي الأولى له. فوجَّه العجوز عينيه الهادئتين، اللتين كان بياضهما ضارب إلى الصفرة والجفنان أحمرين، نحوي وأخذ ينصت، وكلما فكرت في تلك الموسيقى، يتراءى لي العجوز من جديد وعيناه الهادئتان تراقبانني. بعد أن انتهيت من العزف، انحنيت له. فطرفت عيناه دلالة الدراية وبدا أنه يفهم كل شيء. وبادلتني عيناه المصفرتان النظر، ثم حَرَف تحديقه وأطرق برأسه قليلاً وعاد إلى وضعه الساكن السابق.

بدا ألخريف باكراً في تلك الأعالي، وبينما كنت أتهيأ للمغادرة ذات صباح، عمَّ ضباب كثيف كان يهطل رذاذاً ناعماً كمطر بارد، لكني تزودت بسطوع شمس الأيام المشرقة وأيضاً، وكذكرى سعيدة، بشجاعة تعينني في دربي التالي من الحياة.



3

خلال الفصل الدراسي الأخير في معهد الموسيقى، تعرفت إلى المغني ميوث، الذي كان يتمتع بسمعة مشرفة تماماً في المدينة. وكان قد أنهى دراسته قبل أربع سنوات وحصل لتوه على منصب في دار الأوبرا حيث كان ما يزال عندئذ يقوم بأدوار أقل أهمية، وكان إلى جانب مغنين أكبر سناً وأكثر شهرة يبدو مغموراً. إلا أن الكثير من الناس اعتبروا أنه سيشتهر في المستقبل وأن خطوته التالية يجب أن توصله إلى الشهرة. وكنت قد شاهدته وهو على خشبة المسرح في عدد من الأدوار التمثيلية وقد أثّر بي تأثيراً قوياً، وإن لم أجده دائماً مُرضياً.

وقد تعارفنا على الشكل التالي. فبعد عودتي إلى معهد الموسيقى، أخذت سوناتا الكمان مع أغنيتين أخريين كنت قد ألفتهما إلى الأستاذ الذي أبدى لي تعاطفاً لطيفاً. ووعدني بالنظر في عملي وإعطاء رأيه فيه. ولم يفعل ذلك إلا بعد مرور وقت طويل، وكنت في تلك الأثناء أستشف قدراً من الإحساس بالحرج من ناحيته أينما قابلته. وأخيراً تنحى بي جانباً ذات يوم وأعاد إليّ المخطوط.

قال بشيء من الانزعاج: « هاك عملك، أتمنى أن لا تكون قد بنيت آمالاً كثيرة عليه! لا شك في أن فيه لفتة، وقد تنجز شيئاً مهماً في المستقبل. ولكي أكون في منتهى الصدق معك، كنت أعتقد أنك قد أضحيت أكثر نضجاً وسكينة. ولم أكن أعزو إليك مثل هذه الطبيعة المشبوبة. توقعت شيئاً أكثر هدوءً وإمتاعاً، شيئاً أدق تقنياً ويمكن الحكم عليه تقنياً. لكن عملك ليس جيداً من الناحية التقنية لذا لا أستطيع أن أقول عنه الكثير في هذا المجال. إنه محاولة جريئة، ولا أجدني قادراً على الحكم على ميزته، أما بوصفي أستاذك فلا أستطيع أن أمدحه. لقد وضعت فيه في وقت واحد أقل وأكثر مما توقعت وأنت بهذا تقحمني في موقف محرج. إنني موغل في كوني أستاذاً مدرسياً بحيث أتغاضى عن خطايا الأسلوب، ولا أحب أن أقول إن كنت ستقدر على ترجيحها بالأصالة. لذا سوف أنتظر ريثما أطّلع على المزيد من أعمالك. وأتمنى لك الحظ الحسن. أعرف أنك سوف تعود إلى التأليف ».

ثم ابتعدت ولم أعرف ماذا أفهم من حكمه، فهو لم يكن نقداً حقيقياً. كان يخيَّل إليَّ أنه يكفي أن يطّلع على عمل ما حتى يدرك فوراً إن كان قد نُفّذ من قبيل العبث لتمضية الوقت، أم أنه قد نشأ في الضرورة ومن القلب.

نحّيت المخطوط بعيداً وقررت أن أنسى أمره تماماً في الوقت الحاضر وأن أعمل بكل جهدي خلال الأشهر القليلة الأخيرة في سنتي الدراسية.

وذات يوم تلقيت دعوة من عائلة ذات اهتمامات موسيقية قوية كان أفرادها أصدقاء لوالدي وكنت معتاداً على أن أقوم بزيارتهم مرة أو اثنتين في العام. كانت واحدة من تلك التجمعات

المسائية المعتادة فيما عدا وجود شخصية أو اثنتين من دار الأوبرا كنت أعرفهما بالنظر. المغني ميوث أيضاً كان هناك. وقد أثار اهتمامي أكثر من غيره وكانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها عن قرب. كان طويل القامة ووسيماً، أسمر، وذا طلعة مؤثرة وهيئة تدل على الثقة وربما مدللاً قليلاً. وكان واضحاً أنه يحظى بإعجاب النساء. وبخلاف مظهره لم يبد عليه أنه مسرور أو فخور وكان في مظهره وتقاسيم وجهه ما يعبر عن الكثير من البحث والسخط. وعندما قدموني إليه ردَّ على ذلك بانحناءة رسمية قصيرة، وبدون أن يقول أي شيء لي. وبعد قليل اقترب مني فجأة وقال: « أليس اسمك هو "كون"؟ إذن فأنا أعرفك قليلاً. لقد عرض عليّ البروفسور س. عملك. يجب أن لا تتحامل عليه، إنه لم يكن مهملاً. لقد اقتربت منه في الوقت الذي كان يراجعه، ولما كان يحتوي على أغنية، وجدتني أطّلع عليها بعد أن استأذنت منه ».

دهشت وارتبكت. سألته: « لماذا تخبرني عن هذا؟ أعتقد أنها لم تعجب البروفسور ».

« هل يؤلمك هذا؟ حسن، أنا أحببت الأغنية كثيراً. ويمكنني أن أغنيها إذا وجدت من يرافقني. وأريد منك أن تعطنيها ».

« أعجبتك؟ إذن يمكن أن تغنّى؟ ».

« طبعاً. وإن كانت لا تناسب أي نوع من الحفلات الموسيقية. أريد أن آخذها لأؤديها في المنزل ».

« سأدونها لك. ولكن لماذا تريد أن تحصل عليها؟ ».

« لأنها تثير اهتمامي. هناك في هذه الأغنية موسيقى حقيقية. أنت نفسك تعرف هذا ».

نظر إليَّ، وكانت طريقته في النظر إلى الناس تزعجني. لقد وجَّه نظره مباشرة إلى وجهي، وراح يدقق فيه بهدوء تام، وكانت عيناه منعمتين بالفضول.

« إنك أصغر سناً مما كنت أعتقد. لا بد أنك قد عانيت الكثير لتوك ».

قلت: « نعم، ولكن لا أستطيع أن أتحدث عن الأمر».

« لا داعي لذلك. لن أطرح عليك اية أسئلة ».

نظرته أزعجتني. فأولاً وقبل أي شيء، لقد كان رجلاً يشار إليه بالبنان، وأنا كنت ما أزال تلميذاً، بحيث على الرغم من أني لم أحب قط أسلوبهُ في طرح الأسئلة، فإن دفاعي عن نفسي كان ضعيفاً رعديداً. وهو لم يكن متعجرفاً إلا أنه نَفَذ بشكل ما إلى شعوري بسوء الحظ وكل ما استطعت أن أفعله كان أن أبدي قليلاً من المقاومة لأنه لم يكن هناك من جانبي أي معارضة حقيقية. كان لدي شعور بأنه تعيس وبأن لديه أسلوباً قوياً، مقيتاً، في القبض على الناس وكأنه يريد أن ينتزع شيئاً منهم يريحهم. فعيناه الداكنتان، الثاقبتان كانتا حزينتين بقدر ما كانتا جريئتين والتعبير المرتسم على وجهه جعله يبدو أكبر في السن مما هو فعلاً!.

بعد ذلك بوقت قصير، وملاحظاته ما تزال تشغل أفكاري، رأيته يتسامر بتهذيب مع إبنة المضيف، التي كانت تنصت إليه بابتهاج وترنو إليه وكأنه شخص رائع.

كنت منذ وقعتْ لي الحادثة أعيش حياة موحشة، حتى أني بقيت أفكر في تلك المقابلة اياماً عديدة، وأزعجتني. لقد كنت فاقداً تماماً الثقة في نفسي بحيث أعجز عن الوقوف أمام هذا الرجل المتفوق بدون أن ينتابني الرعب، إلا أني كنت أيضاً أشعر بالوحشة

الشديدة وبأمسّ الحاجة إلى شخص ما بحيث لا يسعني إلا أن أفرح لتقدّمه مني. وأخيراً، حسبت أنه قد نسيني ونسي نزوات تلك الأمسية. ثم إذا به يزورني في نزلي، مما سبّب لي الاضطراب.

حدث ذلك في أمسية من شهر كانون أول، وكان الظلام قد حل. طرق المغني على بابي ودخل وكأنما لا شيء استثنائياً في زيارته، وبدون أية مقدمات أو تفاهات انخرط في حديث معي. قال أنه يجب أن يحصل على أغنيتي، وعندما رأى جهاز البيانو الذي استأجرته في الغرفة، أراد أن يغنيها فوراً. واضطررت إلى أن أجلس وأصاحبه. وهكذا سمعت أغنيتي تغنّى بشكل حسن، وللمرة الأولى. وقد كانت حزينة وتأثرت بها رغماً عني، لأنه لم يغنها بكامل طاقته على الغناء، وإنما بنعومة، كأنما لنفسه. وكان النص، الذي كنت قد قرأته في إحدى المجلات في السنة السابقة ونسخته، هو كما يلي:

عندما تهب ريح الجنوب
ينهار التيهور*
وتدمدم ترنيمة الموت.
أهذه إرادة الله؟

أتجول وحدي
في أراضي البشر
منبوذاً ومجهولاً
أهذه إرادة الله؟

---

* التيهور: هو كتل الثلج المنهارة من الأعالي.

الألم قسمتي،
وقلبي كالرصاص.
أخشى أن يكون الله ميتاً!
ـ فهل من حياة لي عندئذ؟.
فهمت من أسلوبه في غنائها أنها أعجبته.

ران علينا الصمت بعض الوقت، ثم سألته إن كان يجد فيه اية أخطاء أو أن يقترح إجراء أي تصحيحات.

رماني بإحدى نظراته الحادة وهز رأسه نفياً.

قال: «لا شيء فيه يستلزم التصحيح. أنا لا أدري إذا كان التأليف الموسيقي جيداً أم لا. ولا أفهم أي شيء بهذا الصدد. الأغنية تتصف بالخبرة والإحساس ولأني من ناحيتي لا أكتب الشعر، أو أؤلف موسيقى، فإني أفرح عندما أعثر على شيء يبدو متفرداً وأرغب في غنائه».

هتفت قائلاً: «لكن النص ليس من تأليفي».

«أحقاً؟ حسن، لا يهم، إن أهمية النص ثانوية. لا بد أنك قد عشت مضمونه، وإلا لما تمكنت من وضع موسيقى له».

أعطيته النسخة التي كنت قد أعددتها منذ بضعة أيام. فتناولها، ولفَّها ثم أقحمها في جيب معطفه.

قال وهو يمد يده إليّ: «تعال وزرني في وقت ما، إذا شئت. أنا أعرف أنك تحيا حياة هادئة. ولا أريد أن أعكر صفاءها. لكن الإنسان يسعد بين حين وآخر بملاقاة وجه إنسان طيب».

بعد أن غادر، ترك معي كلماته الأخيرة وابتسامته. كانت محفوظة في الأغنية التي غنى وفي كل ما أعرفه عن الرجل. وكلما فكرت في الأمر اتضح أكثر في ذهني، وفي آخر المطاف شعرت أني أفهم

هذا الرجل. فهمت سبب قدومه إليّ، ولماذا أحب أغنيتي ولماذا كاد يكون قد تطفّل عليّ بوقاحة، ولماذا بدا لي نصف حيي، ونصف جريء. لقد كان تعيساً، ثمة ألم داخلي يذهشه، ولم يعد يحتمل وحدته. وهذا الرجل التعيس كان أبياً وقد ذاق طعم العزلة، ولم يعد في إمكانه أن يتحملها أكثر، كان يبحث عن الناس، عن نظرة عطف وقليل من الفهم، وكان مستعداً مقابل ذلك أن يضحي بنفسه. هذا ما فكرت فيه في ذلك الوقت.

إن أفكاري حول هاينريش ميوث لم تكن واضحة. لقد استشعرت رغباته وحاجاته، غير أني خشيت أن يكون قاسياً، لا يرحم، يمكن أن يستغلني ومن ثم ينبذني. لقد كنت صغيراً جداً ومعرفتي بالناس محدودة جداً بحيث أفهم وأقبل أنه كان تقريباً يقف عارياً أمام الناس وأنه بفعله هذا إنما يتجرد من أي إحساس بالخجل. غير أني أيضاً وجدت أنه رجل عاطفي حساس يعاني وأنه وحيد. وتذكرت، لا إرادياً، إشاعات كنت قد سمعتها عن ميوث، حديث طلاب مدارس غامض، ومتفكك، نسيت تفاصيله الدقيقة، لكن صداه وأسلوبه ما زلت أحتفظ بهما في ذاكرتي. كانت هناك حكايا مثيرة عن نساء ومغامرات، ويدون أن أتذكر أياً منها، علق في ذهني شيء عن سفك دماء، وعن كونه متورطاً في قضية جريمة قتل أو انتحار.

عندما تغلبت على حيائي وسألت أحد زملائي عن الأمر، بدت لي المسالة أقل خطورة مما تصورت. فقد قيل لي إن ميوث كان على علاقة حب مع صبية من أسرة كريمة، وأن هذه الأخيرة قد انتحرت بالفعل قبل سنتين، ولم يغامر أحد بربط هذا المغني بتلك القضية بأكثر من إيراد تلميحات حذرة. ومن الواضح أن مقابلتي لهذا الشخص

الغريب، المزعج نوعاً ما، قد ألهب مخيلتي فخلقت هذا الجو من الرعب حوله. وعلى الرغم من ذلك، فلا بد أنه قد عانى جراء علاقة الحب تلك.

لم تكن لدي الشجاعة على أن أذهب لأقابله، لم أستطع أن أخفي على نفسي أن هاينريش ميوث كان رجلاً تعيساً وربما يائساً وأنه يريدني ويحتاجني، وكنت أحياناً أشعر أن عليّ أن ألبي النداء وأني إنْ لم أفعل أكون مثيراً للامتعاض. إلا أني لم أذهب، ثمة شعور آخر منعني. لم أتمكن من إعطاء ميوث ما التمسه مني. لقد كنت منعزلاً مختلفاً تماماً عنه ومع أني كنت أيضاً من نواح متعددة منعزلاً ولا يفهمني بقية الناس كل الفهم. ومع أني كنت مختلفاً عن كل إنسان آخر ومنفصلاً عن غالبية الناس بفعل القدر وبما أوتيت من مواهب، فإني لم أرد أن أجعل من ذلك قضية. لقد كان لديّ إحساس بالمقت والبغض نحو سلوك ميوث العنيف. قلت في نفسي، إنه رجل متكلف ومغامر، وربما مقدَّر له أن يحيا حياة مأساوية وعامة. أما أنا، فعلى العكس، أردت حياة هادئة، لم يكن يناسبني الإثارة والحديث المتهور- كانت الاستقالة هي قدري. هكذا رحت أتجادل مع نفسي لأدخل السكينة إلى عقلي. إن رجلاً طرق بابي، ورثيت لحاله وربما كان عليّ أن أقف وجهاً لوجه معه، لكني آثرت السكينة ولم أسمح له بالدخول، وانهمكت باندفاع في عملي لكني لم أتمكن من التخلص من الفكرة المعذبة القائلة إن شخصاً وقف خلفي وكبحني.

لما لم آتي إليه، إذا بميوث يأخذ المبادرة وتلقيت رسالة منه مكتوبة بأحرف كبيرة واضحة، تقول:

سيدي العزيز،

عادة أحتفل بعيد ميلادي في الحادي عشر من شهر كانون ثاني مع ثلة من الأصدقاء. ما رأيك في أن تنضم إلينا؟ سوف يسعدنا أن

نستمع إلى سوناتاك بهذه المناسبة. ما رأيك؟ هل لديك رفيق يمكنك أن تعزف معه، أم هل أرسل لك أحدهم؟ شتيفان كرانتزل سيكون معقولاً. سيدخل هذا السرور إلى نفسي.

هاينريش ميوث

لم أتوقع هذا . أقصد أن أعزف موسيقاي، التي لا أحد بعد يعرف عنها أي شيء، أمام خبراء، وأن أعزف على الكمان مع كرانتزل! وقبلت، شاعراً بالخجل وبالعرفان، الدعوة، وبعد يومين فقط طلب مني كرانتزل أن أرسل له نص الموسيقى. وبعد مرور يومين آخرين، دعاني إلى زيارته. كان عازف الكمان الشهير ما يزال صغير السن، شديد شحوب الوجه ونحيلاً وبدا عليه أنه عازف إفرادي ماهر.

حالما دخلت قال: « إذن أنت صديق ميوث! حسن، فلنبدأ فوراً. إذا انسجمنا معاً، فسوف يسير الأمر على ما يرام بعد عزف المقطوعة مرتين أو ثلاث ».

ثم وضع أمامي، وأعطاني الجزء الذي يؤديه الكمان الثاني، وحدَّد الوقت ثم بدأ بلمسته الحساسة الخفيفة، بحيث أني بالمقارنة معه كنت ضعيفاً جداً.

صرخ من موقعه في وجهي بدون أن يكف عن العزف: « لا تكن رعديداً هكذا! » وتابعنا العزف.

قال: « لا بأس! من المؤسف أنه لا يوجد لديك آلة كمان أفضل. ولكن لا عليك. والآن فلنعزف حركة "ألليغرو" أسرع قليلاً حتى لا يحسبها أحد مارشاً جنائزياً. مستعد! ».

عندئذ قمت بعزف موسيقاي بثقة تامة في النفس مع العازف الماهر، وآلة كماني يبدو صوتها جيداً جداً إلى جانب كمانه الثمين. وقد فوجئت إذ ألفيت هذا الرجل ذا المظهر المتميز طبيعياً جداً، حقاً،

بل وحتى ساذجاً. ولما أخذت أشعر بتآلف معه وأستجمع شجاعتي، سألته مع شيء من التردد عن رأيه في تأليفي الموسيقي.

« عليك أن تسأل شخصاً آخر، يا سيدي العزيز. إنني لا أفهم كثيراً في هذا الشأن. إنه غير عادي قليلاً، لكن الناس يحبونه. وبما إن ميوث قد أحبه، فيجب أن تكون سعيداً. إذ ليس من السهل إثارة إعجابه ».

نفحني ببعض النصح بخصوص العزف وبين لي بعض المواقع التي يتوجب إجراء تعديلات عليها. واتفقنا على القيام بالتدرب مرة أخرى في اليوم التالي، ومن ثم غادرت.

أراحني أن أجد الرجل طبيعياً وصادقاً هكذا. وإذا كان أحد أصدقاء ميوث، فربما أستطيع أيضاً أن أجد لي مكاناً بينهم. لا شك في أنه كان فناناً راسخ القدم وكنت أنا مبتدئاً لا يتوقع منه الكثير. وشعرت بالأسف لأن لا أحد يريد أن يبدي رأيه الصريح في عملي. كنت أفضل سماع أقسى نقد على تلك الملاحظات السمجة التي لا تقول شيئاً.

في تلك المرة كان البرد قارساً ـ وكان من الصعب الحصول على الدفء. وذهب رفاقي لكي يتزلجوا على الثلج بكل حماس. وكان قد مر عام منذ أن خرجنا مع "ليدي". وتلك الفترة لم تكن سعيدة بالنسبة إليّ. ورحت أتطلع إلى الأمسية التي سأقضيها في منزل ميوث، ليس لأني كنت أتوقع الكثير منها، وإنما لأني بقيت فترة طويلة بلا أصدقاء ولا جو بهيج. وخلال الليلة السابقة ليوم الحادي عشر من كانون الثاني، استيقظت على ضجة غير عادية وفوجئت بأن الجو لم يعد بارداً، فقد هبت فجأة الرياح الجنوبية بقوة، رطبة ودافئة. وفي الأعالي كانت العاصفة قد جرفت الكتل الثقيلة من الغيوم التي غطت السماء، ومن بين الفجوات الصغيرة بين السحب شعّت بضع نجمات كبيرة

الحجم ومتلألئة بشكل رائع. وكانت قد ظهرت بقع سوداء على أسطح المنازل، وبحلول الصباح، وعندما خرجت، كانت السحب قد اختفت. وبدت الشوارع ووجوه الناس متغيرة بشكل غريب، وكان كل مكان ينضح بأنفاس ربيع مبكر.

في ذاك اليوم رحت أتجول وأنا في حالة من الإثارة المحمومة، من جهة بسبب الريح الجنوبية والهواء المسكر، ومن جهة أخرى ترقباً للأمسية. كنت كثيراً ما أخرج السوناتا، وأعزف أجزاءً منها، ثم أنحّيها بعيداً ثانية. أحياناً كنت أجدها جميلة جداً، وفي مرات أخرى كانت تبدو تافهة، وكئيبة وغامضة. ولم أعد أحتمل حالة الاضطراب والقلق هذه. وأخيراً، لم أعد أعرف إن كنت أتطلع إلى مجيء الأمسية المرتقبة أم لا.

إلا أنها جاءت. لبستُ معطفي، وحملت صندوق كماني، وتوجهت لأبحث عن منزل ميوث. ولم أعثر عليه في الظلام إلا بصعوبة. كان نائياً في عمق الضواحي يؤدي إليه درب مجهول وغير مطروق. وكان منزلاً منفصلاً مع حديقة كبيرة، بدت غير منسقة ومهملة. ومن البوابة الخلفية غير المغلقة وثب عليّ كلب كبير، فصفّر أحدهم له من النافذة ليبتعد، ثم صحبني وهو يزمجر حتى المدخل. هنا استقبلتني عجوز ضئيلة الجسم على وجهها تعابير قلقة، وتناولت مني معطفي، وقادتني على طول رواق براق الإضاءة.

كان كرانتزل، عازف الكمان، يعيش باسلوب شديد الأناقة، وقد توقعت من ميوث، الذي كان معروفاً بثرائه، أن يحيا حياة مشابهة في سخائها. وها أنا أرى غرفتين كبيرتين، فسيحتين أكبر بكثير من أن تناسبا عازب لا يكاد يلجأ إلى البيت. وخلافاً لهذا، إن كل شيء شديد البساطة، بل ليس بسيطاً حقاً وإنما عَرَضياً وغير مرتب. وكان جزء من

الأثاث عتيقاً وكأنه يخص المنزل، ويحتوي بين قطعه بعض الجديد منها، ابتيعت بلا تمييز ووزّعت في الغرفة بلا أي تدبّر. الإضاءة وحدها كانت رائعة. لم تكن هناك إضاءة على الغاز- وبدل ذلك كان هناك عدد كبير جداً من الشموع البيضاء موضوعة في شمعدانات بيوترية pewter جذابة، ومفردة. وفي الغرفة الرئيسية كان هناك أيضاً ما يشبه الثريا، عبارة عن دائرة نحاسية بسيطة تحمل شموعاً عديدة. والقطعة الرئيسية هنا كانت آلة بيانو ضخمة جيدة.

في الغرفة التي اقتدت إليها وقف عدد من الرجال يتبادلون أطراف الحديث. فوضعتُ صندوق كماني وقلتُ: « أسعدتم مساءً! ». فأومأ لي بعضهم ومن ثم عادوا فاستدار بعضهم إلى بعض من جديد. وقفت في مكاني منزعجاً. ثم اقترب كرانتزل مني، وكان موجوداً بينهم لكنه لم يرني فوراً ومدَّ يده لي، وقدّمني إلى أصدقائه وقال: « هاكم صاحبنا عازف الكمان الجديد - هل أحضرت كمانك معك؟ ». ثم نادى عبر الغرفة المجاورة: « ميوث، الشاب صاحب السوناتا حضر».

عندئذ دخل هاينريش ميوث، وحياني بود ضاف وأخذني إلى غرفة عزف الموسيقى التي كان يعمها جو من المرح والبهجة. ناولتني امرأة جميلة بثوب أبيض كأساً من الشيري. كانت ممثلة من المسرح الملكي. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما لاحظت أنه فيما عداها لم يُدعَ أي من زملاء المضيف. كانت المرأة الوحيدة الحاضرة.

شربت محتوى كأسي بسرعة كبيرة، أولاً بسبب ارتباكي، ومن ناحية أخرى لحاجتي الغريزية للحصول على الدفء بعد مسير المساء الرطب، فملأت لي آخر متجاهلة احتجاجي: « خذه، لن يؤذيك. إننا لا نتناول الطعام إلا بعد سماع الموسيقى. هل أحضرت كمانك معك - والسوناتا؟ ».

أدليتُ بأجوبة متحفظة وارتبكت. لم أكن أعرف وجه قرابتها إلى ميوث. بدت أنها سيدة المنزل، وكانت على قدر وافر من الجاذبية. وقد لاحظت تالياً أن صديقي الجديد لا يرافق إلا نساء على جانب كبير من الجمال.

في تلك الأثناء كان الجميع قد حضروا إلى غرفة الموسيقى. ووضع ميوث حامل نوتة الموسيقى. ثم جلس كل في مكانه وللتو بدأنا أنا وكرانتزل نعزف المقطوعة الموسيقية. عزفت أنا بشكل آلي؛ فقد بدت لي الموسيقى ضعيفة. ولم أع إلا بين حين وآخر، في لحظات عابرة أشبه بومضات من النور، أنني كنت أعزف هناك مع كرانتزل وأن الأمسية التي طال انتظاري لها في خوف قد حلّت، وأن ثمة ثلة صغيرة من الخبراء والموسيقيين البصيرين جالسة تنصت إلى سوناتتي. ولم أع إلا أثناء عزف حركة الروندو أن كرانتزل كان يعزف بشكل رائع، غير أني كنت ما أزال حييّاً وشرد ذهني عن الموسيقى حتى أني رحت باستمرار أفكر في أمور أخرى وفجأة تبدى لي أني نسيت حتى أن أهنئ ميوث بمناسبة عيد ميلاده.

انتهينا من عزف السوناتة. فنهضت السيدة الجميلة، ومدّت يدها لكرانتزل ولي، ثم فتحت باب غرفة أصغر حيث أُعدت مائدة طعام، ووُضِعَتْ أزهار وزجاجات النبيذ.

هتف أحد الرجال: «أخيراً! أكاد أموت جوعاً!».

أجابته السيدة: «أنت شخص فظيع، ماذا سيظن بنا الموسيقي؟».

«أي موسيقي؟ أهو هنا؟».

دلّت عليّ: «ها هو».

نظر إليّ وضحك: «كان يجب أن تخبرني مسبقاً. مهما يكن، لقد كانت الموسيقى ممتعة جداً. ولكن عندما يكون الإنسان جائعاً.».

باشرنا تناول الطعام حالما انتهينا من شرب الحساء وبعد صب النبيذ الأبيض، نهض كرانتزل واقفاً واقترح نخباً على شرف المضيف بمناسبة عيد ميلاده. وبعد شرب النخب مباشرة، نهض ميوث واقفاً: «عزيزي كرانتزل، إذا ظننت أني سألقي خطاباً كردٍ، فأنت مخطئ. لا أريد أي خطابات أخرى، أرجوك. فيما عدا ربما الخطاب الوحيد الضروري، وهذا سآخذه على عاتقي. أشكرك يا صديقنا الشاب على سوناتتك، التي أعتقد أنها رائعة. وربما سيسر صديقنا كرانتزل أن يرحب بموسيقاه ذات يوم، بل يجب أن يفعل، لأنه عزف السوناتا بانسجام عميق. إنني اشرب نخب على شرف الموسيقي وشرف صداقتنا الوثيقة.

تقارعوا جميعاً بالكؤوس، ومازحوني قليلاً، وسرعان ما ساعد النبيذ الجيد على إشاعة جو من البهجة انخرطتُ فيه. وكان قد مرّ عليّ ردح طويل من الزمن لم أستمتع وأشعر بالارتياح هكذا، بل في الحقيقة لم أكن قد فعلت ذلك منذ عام كامل. والآن، ها هو الضحك، والنبيذ، وقرع الكؤوس، وتمازج الأصوات ومرأى امرأة جميلة، مرحة، يفتح أمامي أبواب المسرة الموصدة، وانسجمت بسهولة في جو المرح المرسل، والحديث الطلق والحيوي والوجوه المبتسمة.

بُعيد انتهاء تناول الوجبة، نهض الجميع وعادوا إلى غرفة الموسيقى، حيث وُزّعت كؤوس النبيذ والسجائر. واقترب مني رجل هادئ المظهر لم يكن قد تكلم كثيراً ولم أكن أعرف اسمه، وأسمعني بعض كلمات التقريظ حول السوناتا، وكنت قد نسيت أمرها تماماً. ثم جرتني الممثلة للانخراط في الحديث وجلس ميوث إلى جانبنا.

وشربنا كأس نبيذ آخر نخب صداقتنا وفجأة، ومضت عيناه الفاحمتان الحزينتان، وقال: «الآن تذكرت قصتك»، ثم التفت إلى السيدة: «لقد كسر عظامه بينما كان يتزلج على الجليد، بدافع حبه لفتاة جميلة». ثم عاد يلتفت إليّ: «شيء جميل - أن ينقلب المرء راساً على عقب ويتدحرج إلى أسفل التل لحظة يكون الحب في أوجه ولا يزال نقياً طاهراً. إن الأمر يستحق أن يفقد المرء ساقاً سليمة لأجله». وأفرغ كأسه وهو يضحك. ومن جديد بدت عليه الكآبة والتفكير. ثم قال: «ما الذي يجعلك تهتم بتأليف الموسيقى؟».

أخبرته عن تأثير الموسيقى عليّ منذ صغري. أخبرته عما وقع في السابق، عن تحليقي بين الجبال، وعن الأغنية والسوناتا.

قال ببطء: «فهمت، ولكن لماذا تمنحك السعادة؟ إذ لا يمكنك أن تعبر عن الحزن على الورق وتنتهي بذلك منه».

أجبت: «ليس هذا ما أريد أن أفعله، لا شيء أريد أن أنحّيه جانباً وأتخلّص منه غير الضعف والانقباض. أريد أن أشعر أن المتعة والألم منبعهما واحد، وأنهما جانبان لقوة واحدة، وجزءان من مقطوعة موسيقية واحدة، وكليهما جميل وكليهما أساسي».

صرخ بقوة: «يا رجل، إن لديك ساقاً معاقة! فهل تستطيع الموسيقى أن تنسيك إياها؟».

«لا، لماذا؟ على أية حال لا يمكنني أن أجعلها أفضل حالاً».

«ألا يدفعك هذا إلى حافة اليأس؟».

«إنه لا يسعدني، لا شك في هذا، لكن آمل في أن لا يدفعني إلى حافة اليأس».

«إذن فأنت محظوظ، لكني لا أقبل أن أبادل ساقاً بمثل هذا الحظ. إذن هذا هو موقفك من الموسيقى! هذا هو، يا ماريان، سحر الفن الذي نقرأ عنه كثيراً في الكتب؟».

صرخت بغضب: « لا تقل هذا! إنك أنت نفسك لا تغني لتحصل على أجرك، وإنما لأن ذلك يشكل منبعاً لمتعتك وإشباعك، فلماذا تسخر مني ومن نفسك؟ أعتقد أن هذه قسوة ».

قالت ماريان: « هسس! وإلا غضب ».

نظر ميوث إليّ: « لن أغضب. معه كل الحق. ولكن لا يمكنك أن تشعر بكل هذه المرارة حيال ساقك، وإلا لما كان تأليف الموسيقى بالنسبة إليك تعويضاً هاماً. أنت إنسان قانع. يمكن أن يحدث كل شيء وتظل مع ذلك قانعاً. ولكن لا يمكن أن أصدق هذا ».

قفز بغضب واقفاً على قدميه: « إنه غير صحيح. لقد وضعتَ موسيقى لأغنية "التيهور"، وهذا لا يشكل دلالة على العزاء والرضا ـ وإنما على اليأس. إسمع! ».

فجأة ذهب إلى البيانو، وساد الهدوء الغرفة. وبدأ يعزف، ارتكب خطأً، ثم ألغى المقدمة وغنى الأغنية. وهذه المرة غناها بطريقة مختلفة عن تلك التي اتّبعها في منزلي، وكنت أعرف أنه قد غناها كثيراً منذ ذلك الحين. وهو الآن يغنيها بصوت جهير أول عميق وعال كنت قد سمعته من على خشبة المسرح، وكانت قوة الإحساس وكثافته في صوته تجعل السامع ينسى نبرة الغم القاتمة التي تسود الأغنية.

صرخ وهو يشير بإصبعه إليّ: « إن هذا الرجل يقول إنه ألّف هذه الأغنية للمتعة الصرف. إنه لا يعرف شيئاً عن اليأس وهو قانع تماماً بنصيبه! ». تصاعدت الدموع إلى عينيّ خجلاً وغضباً. وصرت ارى كل شيء من خلال غشاوة، ولكي أضع حداً لكل ما يجري نهضت واقفاً استعداداً للمغادرة.

هنا شعرت بيد ناعمة ولكن قوية تضغط لتعيدني إلى كرسيّ ومن ثم تمسّد برفق على شعري. تشكلت حبات من العرق على

حاجبي، وأغمضت عينيّ وكبحت دموعي بصعوبة، وعندما رفعت بصري، رأيت هاينريش ميوث أمامي. ولم يبد أن الآخرين قد لاحظوا ما حصل أو توتري. كانوا يرشفون النبيذ ويضحكون.

قال ميوث برقة: « أنت طفل. عندما يؤلف رجل أغاني كهذه، فيجب أن يكون قد تجاوز هذا التصرف، ولكن يؤسفني أنني وجدت شخصاً أحببته وبالكاد بدأنا بالتعارف حتى نشب بيننا شجار».

قلت بارتباك: « أوه، لابأس،ولكن أرغب في أن أعود إلى المنزل الآن. لقد انتهى أفضل جزء من السهرة ».

« حسن، لن أضغط عليك كي تبقى. أعتقد أن الباقين منا سوف يشربون كأساً أخرى. هل لك أن توصل ماريان إلى منزلها؟ إنها تقطن في الجزء الداخلي من الخندق، إنه على طريقك ».

رمته المرأة الجميلة برهة بنظرة استفهام. ثم التفتت إليّ وقالت: « أتمانع؟ »، فقلت: « بكل سرور»، ونهضت واقفاً. واكتفينا بوداع ميوث. وفي غرفة الملابس ساعدنا الخادم على ارتداء معطفينا، ثم ظهرت المرأة العجوز الضئيلة ناعسة وقادتنا خلال الحديقة إلى البوابة على ضوء مصباح كبير. كانت الريح ما تزال دافئة ورقيقة، تدفع معها كتلاً سوداء من السحب وتثير قمم الأشجار العارية.

لم أغامر بتقديم ذراعي لماريان، لكنها أمسكت بها دون مواربة، وراحت تستنشق هواء الليل وراسها مرفوع عالياً ورفعت نظري إليها متسائلاً ومفعماً بالثقة. كنت لا أزال أشعر بلمسة يدها الناعمة على شعري. كانت تسير ببطء وكأنها تريد أن تقود خطاي.

قلت: « ثمة سيارات أجرة هناك »، فقد كان يؤلمني أن تطابق خطوتها بخطوتي العرجاء وآلمني أيضاً اضطراري أن أظلع إلى جانب هذه المرأة الدافئة، الموفورة الصحة، والهيفاء.

قالت: « دعنا نتمشى قليلاً ». حرصت على أن تسير ببطء شديد. ولو أني كنت مالكاً لأمري، لجذبتها أكثر إليّ. لكني كنت مترعاً بفيض من الألم والغضب حتى أني حررت ذراعها، وعندما رمتني بنظرة دهشة، قلت لها: « لا جدوى من ذلك. اعذريني، يجب أن أسير وحدي ». سارت إلى جانبي يملؤها القلق والعطف، وكنت أفتقر إلى السير المنتصب والوعي بالقوة الجسدية اللذين يؤهلاني لأمثل عكس كل ما اقول وأفعل. وأصبحت هادئاً ومتحفظاً. ولم يكن في مقدوري أن أفعل خلاف ذلك، وإلا لطفرت الدموع في عينيّ ولاشتقت للمس يدها على رأسي ثانية. كنت أفضل أن أهرب وأختفي داخل الشارع الجانبي التالي. لم أكن أريد منها أن تسير ببطء، أن تبدي مراعاة لمشاعري وأن تشفق عليّ.

أخيراً قالت: « أأنت غاضب منه؟ ».

« لا، لقد كان ذلك تصرفاً أحمق مني. إنني بالكاد أعرفه حتى الآن ».

« إنه يزعجني حين يتصرف هكذا. أحياناً أخاف منه ».

« أنت أيضاً؟ ».

« نعم، وأكثر من أي شخص آخر. إنه لا يؤذي أكثر من نفسه. أحياناً يكره نفسه ».

« أوه، إنه يتظاهر ».

قالت مجفلة: « ماذا تقول؟ ».

« أقول إنه ممثل. إذ ما غرضه من السخرية من نفسه ومن الآخرين؟ لماذا ينتزع التجارب والأسرار من صديق ومن ثم يسخّفها - يا له من بائس مسكين! ».

مرة أخرى تبدى غضبي السابق في كلامي. لقد أردت أن أهين هذا الرجل الذي جرحني وأحطّ من قدره وكنت أحسده حقاً. أيضاً

كان احترامي للسيدة قد قلّ منذ أن أخذت تدافع عنه واعترفت بذلك صراحة لي. ألا يكفيها سوءً للتو أنها كانت المرأة الوحيدة في حفلة شرب العزاب هذه؟ لقد كنت معتاداً على قليل من التجاوز في مثل هذه الأمور، ومع ذلك خجلت لأني ملتُ إلى هذه المرأة الجميلة. كنت أفضل أن أبدأ شجاراً في غمرة حنقي معها هي على أن أشعر من ناحيتها بأي شفقة. فلو رأت أني فظ وتركتني، لكان ذلك أفضل من أن تبقى معي وتبدي عطفها عليّ.

لكنها وضعت يدها على ذراعي. وهتفت بودّ، حتى إن صوتها هزّني رغماً عني: « كفى! لا تزد كلمة أخرى! ما خطبك؟ لقد جرحك ميوث بكلمتين أو ثلاث لأنك لم تكن ماهراً أو شجاعاً بما يكفي لتدافع عن نفسك، والآن وقد غادرت المكان، ها أنت تهاجمه بلغة حقود أمامي. يجب أن أدعك تسير وحدك! ».

« كما تشائين. أنا فقط قلت ما يجول في خاطري ».

« لا تكذب! لقد قبلت دعوته وعزفتَ موسيقاك لأجله وقد رأيت كم أعجبته، وكم أسعدك هذا وأفرحك. والآن، ولأنك غاضب ولا تحتمل أن تسمع أي كلمة عنه، ها قد بدأت تهينه. ما كان يجب أن تفعل ذلك، وسوف أعزو هذا إلى النبيذ الذي شربته ».

تبين لي أنها قد أدركت فجأة كيف جرت الأمور معي وأن النبيذ ليس هو سبب ثورتي، وقد غيرت نبرة كلامها على الرغم من أني لم أقم بأقل محاولة لأبرئ نفسي. لقد كنت أعزل.

تابعت قائلة: « أنت لا تعرف ميوث بعد. أنت سمعته يغني، أليس كذلك؟ هذا ما يحبه، بقوة وبعنف، ولكن غالباً رغماً عنه. إنه رجل انفعالي، يتصف بحيوية هائلة ولكنه بلا هدف. إنه يود في كل لحظة لو يتذوق العالم كله، ما يملكه وما يفعله لا يشكل إلا جزءاً

صغيراً جداً منه. إنه يعاقر الخمر لكنه لا يفقد وعيه أبداً. والنساء متاحات له لكنه لم يكن قط سعيداً، ويغني بشكل رائع لكنه لا يريد أن يكون فناناً محترفاً. وإذا أحب شخصاً، يؤذيه. إنه يتظاهر بأنه يزدري كل القانعين، لكنه في الحقيقة يكره نفسه لأنه لا يعرف القناعة. هكذا هو. وقد أبدى الصداقة لك قدر استطاعته».

لزمتُ الصمت العنيد.

استأنفت الكلام: «لعلك لا تحتاج إليه، إن لديك أصدقاء آخرين. ولكن عندما نرى أحدهم يتألم ويسيء السلوك بسبب معاناته، علينا أن نكون متسامحين ونغفر له».

قلت في نفسي، نعم يجب أن نفعل. وأخذ السير في الليل يهدّئ من غلوائي تدريجياً، وعلى الرغم من أن جرحي كان ما يزال مفتوحاً ويلزمه أن يبرأ، إلا أنني كنت تواقاً إلى التفكير باضطراد فيما قالته ماريان وفي سلوكي الأحمق في تلك الأمسية. شعرت أنني مخلوق بائس يدين حقاً باعتذار. فبعد زوال تأثير النبيذ انتابني إحساس مزعج عملت على مكافحته. ولم أقل الكثير بعد ذلك للمرأة الجميلة، التي أضحت عندئذ متوترة ونكدة وهي تسير بجانبي على طول الشوارع المظلمة حيث كان نور أحد المصابيح ينعكس فجأة، هنا وهناك، على السطح المظلم للأرض الرطبة. ثم تبين لي أنني نسيت كماني في منزل ميوث، وفي تلك الأثناء تولتني من جديد الدهشة والرعب من كل شيء. لقد سارت الأمسية في اتجاه مختلف تماماً عما كنت أتوقع، وهبط كل شيء من هاينريش ميوث وكرانتزل عازف الكمان، وأيضاً ماريان المتوقدة، التي لعبت دور الملكة، من عليائهم. فلم يكونوا آلهة أو قديسين يتسنّمون قمماً أولمبية، وإنما مجرد بشر، فأحدهم كان قميئاً ومضحكاً، والآخر مقموعاً أو معجباً بنفسه، وميوث بائساً ويعذب نفسه،

والسيدة الفاتنة تثير الشفقة وبائسة لأنها صديقة رجل حسّي قلق لا يعرف الفرح، ومع ذلك فقد كانت طيبة ولطيفة وعانت الآلام. حتى أنا، الذي شعرت أني قد تغيرت، لم أعد فرداً منعزلاً، بل جزءاً من الجماعة، أميز الصفات الجيدة والسيئة في كل شيء. شعرت أني لا أستطيع أن أحب شخصاً هنا وأكره آخر هناك. لقد كنت خجلاً لافتقاري إلى الفهم وأدركت بوضوح ولأول مرة في حياتي الفتية أنه لا يمكن للمرء أن يشق طريقه في الحياة وبين الناس هكذا ببساطة، يكره هذا ويحب ذاك، يخدم شخصاً ويزدري آخر، وإنما هذه العواطف كلها كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً لا ينفصم، وأحياناً يصعب التمييز بينها. نظرت إلى المرأة السائرة بمحاذاتي والتي أدركت بدورها أن طبيعة أشياء كثيرة تختلف عما ظنت وقالت.

أخيراً وصلنا إلى منزلها. مدت يدها إليّ، فشددتُ عليها وقبلتها. فقالت برقة ولكن بدون أن تبتسم: « نوماً هانئاً! ».

وهذا ما فعلته. توجهت إلى المنزل ولجأت إلى السرير واستغرقت من فوري، لا أدري كيف، في النوم وحتى صباح اليوم التالي. ثم استيقظت مثل عفريت العلبة، وقمت بتماريني الرياضية، ثم اغتسلت وارتديت ملابسي. ولم أفتقد صندوق كماني إلا عندما رأيت معطفي معلقاً على الكرسي، ورحت أفكر في مجريات اليوم الفائت. في غضون ذلك، كنت قد نمت نوماً عميقاً وشعرت بتحسن. ولم أتمكن من ربط الأفكار التي تكونت لدي في الليلة السابقة. لم تبق في ذاكرتي إلا حفنة من التجارب الداخلية الصغيرة، والغريبة، وشعور بالدهشة لأني لم أتغير وبقيت كما أنا.

أردت أن أعمل لكن كماني لم يكن معي. فخرجت، في أول الأمر على مضض، ثم بتصميم، قاصداً الجهة التي ذهبت إليها بالأمس

ووصلت إلى منزل ميوث. سمعته حتى وأنا عند بوابة الحديقة يغني. وثب الكلب عليّ فهرولت المرأة العجوز لتبعده بسرعة. وسمحت لي بالدخول. فأخبرتها أنني فقط أريد أن أبحث عن كماني ولا أريد أن أزعج السيد. عثرت على صندوق الكمان في غرفة تغيير الملابس وكان الكمان في داخله. والنوتة الموسيقية أيضاً. لا بد أن ميوث هو الذي وضعها، لقد كان يفكر فيّ. وكان يغني بصوت عال في مكان قريب. سمعته يتمشى بهدوء جيئة وذهاباً وكأنه ينتعل خفّاً. أحياناً كان ينقر بضع نغمات على آلة البيانو. وقد بدا صوته صافياً ومشرقاً، بل أقوى مما كان يغني في أي وقت على خشبة المسرح. كان يتمرن على أداء دور لا أعرف عنه شيئاً. وكرر أجزاءً منه عدداً من المرات وهو يتمشى بهدوء في أرجاء الغرفة.

أخذت متعلقاتي وهممت بالمغادرة. كنت أشعر بسكينة تامة وبالكاد تأثرت بذكرى اليوم السابق. لكني كنت تواقاً إلى مقابلته ومعرفة ما إذا كان قد تغير. اقتربت، ووضعت يدي، لا إرادياً تقريباً، على مقبض الباب، وأدرته ثم وقفت في ممر الباب.

استدار ميوث، وهو ما يزال يغني. كان يرتدي قميصاً، قميصاً طويلاً جداً، رائعاً، أبيض اللون وبدا فيه نضراً، وكأنه كان قد استحم لتوه. تملكني الخوف بعد فوات الأوان حين فاجأته وهو على هذه الحال. غير أنه لم يفاجأ لأني دخلت بدون أن أقرع الباب ولا ارتبك لأنه لم يكن مرتدياً ملابسه. ومد لي يده وكأن كل شيء عادي تماماً وسألني: « هل تناولت طعام إفطارك؟ ». وعندما قلت "نعم" جلس إلى آلة البيانو.

« هل أغني لك دوري؟ إسمع لحن الآريا! إنه مزيج! سوف تعرضه الأوبرا في دار الأوبرا الملكية بمشاركة بوتنر وديوللي! لكن هذا لا يهمك، أو يهمني أنا، في الحقيقة. كيف حالك؟ هل نلت قسطاً من الراحة؟ في

الليلة الفائتة لم تبد على ما يرام عندما غادرت. ثم إنك كنت غاضباً مني أيضاً. على أية حال، لن نعاود الحديث عن هذا الهراء من جديد».

ثم قال، بدون أن يفسح لي المجال كي أقول أي شيء: «في الواقع، إن كرانتزل شخص مزعج. إنه يرفض أن يعزف سوناتتك».

«لكنه عزفها بالأمس».

«أقصد في حفلة موسيقية. لقد أردته أن يتبناها، لكنه رفض. لكان أمراً عظيماً لو أنها أُدرجَت، مثلاً، في حفل موسيقي صباحي في الشتاء القادم. في الحقيقة، إن كرانتزل ليس أحمق، لكنه كسول. إنه دائماً يعزف موسيقى روسية تنتهي أسماء أصحابها بـ "نسكي" و"وسكي". إنه لا يحب أن يتعلم أي شيء جديد».

بادرت قائلاً: «لا أعتقد أن السوناتة مناسبة لتقديمها في حفل موسيقي ولم أفكر قط في ذلك. إنها لا زالت غير مكتملة من الناحية التقنية».

«هذا هراء! آه منك ومن تقنياتك! نحن لسنا اساتذة مدارس ولا شك في أن اشياء اسوأ سوف تعزف، حتى على يد كرانتزل. أما أنا فلدي رأي مختلف. يجب أن تعطيني الأغنية وأن تؤلف أغان أخرى في وقت قريب! سوف أغادر هذا المكان في الربيع. لقد قدمت استقالتي وسوف أذهب لأقضي عطلة طويلة الأمد، وأريد خلالها أن أقدم حفلة أو حفلتين موسيقيتين، ولكن بإنتاج جديد، وليس بموسيقى شوبرت، وفولف*، ولوفه** والبقية الذين نسمعهم في كل أمسية. أريد على

* فولف، هوغو (1860-1903): موسيقي ألماني.

** لوفه، يوهان ياكوب (1629-1703): موسيقي ألماني.

الأقل مقطوعة موسيقية جديدة أو اثنتين وغير معروفتين، مثل "أغنية التيهور". ما رأيك؟ ».

كان الأمل بسماع أغنياتي يغنيها ميوث أمام الجمهور أشبه ببوابة تفضي إلى المستقبل أشاهد من خلال قضبانها منظراً طبيعياً رائعاً. ولذلك السبب بالذات أردت أن أكون حذراً فلا أسيء إلى لطف ميوث ولا أغالي في الارتباط به. وبدا لي أنه لا يريد أن يقربني منه عنوة، أن يذهلني وأيضاً أن يهيمن عليّ بصورة ما. لذا لم أستسلم.

قلت: « سأرى. أنت بالغ الطيبة معي، أدرك هذا، لكني لا أستطيع أن أعدك بأي شيء. إنني في المرحلة النهائية من دراستي ويجب أن أفكر الآن في إحراز تقدير جيد. ولست متأكداً من أني سأشق طريقي كمؤلف موسيقي. وحتى ذلك الحين، أنا عازف كمان، ويجب أن أحاول أن أحرز موقعاً سريعاً في هذا المجال ».

« أه، نعم، يمكنك أن تحقق كل هذا. ولكن في وسعك أن تفكر في أغنية أخرى كهذه، وتعطنيها. هل ستفعل؟ ».

« نعم، بدون شك، مع أني لا أفهم لماذا تبدي كل هذا الاهتمام بي؟ ».

« أنت خائف مني؟ إنني ببساطة أحب موسيقاك. وأحب أن أغني المزيد من أغانيك وأتطلع إلى ذلك. إن الأمر أنانية محض ».

« حسن، ولكن لماذا تكلمت معي كما فعلت بالأمس؟ ».

« أوه، أراك ما زلت متأثراً! ماذا قلتُ حقاً؟ لم أعد أذكر. على أية حال، لم أقصد أن أعاملك بفظاظة، كما يبدو أني فعلت. ولكن في إمكانك أن تدافع عن نفسك! إن الإنسان يتكلم، وعلى المرء أن يكون كما هو فعلاً، وعلى الناس أن يقبل بعضهم البعض الآخر ».

« هذا هو رأيي، لكنك تفعل عكس ذلك تماماً. إنك تستفزني ولا تقبل ما أقول. تدفعني إلى أن أقول ما لا أرغب في البوح به حتى

لنفسي، وهو أمر خاص بي، ثم تعود لترميه في وجهي على شكل تأنيب. بل إنك تسخر مني بسبب ساقي المتيبسة».

قال هاينريش ميوث ببطء: «حسن، في الحقيقة، إن الناس مختلفون. رجل يثور إذا قلت له الحقيقة، وآخر لا يحتمل أن تلزم الصمت. أنت حنقت لأني لم أعاملك باحترام زائف وأنا حنقت لأنك اتخذت موقف المدافع عن نفسه وحاولت أن تضللني بعبارات منمقة عن عزاء الفن».

«لقد عنيت ما قلت، كل ما في الأمر إنني غير معتاد على التحدث عن هذه الأمور ولا أرغب أيضاً في التحدث عن أمور أخرى. أما عن رؤيتي للأشياء، وكوني حزيناً أو يائساً وكيف حدث وجرحت ساقي، فأريد أن أحتفظ بها لنفسي، ولا أرغب في أن أدع أحداً ينتزعها مني ومن ثم يستخدمها للسخرية مني».

نهض واقفاً.

«إنني لا أرتدي شيئاً، سأذهب لأرتدي ملابسي. أنت إنسان طيب. أما أنا فلست كذلك، أعرف. لن نتحدث في الأمر أكثر من ذلك. ألم يتبين لك أني أحبك؟ انتظر برهة وجيزة. اجلس إلى آلة البيانو حتى أرتدي ملابسي. هل تغني؟ - كلا؟ - حسن، لن أغيب أكثر من بضع دقائق».

سرعان ما عاد من الغرفة الملاصقة مرتدياً ملابسه.

قال بخفة: «الآن سنذهب إلى البلدة ونتناول وجبة». لم يسألني إن كان ذلك يناسبني. لقد قال: «سنذهب». وذهبنا. وبقدر ما أزعجني سلوكه، ترك لدي انطباعاً قوياً، بأنه صاحب الشخصية الأقوى بيننا. وفي الوقت نفسه، كشف عن مزاج طفولي، متقلب، من خلال حديثه وسلوكه وغالباً ما كان فاتناً وأسرني به تماماً.

منذ ذلك الوقت صرت أقابل ميوث كثيراً. كان يرسل لي على الدوام بطاقات لحضور الأوبرا، وأحياناً كان يدعوني لكي أعزف على الكمان، وإذا لم يكن كل شيء فيه يعجبني، فثمة أشياء صغيرة لم تكن تعجبه في شخصي. وترسخت الصداقة بيننا، وكان في ذلك الوقت هو صديقي الوحيد، وبدأت أخشى الوقت الذي سيختفي فيه من حياتي. فقد كان في الحقيقة قد قدَّم استقالته ولم يعد في الإمكان الضغط عليه ليبقى، على الرغم من عددٍ من الطلبات والإغراءات المقدمة. أحياناً كان يلمِّح إلى أنه قد يتوفر له دور في مسرح كبير في الخريف، لكن الأمر غير مؤكد. وفي تلك الأثناء حل الربيع.

ذات يوم توجهت إلى منزل ميوث لحضور آخر تجمع للرجال. فشربنا نخب اجتماعنا التالي ونخب المستقبل، وهذه المرة لم تكن هناك أية امرأة حاضرة. وفي الصباح الباكر رافقنا ميوث حتى بوابة الحديقة. ولوَّح لنا بيده مودعاً وعاد وهو يرتعش وسط ضباب الصباح إلى منزله شبه الخالي، يصحبه الكلب وهو يتقافز وينبح. وبدا لي أن قسماً من حياتي وتجربتي قد انتهى عندئذ. شعرت أني بت أعرف ميوث بما يكفي لأتأكد من أنه قريباً سينسانا جميعاً، ولم أدرك إلا الآن وبوضوح وبشكل لا يرقى إليه الشك، كم أحببت ذاك الرجل المزاجي، المتعجرف.

كان وقت رحيلي أيضاً قد أزف. فقمت بزياراتي الأخيرة إلى الأماكن والناس الذين سأظل أذكرهم بود. وزرت مرة أخرى الدرب العالي لأطل منه إلى أسفل المنحدر الذي لن أنساه دهري.

انطلقت متوجهاً إلى الوطن نحو مستقبل مجهول وكان واضحاً أنه غير مشوق. فلم يكن لدي أي منصب وظيفي ولا كان في استطاعتي أن أقدم حفلات موسيقية مستقلة. وفي الوطن أصابني الرعب إذ

وجدت أنه لا ينتظرني إلا بعض الطلاب الذين يطلبون بعض دروس في العزف على الكمان. وحتماً كان والداي أيضاً في انتظاري وبما أنهما كانا من الأثرياء فقد رأيا أني لست في حاجة إلى أي شيء، وكانا أيضاً من اللباقة واللطف بحيث لا يضغطان عليّ أو يسألان عن حالي. لكني أدركت منذ اللحظة الأولى أنني لن أحتمل البقاء هنا طويلاً.

ليس لدي الكثير لأقوله حول الأشهر العشر التي قضيتها في المنزل. فخلال تلك الفترة أعطيت دروساً لثلاثة من الطلاب، على الرغم من أن كل شيء لم يكن سيئاً جداً. هنا أيضاً ثمة أناس يعيشون، هنا أيضاً أمور تقع كل يوم، لكني لم أكن أشعر حيالها إلا بلا مبالاة مهذبة. ومن ناحية أخرى، عشت ساعات غريبة، مُسكرة مع الموسيقى، وذلك عندما بدا كامل أسلوب حياتي بليداً ونائياً، ولم يبق غير نهمي إلى الموسيقى. مما كان يسبب لي غالباً عذاباً لا يحتمل خلال إعطاء دروس العزف على الكمان وجعل مني بلا ريب أستاذاً سيئاً. لكن فيما بعد، بعد أن أنجزت التزاماتي، أو فلنقل تملصت من دروسي بمكر وبانتحال الأعذار، غصت في حالة شبه حلم رائعة أنشأت فيها صروحاً ضخمة راسخة، وأقمت قلاعاً رائعة في الهواء، ورفعت أقواساً تلقي ظلالاً طويلة، وابتكرت أنماطاً موسيقية خفيفة ومرهفة كفقاعات الصابون.

بينما كنت أعيش حالة من الذهول والاستغراق، أبعدت عني رفاقي القدامى وسبّبت القلق لوالديّ، وتفجّر النبع المحبوس داخلي منبجساً بقوة وغزارة يفوقان ما كان قد حدث في العام الذي سبق وأنا في الجبال. فجأة نضجت ثمار ما بدا أنها أعوام ضائعة كنت قد أمضيتها في العمل والحلم، وتساقطت برفق وهدوء، واحدة بعد أخرى. كانت حلوة المذاق عطرة الرائحة، اكتنفتني بما يشبه الوفرة الغامرة،

فالتقطتها بتردد وارتياب. بدأ الأمر بأغنية، وتبعتها فانتيزيا الكمان، ثم رباعية وتريّة، وعندما ألّفت بعد ذلك ببضعة أشهر عدداً آخر من الأغاني وخرجت بعدة أفكار سيمفونية، شعرت أن كل هذا ما هو إلا بداية ومحاولة. أما في داخلي فكنت أحمل رؤى لسيمفونية عظيمة، بل إني في اشد لحظاتي جموحاً فكرت في تأليف أوبرا. وفي تلك الأثناء، كنت أبعث بين حين وآخر برسائل مهذبة إلى قادة أوركسترا أو دور مسرح، مع نسخ من تقديراتي الدراسية من أساتذة طالباً منهم بتواضع أن يتذكروني حين يشغر منصب عازف كمان. فتصلني إجابات مقتضبة، مهذبة تبدأ كما يلي: « سيدي العزيز»؛ - وأحياناً لم يكن يصلني أي جواب، ولم يكن بينها أي وعد بأي منصب. ثم شعرت خلال فترة وجيزة بالتفاهة وتقوقعت داخل ذاتي، وأعطيت دروساً بضمير حي وكتبت مزيداً من الرسائل المهذبة. وعندما أكون وحدي أشعر لتوي من جديد أن راسي ما زال مملوءً بموسيقى أريد أن أدونها. وحالما أبدأ من جديد تتلاشى الرسائل، والمسارح والفرق الموسيقية، وقادة الفرق الموسيقية، و« سيدي العزيز» من أفكاري وأجدني في حالة من الانهماك والتركيز التّامّين.

غير أن هذه الذكريات لا يمكن وصفها بدقة، كأغلب الذكريات. فحقيقة الإنسان وما يعيشه وكيفية تطوره ونضجه، ثم وهنه فموته، أمور تعصى على الوصف. إن حيوات الأناس العاديين الكادين مملة، أما أنشطة المتبطلين وأقدارهم فمشوقة. ومهما كان غنى تلك الفترة، إلا أنني لا استطيع أن أقول عنها أي شيء، فقد بقيت بعيداً عن الحياة الاجتماعية العادية. مرة واحدة فقط، خلال فترة قصيرة، اقتربت من جديد من شخص لن أنساه أبداً، إنه أستاذ يدعى لوهه.

ذات يوم، في أواخر الخريف، خرجت لأتمشى. فتراءت على الجانب الجنوبي من البلدة منطقة من الفيلات الريفية المتواضعة. في تلك البيوت الصغيرة الرخيصة ذات الحدائق الأنيقة لم يكن يقطن أناس أثرياء، وإنما عائلات محترمة من الطبقة المتوسطة وأناس يعيشون على مداخيل صغيرة. وكان أحد أساطين البناء الشبان الحاذقين قد أقام عدداً من المنازل الجميلة هنا كنت تواقاً إلى مشاهدتها.

كان الجو دافئاً بعد الظهر. وكنت ترى ثمار الجوز قد سقطت هنا وهناك عن الأشجار في وقت متأخر، وكانت أشعة الشمس تحدد بوضوح حدود المنازل الجديدة الصغيرة، البسيطة التصميم التي وجدت هوى عندي، وحدائقها. رحت أتفرج عليها بالاهتمام السطحي الذي ينظر به الشبان إلى هذه الأشياء، وذلك عندما تكون الأفكار التي تدور حول المنزل، والوطن والعائلة، وأيام الراحة والعطل ما تزال بعيدة. وقد تركتْ الشوارع التي تشملها السكينة بما يحف بها من حدائق انطباعاً ممتعاً جداً لديَّ. وأخذت أتمشى الهوينا، وكنت أثناء سيري أقرأ اسم القاطن في المنزل المدوَّن على رقعة نحاسية براقة صغيرة موضوعة على بوابة الحديقة.

كان اسم "كونراد لوهه" مكتوباً على رقعة نحاسية صغيرة، ولدى قراءته خيّل إليّ أنه مألوف لدي. فوقفت لا أبدي حراكاً وأنا أفكر، ثم تذكرت أن الاسم يعود إلى أحد أساتذة المرحلة المتوسطة. وتمثل الماضي أمامي بضع هنيهات، ليواجهني وأنا مندهش بحشد من الوجوه، والأساتذة، والأصدقاء وتراقصت أمامي ذكريات ألقابٍ وقصص بتموجاتٍ عابرةٍ. وبينما أنا واقف هكذا أنظر إلى الرقعة النحاسيّة، برز رجل من خلف شجيرة كشمش قريبة حيث كان منحنياً يعمل. وتقدم وهو ينظر إليّ.

سألني، وكان هولوهه، الأستاذ الذي كنا نلقبه بلوهنغرين « هل طلبتني ؟ ».

قلت وقد رفعت قبعتي: « ليس بالضبط. لم أكن أعلم أنك تقطن هنا. لقد كنت أحد طلابك ».

أمعن أكثر النظر في وجهي، ولاحظ وجود عصاي، وتفكَّر برهة ثم نطق اسمي. لم يتذكر وجهي، لكنه تذكر ساقي المتيبسة، فقد كان قد سمع طبعاً عن الحادثة التي وقعت لي. ثم طلب مني أن أدخل.

كان كُمّا قميصه مرفوعين إلى أعلى ساعديه وقد ارتدى مئزر بستنةٍ أخضر. لم يظهر عليه أنه قد تقدم في السن وبدا على أحسن ما يرام. وقطعنا أرض الحديقة الصغيرة، الأنيقة، ثم قادني إلى شرفة مكشوفة، وهناك جلسنا.

قال بصراحة: « ما كنت لأتعرف عليك أبداً. أرجو أن يكون ما تذكره عني طيباً ».

قلت وأنا أضحك: « ليس كلها. لقد عاقبتني ذات مرة على عمل لم أقترفه وقلت إن احتجاجاتي بأني بريء إن هي إلا أكاذيب. حدث ذلك في الصف الرابع ».

رفع بصره إليّ وقد ارتسم على وجهه تعبير مضطرب: « يجب أن لا تتحامل عليّ. أنا شديد الأسف. إذ دائماً يحدث مع الأساتذة أن يرتكبوا، وبأطيب النوايا قاطبة، عملاً جائراً بطريق الخطأ. أنا أعرف حالات أسوأ من هذه. وهذا أحد الأسباب التي دفعتني إلى الاستقالة ».

« أوه، ألم تعد تمارس التدريس؟ ».

« لقد تركته منذ فترة طويلة. فقد داهمني المرض، وعندما برأت كانت آرائي قد تغيرت كثيراً حتى أني استقلت. لقد حاولت أن أكون أستاذاً صالحاً، لكني لم أكن كذلك، يجب أن تكون مخلوقاً للمهنة. لذا تخليت عنها ومنذ ذلك الحين وأنا بأحسن حال ».

كنت قد لاحظت ذلك. وطرحت المزيد من الأسئلة. لكنه رغب في أن يسمع قصتي، فحكيتها له. ولم يكن مسروراً كثيراً لأني أصبحت موسيقياً. وقد أبدى، من ناحية أخرى، تعاطفاً استثنائياً. لم يسبب لي أية حساسية بالغة حيال سوء حظي. وحاول بحذر أن يعرف كيف نجحت في العثور على العزاء، ولم ترضه أجوبتي شبه المراوغة. وأعلن بتردد ولكن بلا تحفظ، وهو يقوم بإيماءات غامضة بيديه، وبكثير من الإسهاب المعوّق، أنه يعرف بوجود وسيلة للسلوى، وحكمة كاملة متوفرة لكل باحث جاد.

قلت: « أعرفها، تقصد الكتاب المقدس ».

رسم السيد لوهه ابتسامة غامضة: « الكتاب المقدس جيد، إنه السبيل إلى المعرفة، لكنه لا يمثل المعرفة ذاتها ».

« حسن، وأين توجد المعرفة ذاتها؟ ».

« سوف تعثر عليها بسهولة إذا أردت. سوف أعطيك شيئاً لتقرأه وسيزودك بمبادئها. هل سمعت بدراسة الكارما؟ ».

« كارما؟ كلا، ما هي؟ ».

« سوف تعرف. انتظر لحظة! ». وذهب وغاب فترة وجيزة بينما مكثت أنا في مكاني تتولاني الدهشة، لا أدري ماذا أتوقع، ورحت أرسل بصري إلى الحديقة حيث تقوم اشجار مثمرة شديدة الصغر في صفوف منتظمة. وبعد وقت قصير عاد لوهه. نظر إليَّ ووجهه يشع وناولني كتاباً صغيراً، يحمل في وسط نقشه الرمزي الغامض عنوان "التعاليم الثيوصوفية* للمبتدئين".

---

* الثيوصوفية: هي مذهب يقول بمعرفة الله عن طريق الكشف الصوفي أو التأمل الفلسفي أو كليهما.

قال: «خذ هذا معك! يمكنك أن تحتفظ به وإذا أردت أن تتعمق في الدراسة، في إمكاني أن أعيرك مزيداً من الكتب. إن هذا مجرد مقدمة. وأنا أدين بكل شيء إلى هذه التعاليم. لقد حققتُ صحة جسدية وروحية من خلالها وآمل في أن يكون لها الأثر نفسه عليك».

أخذت الكتيب ووضعته في جيبي. رافقني الرجل خلال أرض الحديقة وحتى الطريق، ثم استأذن مني بود وطلب مني أن أعاود زيارته في وقت قريب. فنظرت إلى وجهه الذي كان يفيض طيبة وسعادة، ورأيت أنه لا ضير في محاولة السير في الطريق المفضية إلى مثل هذه السعادة. فعدت إلى المنزل حاملاً هذا الكتيّب في جيبي، تواقاً لمعرفة الخطوات الأولى على هذا الدرب الموصل إلى نعيم السعادة.

غير أني لم أباشر قراءته إلا بعد مرور بضعة أيام. ولدى عودتي إلى المنزل كان نداء الموسيقى من جديد هو الأقوى. وارتميت عليها وعشت في عالم من الموسيقى. ورحت أؤلف وأعزف إلى أن خمدت العاصفة الهائجة في أعماقي من جديد واستطعت أن أعود بسلام إلى الحياة اليومية. ثم شعرت للتو بالحاجة إلى دراسة التعاليم الجديدة وجلست والكتيب أمامي معتقداً أني سأستوعبه في وقت قصير.

لكني لم أجده بالغ السهولة. وقد أخذ الكتيب يتعاظم في حجمه وهو بين يديّ وأخيراً أضحى عويصاً تماماً. فقد بدأ بمقدمة مشوقة تدور حول الدروب الكثيرة المؤدية إلى الحكمة التي في مقدور كل إنسان أن يبلغها، والأخوية الثيوصوفية التي تدعم بموقف مستقل المعرفة والكمال الداخلي، والتي تحترم كل معتقد وترحب بكل طريق يؤدي إلى النور. ثم تبع ذلك بحث في علم الكونيات لم أفهم منه شيئاً، وتقسيم العالم إلى "مستويات" مختلفة، وتقسيم التاريخ إلى عصور استثنائية أجهلها، تتضمن أيضاً دولة الأتلانتس الضائعة. وتركت كل هذا مؤقتاً

والتفتُّ إلى الفصول الأخرى التي تستعرض مذهب التناسخ، وهذا فهمته بشكل أفضل. ومع ذلك لم يكن واضحاً تماماً في ذهني ما إذا كان كل ذلك أساطير وخرافات شعرية، أم يجب قبوله بحرفيته. وبدا لي أن الافتراض الثاني هو المقصود، ولم أقبله. ثم جاءت تعاليم كارما. فرأيت أنها تفسير ديني لقانون العَرَضيَّة، ووجدته مقبولاً. إلى آخره. وسرعان ما أدركت أن هذه التعاليم تشكل عزاءً وقيمة بالنسبة إلى الذين يقبلونها بحرفيتها، ويؤمنون بصدق بأنها حقيقية. أما إذا وجدها القارئ، كما وجدتها أنا، تتراوح ما بين الأدب الجميل، والرموز المعقدة، ومحاولة في التفسير الأسطوري للعالم، فيمكن أن يسترشد بها ويكنَّ لها الاحترام، ولكنه لا يستطيع أن يتعلم منها كيف يعيش وكيف يستمد القوة. ربما يغدو المرء بواسطتها ثيوصوفياً قيماً ومتديناً، لكن العزاء الأخير يغري فقط أولئك الذين يقبلون المعتقدات البسيطة بلا كثير تساؤلات. وكل هذا، في ذلك الوقت، لم يكن يلزمني.

مع ذلك، واظبت على زيارة الأستاذ مرات عديدة. وقبل اثني عشر عاماً كان كل منا يزعج الآخر باللغة اليونانية، والآن، وبطريقة مختلفة تماماً، ولا تقلّ عنها فشلاً، حاول أن يتصرف كأستاذي ومرشدي. ولم نصبح قط صديقين حميمين، لكني كنت أحب أن أتردد عليه، وخلال فترة معينة كان هو الشخص الوحيد الذي ناقشت معه أوجهاً هامة من حياتي. وقد أدركت أن كل تلك الأحاديث لم تكن لها أية قيمة وأنها في أحسن الأحوال لا تفضي إلا إلى عبارات حاذقة. إلا أني وجدته يشيع السكينة في النفس ويستحق الاحترام، هذا الرجل الورع الذي كان قد شجب بهدوء الكنيسة والمعرفة والذي اختبر في الردح الأخير من حياته سكينة الدين وعظمته من خلال إيمان ساذج بتعاليم استثنائية، مستنبطة برهافة.

على الرغم من كل محاولاتي، ظلت هذه الدرب مغلقة دائماً في وجهي. ولكن كان لدي ميل جارف، غير متبادل، نحو المتدينين من الناس المحصنين الذين فازوا بالسكينة باعتناقهم إحدى العقائد.

4

خلال الفترة القصيرة التي كنت أقوم أثناءها بزياراتي إلى الثيوصوفي الورع وزارع الأشجار المثمرة، تلقيت ذات يوم شيكاً صغيراً، لسبب كنت أجهله. كان قد أرسله متعهد حفلات موسيقيه مشهور من شمال ألمانيا لكن لم يتم بيننا قط أي تعامل. وبعد التقصّي وصلني جواب مفاده أن هذا المبلغ مرسل بطلب من السيد هاينريش ميوث. فقد أدى أغنية من تأليفي في ست حفلات موسيقية، وأن هذا المبلغ يمثل أجري.

عندئذ كتبت رسالة إلى ميوث أشكره فيها وأطلب منه تزويدي بالأخبار. وقد أردت أن أعرف، على وجه الخصوص كيف تم استقبال أغنيتي في الحفلات الموسيقية. وكنت قد علمت بأمر الحفلات التي شارك ميوث فيها وقرأت تعليقات عنها مرة أو مرتين في الصحف. وطبعاً، لم أتوقع أن أرى أي إشارة إلى أغانيٌ الجديدة. ثم انتظرت جواباً. ولما مرت أربعة أسابيع ولم أتلق أي جواب، نسيت الأمر برمته مرة أخرى. ورحت أؤلف موسيقى في كل يوم تقريباً، وكانت

تتلبسني وكأني في حلم. إلا أني كنت أشعر على فترات بالتراخي وبالسخط. ورفضت بشكل قاطع فكرة إعطاء الدروس وشعرت أنه لا يمكنني أن أتحمل ذلك بعد الآن.

لذلك، عندما استلمت أخيراً رسالة من ميوث شعرت أن لعنة قد رُفعت عني. وكان يقول فيها:

عزيزي السيد كون،

إنني غير معتاد على كتابة الرسائل. ولم أجب على رسالتك لأني لم أعرف بالضبط ماذا أقول. أما الآن فبات في إمكاني أن أقدم عروضاً ملموسة. إنني الآن مرتبط مع دار الأوبرا في ر. ويسرني أن تنضم أنت أيضاً إليّ هنا. فأولاً في إمكانك أن تحصل هنا على منصب عازف كمان ثان. وقائد الأوركسترا إنسان ذكي، وصريح، وإن كان متسرعاً قليلاً. وربما أتيحت لك أيضاً وقريباً أن تعزف بعضاً من موسيقاك الخاصة. لدينا هنا عروض جيدة لموسيقى الحجرة. وعندي أيضاً ما أقوله لك بشأن أغانيك، أهم شيء هو أن ثمة ناشراً يريد أن يحصل عليها. لكن الكتابة مملة. ومن المستحسن أن تأتي. أسرع بالحضور وأرسل برقية بخصوص المنصب.

المخلص

ميوث

وهكذا خرجت فجأة من حياتي العقيمة، المتنسكة. ومرة أخرى انجرفت في تيار الحياة، وأصبحتْ لي آمال وهموم، وأحزان وأفراح. ولم يكن هناك ما يتعبني، وفرح والداي لأنهما وجداني أتخذ أول خطوة واضحة قاطبة في مسيرة حياتي. وأرسلت برقية على جناح السرعة، وبعدها بثلاثة أيام وصلت إلى ر. واجتمعت بميوث.

في أحد الفنادق حصلت على كل وسائل الراحة. ثم انطلقت لأقوم بزيارة ميوث لكني لم أعثر عليه. ثم جاءني في الفندق ووجدته واقفاً أمامي بدون سابق إنذار، مد يده إليّ، ولم يطرح عليّ أي أسئلة، ولم يخبرني بأي شيء، ولم يشاركني فرحتي بأقل قدر. فقد كان معتاداً على أن ينساق مع مجرى الأحداث، مكتفياً باكتساب التجارب والتعامل بجدية مع اللحظة الحاضرة. ولم يتح لي الفرصة لتبديل ملابسي ثم صحبني لنزور روسلر، قائد الأوركسترا.

قال: « هذا هو السيد كون ».

أومأ روسلر برأسه محيياً: « كيف حالك! بماذا استطيع أن أخدمك؟ »، هتف ميوث: « إنه عازف الكمان ».

نظر قائد الأوركسترا إليّ مندهشاً، ثم التفت إلى المغني من جديد وقال بفظاظة: « لم تقل لي أن السيد أعرج. يجب أن يكون لدينا أناس بأطراف سليمة ».

صعد الدم إلى وجهي لكن ميوث ظل هادئاً. واكتفى بالضحك: « هل تريد منه أن يرقص، يا روسلر؟ حسبت أن من المنتظر منه أن يعزف على الكمان. فإذا لم يكن هذا، فعلينا أن نسرِّحه. ولكن دعنا نستمع إليه أولاً ».

« حسن أيها السيدان. يا سيد كون، تعال وقابلني غداً صباحاً في نحو الساعة التاسعة، هنا في منزلي. هل أزعجك ما قلته عن قدمك؟ كان يجب على ميوث أن يخبرني عن الأمر على أية حال، سوف نرى، إلى الغد! ».

عندما ابتعدنا، أنَّبتُ ميوث على ما حدث. فهز كتفيه استخفافاً وقال إنه لو كان قد أتى على ذكر عاهتي منذ البداية، لبات من الصعب الحصول على موافقة قائد الأوركسترا. وها أنا قد وصلت

إلى هنا وإذا ما حزتُ على رضا روسلر، فسرعان ما سأتعرفُ إلى الجانب الأفضل من طبعه.

سألته: «ولكن كيف أوصيت بي في كل الأحوال؟ إنك لا تعرف إن كنت على أي مستوى من الجودة».

«هذا شأنك. أنا رأيت أنك ستحسن البلاء ـ بل هذا ما سيحدث. أنت إنسان متواضع بحيث إذا لم تتلق دفعة من أحدهم أحياناً، فلن تحقق أي شيء. وتلك كانت دفعة ـ وعليك الآن أن تتقدم! لا داعي للخوف. إن سلفك لم يكن جيداً كثيراً».

أمضينا الأمسية في مقره. هنا أيضاً كان قد استأجر مقراً يقع في منطقة نائية تحيط به حديقة كبيرة ويشمله السكون. وقفز كلبه الضخم عليّ محيّياً. وبالكاد كنا قد جلسنا وتدفأنا حين رن جرس الباب. ودخلت امرأة ممشوقة، فائقة الجمال، انضمت إلينا. وساد الجو السابق نفسه، ومن جديد كانت صديقته إنسانة رائعة، وملكية. وبدا أنه يعامل هذه المرأة الجميلة باستخفاف شديد. ونظرت إلى هذه الحبيبة الأخيرة بعين العطف، وبارتباك كان دائماً ينتابني في حضور نساء جذابات. والحق أن الشعور بالحسد لم يكن يفارقني فبوجود ساقي العرجاء لم أكن محبوباً ولا كان لي أمل في الحب.

كما في الماضي، استمتعنا معاً وأفرطنا في الشراب في منزل ميوث. وغمرنا بمرحه الضافي، ولكن شبه القسري داخلياً، إلا أنه مع ذلك فتننا. وغنى لنا غناءً ساحراً وغنى أيضاً إحدى أغانيَّ. وساد بيننا جو من الألفة الحميمية، مع إحساس بالدفء، مما قرَّب بيننا. كنا تلقائيين مع بعضنا وبقينا متقاربين مع بقاء الدفء ساري بيننا. وأبدت السيدة الممشوقة القوام، التي اسمها لوتي، الود والرقة لي. ولم

تكن تلك المرة الأولى التي تعاملني فيها امرأة جميلة وحنون بهذه الطريقة العطوف والحسنة الظن إلى أقصى حد. وهذه المرة أيضاً تأذيت، لكني الآن صرت أميز هذا الشكل المتكرر من السلوك ولم أتلقاه بحساسية مفرطة. بل إني كنت أحياناً أتعرف إلى نساء أبدينَ وداً خاصاً نحوي. وكلهن اعتبرنني عاجزاً عن الغيرة كما عن الحب. هنا كان يتبدّى العطف الممجوج وكنَّ يثقن بي بطريقة شبه أمومية.

لسوء الحظ لم أكن بعد قد اكتسبت أي خبرة في مثل تلك العلاقات وكنت في كل مرة أراقب نعيم الحب عن قرب أفكر في نفسي قليلاً وأشعر أنني أنا أيضاً أحب أن أنغمس في شيء مشابه. وقد أفسد هذا استمتاعي إلى حد ما، ولكن الأمسية في الإجمال كانت ممتعة بصحبة هذه السيدة الجميلة واللطيفة، والرجل الحيوي، والجاف، الذي أحبني وأبدى اهتمامه بي ومع ذلك لم يكن قادراً على إظهار عاطفته إلا بالطريقة التي يتبعها مع النساء، أي بالأسلوب العنيف والمزاجي.

عندما تقارعنا بالكؤوس لنشرب آخر نخب قبل أن نفترق، أومأ إليَّ وقال: « لا أستطيع أن أمنع نفسي من شرب نخب صداقتنا الطيبة، ما رأيكما؟ بل إنني حتماً أرغب في ذلك. ولكن لا عليكما، لابأس في كل الأحوال. لكن في وقت من الأوقات، كنت كلما قابلت شخصاً أحبه أجدني دائماً أخاطبه على الفور بأسلوب حميم، لكن هذا ليس تصرفاً سليماً، على الأقل بين الزملاء. وقد تشاجرت معهم جميعاً أيضاً ».

هذه المرة لم أحظ بالمتعة الحلوة - المرة لمصاحبة عشيقة صديقي إلى منزلها. فقد ظلت هناك وكان ذلك أفضل. وقد أفادتني الرحلة، وزيارتي لقائد الأوركسترا، والترقب الذي أحاط بصباح اليوم التالي

وتجديد مصادقتي لميوث. والآن فقط بت أدرك أني صرت منذ
ومضطرباً ونائياً بنفسي عن الناس، وذلك خلال فترة عام الانتـ
الطويلة، والموحشة، ويحس بالاستمتاع والترقب الصحي، واستـ
نشاطي وفعاليتي بين الناس، وانتمائي إلى العالم.

في صباح اليوم التالي توجهت إلى روسلر في وقت مبكر، فو
ما زال في مبذله وشعره أشعث، لكنه رحب بي، مبدياً وداً يفو
كان قد أبداه في اليوم السابق، ودعاني إلى العزف على الكمان
وضع أمامي نوتة موسيقية مكتوبة بخط اليد وجلس هو إلى البـ
عزفت وبذلت في ذلك أقصى جهدي. غير أن قراءة النوتة الموسـ
المكتوبة بخط يد رديء سبَّب لي بعض الإزعاج. وعندما انتهينـ
العزف، وضع أمامي في صمت ورقة أخرى لكي أعزفها وحدي و
آلة مصاحبة، ومن ثم ورقة أخرى.

قال: « هذا حسن. يجب أن تعتاد أكثر على قراءة النوتة،
ليست دائماً مطبوعة. تعال إلى المسرح هذه الليلة. سوف أخصص
مكاناً؛ عندئذ تستطيع أن تشترك مع الآخرين في العزف، وسـ
يسدُّون الثغرات عند اللزوم. سوف يكون الأمر صعباً قليلاً في البد
إدرس النوتة الموسيقية جيداً قبل ذلك. لن تكون هناك بروفة الـ
سوف أعطيك نوتة خذها معك إلى المسرح في الساعة الحادية ع
واحضر الموسيقى ».

لم أكن متأكداً تماماً من وضعي، لكني أدركت أن هذا الرجـ
يحب طرح الأسئلة، وانطلقت. وفي المسرح لم يبد أحد رغبته في مـ
أي شيء عن الموسيقى أو في أن ينصت إليَّ. لم أكن متعوداً على
العمل هناك وارتبكت. وبعثت برسول خاص إلى ميوث. فحضر
وسار كل شيء على ما يرام. وفي المساء عزفت للمرة الأولى في الما

وكان قائد الأوركسترا يراقبني عن كثب. وفي اليوم التالي حصلت على التعيين.

غريب جداً أمر الكائن البشري، ففي وسط حياتي الجديدة وآمالي المتحققة كنت أعي أحياناً وجود اشتياق واهٍ، عابر، لا واعٍ إلى العزلة، بل إلى ايام الملل والخواء. ثم بدا لي أن الوقت الذي أمضيته في المنزل، والحياة الكئيبة والقاحلة التي أسعدني كثيراً أن أنجو منها، كانا مقيتين. وتذكرت، على وجه الخصوص، وباشتياق حقيقي الأسابيع التي أمضيتها في الجبال قبل عامين. وشعرت أن الثراء والسعادة ليسا مقدرين لي، بل الضعف والغم، وأنه بدون هذه الأشباح والتضحيات، يظل نبع الإبداع داخلي أشد ضعفاً وتشوشاً. في أول الأمر لم يكن يتوفر لي أي أوقات هادئة أو للعمل الخلاق، وعلى الرغم من أني كنت أحيا حياة غنية، كنت أسمع على الدوام النبع الحبيس في داخلي يهمس بخفوت شاكياً.

استمتعت بعزف الكمان مع الفرقة الموسيقية. وتعمقت كثيراً في قراءة مقطوعات موسيقية كاملة ورحت أتحسس طريقي في اشتياق في هذا الحقل. وببطء تعلمت ما كنت قد اطلعت عليه نظرياً وقليلاً، بمعنى أن أفهم طبيعة كل آلة موسيقية بمفردها ونوعها وأهميتها، من الأسفل إلى الأعلى. وفي الوقت نفسه، درست موسيقى الباليه وتطلعت بجدية كبرى إلى الوقت الذي سأغامر بدوري بتأليف أوبرا.

لقد سهَّلتْ لي صلتي الوثيقة بميوث، الذي كان يحتل أفضل المناصب في دار الأوبرا، تقدّمي وأفادني كثيراً. غير أني أسفت شديد الأسف لأني لم أكوِّن أصدقاء حميمين من بين زملائي في الفرقة الموسيقية، وكنت أحب ذلك. وحده أحد عازفي الكمان الأول، وكان

ستارياً* يدعى تايزر، أبدى اهتمامه بي وأصبح صديقاً لي. كان يكبرني بعشر سنين، صادقاً صريحاً، له وجه رقيق، دقيق التقاطيع يحمرّ بسهولة. كان موسيقياً على قدر خارق من الكفاءة، ويتمتع بأذن ذات مقدرة حادة وحساسة خاصة على السمع. لقد كان أحد الذين يستمتعون في فنهم بدون أن يبدوا رغبة في أن يلعبوا أي دور بارز. لم يكن عازفاً بارعاً ولم يؤلف أي مقطوعة موسيقية. وكان راضياً بالعزف على الكمان ويستمد متعته العظمى من معرفته الشاملة التقنية. فكان على معرفة بكل افتتاحية موسيقية بتفاصيلها، ويعرف بقدر معرفة أي قائد أوركسترا أين تكون الرهافة والعزف اللامع ضروريان وأين يضفي تضمين آلة ما جمالاً وأثراً أصيلاً. لقد كان هذا يبث فيه الحماس وكان يستمتع أكثر من أي إنسان آخر في المسرح بكل ما فيه. كان في إمكانه أن يعزف تقريباً على كل الآلات الموسيقية بحيث كان في وسعي أن أطرح عليه أسئلة وأتعلم منه في كل يوم.

طوال أشهر عديدة لم نناقش خلالها إلا التقنية، لكني أحببته وقد وجد أني تواق إلى التعلم. ونشأ بيننا تفاهم غير معلن لا يختلف كثيراً عن الصداقة. ثم أخبرته أخيراً عن سوناتة الكمان خاصتي وطلبت منه أن يشاركني في عزفها في وقت لاحق. فوافق بكل لطف وجاء إلى منزلي في الوقت المحدد. ورغبة مني في إسعاده، أحضرت بعض النبيذ من صنع مسقط راسه. وشربنا كأساً من النبيذ، ثم وضعت نوتة الموسيقى وبدأنا بالعزف. كان يقرأ النوتة بشكل جيد جداً، غير أنه توقف فجأة وأخفض قوسه.

---

* ستاري: نسبة إلى ستاريا، وهي منطقة جبلية في جنوب شرق النمسا.

قال: « أقول لك الحق يا كون، هذه بحق موسيقى جميلة. بيد أني لا أريد أن أعزفها. أريد أن آخذها معي إلى المنزل لأتدرب عليها أولاً. أتسمح؟ ».

قلت: « نعم». وعندما عاد مرة أخرى عزفنا السوناتة كلها مرتين. ولدى انتهائنا، ربت على كتفي وهتف: « يا لك من مخلوق متواضع! تتظاهر بأنك بريء ثم تنجز سراً مثل هذه الأشياء! لن أكثر من الكلام . أنا لست بروفسوراً، لكنها جميلة! ».

كانت تلك المرة الأولى التي يطري فيها شخص أثق به حقاً عملي. وعرضت عليه كامل أعمالي، بما فيها الأغاني التي كانت قد طُبعت لتوها واقترب موعد صدورها. لكني لم أجرؤ على أن أبوح له بأني من الجراءة بحيث أفكر في تأليف أوبرا.

خلال تلك الأيام الطيبة صُدمتُ بحادثة صغيرة لن أنساها دهري. ففي منزل ميوث، حيث كنت أتردد كزائر، لم أكن قد قابلت المرأة الجميلة المسماة لوتي منذ بعض الوقت، لكني لم أدع الأمر يشغلني لأني لم أرد أن أتورط في أي علاقات عاطفية. وفضّلتُ أن لا أتعرف إليها. لذا لم اسال عنها. ثم أنه لم يحدثني عن مثل هذه الأمور قط.

ذات مساء جلست في غرفتي أدرس عملاً موسيقياً. وكانت قطتي السوداء نائمة تحت الشمس الساطعة بالقرب من النافذة. وكان الهدوء يرين على المنزل بأكمله. ثم سمعت أحدهم يدخل من الباب الأمامي فاستوقَفَتْه صاحبة النزل واستجوبته، ثم تركها واقترب ودق على بابي. فذهبت لأفتحه وإذ بامرأة ممشوقة القامة، أنيقة، تغطي وجهها بخمار، تدخل وتغلق الباب وراءها. ثم خطت بضع خطوات داخل الغرفة، وأخذتْ نفساً عميقاً ثم رفعت خمارها. كانت لوتي. بدت متوترة، وفي الحال خمَّنتُ سبب قدومها. وجلست تلبية لدعوتي،

ثم أمسكت بيدي دون أن تقول أي شيء. وأبدت ارتياحاً أكبر عندما لاحظتْ ارتباكي. وكأنها كانت تخشى أن أطردها للتو.

أخيراً سألتها: « هل الأمر يتعلق بهاينريش ميوث؟ ».

أومأت إيجاباً ثم قالت: « هل أنت على علم بشيء؟ ».

« كلا، أنا لا أعرف أي شيء. إنها مجرد فكرة خطرت لي ».

نظرتْ ملياً إلى وجهي كمريض ينظر إلى وجه طبيب، وكانت صامتة ومن ثم نزعت قفازها ببطء. وفجأة نهضت واقفة، ثم وضعت كلتا يديها على كتفيّ وحدقت إليّ بعينيها الكبيرتين.

« ماذا عليّ أن أفعل؟ إنه لا يمكث في البيت، ولا يكاتبني، ولا يفتح رسائلي أبداً! منذ ثلاثة أسابيع وأنا غير قادرة على التحدث إليه. ذهبت إليه بالأمس. أعرف أنه كان موجوداً في الداخل لكنه رفض أن يفتح الباب. ولم يصفر حتى ولو مرة واحدة لكلبه الذي مزق ثوبي. إنه يريد أن يقطع علاقته بي ».

سألتها، حتى لا أبقى ملازماً الصمت: « هل تشاجرتما؟ ».

ضحكت: « شجار؟ أوه، لقد تشاجرنا بما فيه الكفاية ومنذ البداية! لقد تعوَّدت على ذلك. كلا، لقد كان مهذباً معي مؤخراً، مما أثار ريبتي على الفور. وفي إحدى المناسبات قال إنه قادم لزيارتي، ولم يظهر له أثر. وأخيراً، أخذ يخاطبني بلهجة رسمية حتى تمنيت لو أنه يعود إلى ضربي ».

ذهلت: « يضربك! ».

ضحكت من جديد: « ألم تكن تعلم. أوه، لقد ضربني كثيراً، لكنه لم يفعل منذ وقت طويل. لقد أصبح مهذباً، إنه يخاطبني بنبرة رسمية ويريد أن يقطع علاقته بي. أعتقد أنه يعرف امرأة أخرى. لهذا تراني

جئت إلى هنا. فقل لي، أرجوك! هل لديه امرأة أخرى؟ أنت تعرف، لا بد أنك تعرف! ».

تناولت كلتا يدي، قبل أن أتمكن من منعها من ذلك. وقد ذهلت مما قالته لي، ولكن لأني لم أرغب في الخوض في نقاش وأردت أن أنهي المشهد، فقد اسعدني تقريباً أنها لم تتح لي فرصة الكلام، لأني ما كنت لأعرف ماذا أقول.

أسعدها، وهي تتذبذب ما بين الأمل والحزن، إنصاتي إليها وطرحت أسئلة عليّ، وأخبرتني أشياء وانفجرت في نوبات من البكاء. وكنت طوال الوقت أملي ناظري في وجهها الجميل، المخضل بالدموع وكل ما استطعت أن أفكر فيه هو "لقد ضربها!"، وتراءت لي يده القابضة، فسرت فيّ الرعشة لدى تفكيري فيه، وفيها، أيضاً. وقد بدا أنها، بعد أن ضُربت، وعُنّفت ورُدَّت خائبة، لم تكن تفكر وترغب إلا في أن تعود إليه وإلى إذلاله المعتاد لها.

أخيراً استقر الفيضان. وأخذت لوتي تتكلم ببطء أكثر. وبدا عليها الإحراج والخجل من الموقف، وخيم عليها الصمت، وفي الوقت نفسه حررت يديّ.

قلت برفق: « لا توجد امرأة أخرى، على الأقل حسب علمي ».

ألقت عليّ نظرة امتنان.

أردفتُ قائلاً: « ولكن لا استطيع أن أساعدك. إنني لم أتحدث معه قط في هذه المسائل ».

لزم كلانا الصمت. وفكرت في ماريان رغماً عني، ماريان الجميلة، وفي الليلة التي سرنا خلالها متشابكي الذراعين وهي الليلة نفسها التي هبت فيها الريح الجنوبية، وكيف دافعت بكل إخلاص عن حبها. هل ضربها هي أيضاً؟ وهل ما زالت تسعى وراءه؟.

سألتها: « لماذا لجأتِ إليّ؟ ».

« لا أدري. كان يجب أن أفعل شيئاً. هل تعرف إن كان ما يزال يفكر فيّ؟ أنت رجل طيب. سوف تساعدني، أليس كذلك؟ يمكنك أن تساله في وقت من الأوقات، حدثه عني.. ».

« لا، لا يمكنني أن أفعل ذلك. إن كان ما يزال يحبك سوف يأتي إليك بنفسه. وإن لا، فعندئذ... ».

« عندئذ ماذا ؟ ».

« عندئذ دعيه وشأنه. إنه لا يستحق منك أن تتّضعي إلى هذا الحد ».

هنا ابتسمت.

« آه، ماذا تعرف أنت عن الحب! ».

إنها محقة، قلت في نفسي، ومع ذلك آذتني. فإن كنت لا أعرف الحب، إن كنت بقيت خارجه، فكيف لأي إنسان أن يثق بي أو أن أكون ذا عون؟ وشعرت بالرثاء لتلك المرأة لكني احتقرتها أكثر. فإن كان ذاك حباً، بكل ما فيه من قسوة وإذلال، فمن الأفضل العيش بلا حب.

قلت ببرود: « لا أريد أن أخوض في هذا. إنني لا أفهم هذا النوع من الحب ».

ثبتت لوتي خمارها من جديد.

« حسن، أنا ذاهبة ».

مرة أخرى رثيت لأجلها، لكني رفضت أن يتكرر هذا المشهد السخيف لذا لم أقل أي شيء. مشت نحو الباب ففتحته لها. رافقتها ومررنا بصاحبة المنزل الفضولية حتى بلغنا الدرج، ثم انحنيت لها ورحلتْ بدون أن تضيف أي كلمة أخرى وبدون أن تنظر إليّ.

تابعتها بنظري شاعراً بالحزن وظلت عالقة في ذاكرتي بعد ذلك فترة طويلة. أحقاً كنت مختلفاً عن كل أولئك البشر، عن ماريان، ولوتي، وميوث؟ أكان ذاك حباً حقيقياً؟ وتراءى لي كل أولئك الناس المشبوبي العاطفة يدورون حول أنفسهم وينجرفون كيفما اتفق وكأنما بفعل عاصفة، الرجل اليوم مترع بالشهوة، منقوع في الغد، يحب بعنف وينبذ بوحشية، لا يثق بأي عاطفة ولا يسعد بأي حب، والنساء اللواتي ينجذبن إليه يعانين من الإهانات والضرب، وأخيراً يُنبذن ومع ذلك يبقين متشبثات به تهينهن الغيرة والحب المزدرى، ومع ذلك يبقين مخلصات. وفي ذاك اليوم، ولأول مرة منذ زمن بعيد، بكيت. ذرفت دموعاً لا إرادية، حنقاً من أولئك البشر، من صديقي ميوث، ومن الحياة ومن الحب، وذرفت أيضاً دموعاً سرية على نفسي، أنا الذي عاش بين كل شيء وكأنما على أرض كوكب آخر، الذي لم يفهم الحياة، الذي تاق إلى الحب لكنه كان خائفاً منه.

لم أعاود زيارة هاينريش بعد ذلك فترة طويلة من الزمن. وفي ذلك الوقت كان يحرز الانتصارات كمغني الأوبرا فاغنر وأخذت شهرته تتسع. وفي الوقت نفسه حظيت بدوري بقدر معقول من الشعبية. فقد كانت أغانيّ قد نُشرت وقُوبلت باستحسان وعُزفت اثنتان من مقطوعاتي من موسيقى الحجرة. وكان ذلك ما يزال يشكل تقديراً مشجعاً ضئيلاً بين الأصدقاء. وكان النقاد ما يزالون يغفلون ذكري أو غالباً ما يبدون نحوي تسامحاً بوصفي مبتدئاً.

أمضيت وقتاً طويلاً جداً مع تايزر، عازف الكمان. كان معجباً بي ويطري عملي، وكان يستمتع بذلك. وقد تنبأ بأشياء عظيمة لصالحي، وكان دائماً مستعداً أن يشاركني في عزف الموسيقى. ومع كل ذلك شعرت أن ثمة شيئاً مفقوداً. لقد كنت منجذباً إلى ميوث، على

الرغم من أني كنت ما أزال أتجنبه. ولم أعد أسمع أي شيء عن لوتي. لماذا إذن لم أكن راضياً؟ ولمت نفسي لعدم رضائي بصحبتي لتايزر، الذي كان طيباً ومخلصاً. غير أني كنت أجد أيضاً أنه ينقصه شيء، لقد كان مفرط السعادة، مفرط المرح، مفرط الرضا، بدا مفتقراً إلى العمق. لم يكن رأيه في ميوث حسناً. أحياناً، بينما ميوث يغني على خشبة المسرح، كان ينظر إليه ويهمس: « ها هو يفسد اللحن من جديد! إن ذاك الرجل مفسد تماماً. إنه يرفض أن يغني شيئاً لموتسارت وهو يعلم لماذا ». وأضطرُ لموافقته ولكن على مضض. لقد كنت منجذباً إلى ميوث، لكني لم أرغب في الدفاع عنه. كان ميوث يتصف بشيء يفتقر إليه تايزر أو لا يفهمه ويشدني إليه. كانت سجيته على الدوام متلهفة، تواقة ونهمة لا ترتوي. هذه الصفات ذاتها حثتني على الدراسة والعمل وقرّبتني من الناس الذين كان يبدو أنهم ينفضّون من حولي، تماماً كما كانوا يزعجون ميوث ويعذبونه بأساليب أخرى. كنت أودّ لو أؤلف الموسيقى دائماً. أعلم ذلك. لكني كنت أيضاً أتمنى أن أبدع شيئاً بدافع من السعادة والفيض والفرح المتصل، بدل التوق المتواصل والإحساس بالنقصان. آه، لمَ لمْ أكن قانعاً بما لدي - بالموسيقى؟ ولم لم يكن ميوث قانعاً بما يملك - بحيويته الهائلة وبنسائه؟.

لقد كان تايزر محظوظاً، لم تكن تعذبه أي رغبات لبلوغ المستحيل. كان يستمد متعة قوية، لا تنضب، من فنه. لم يطلب منه قط أكثر مما يمنحه، وخارج مجال الموسيقى كان حتى من الأسهل إرضاؤه؛ لم يكن بحاجة إلى أكثر من حفنة من الناس الودودين، وكأس من النبيذ الطيب بين حين وآخر، ونزهة في الريف في أيام الراحة، لأنه كان يحب التمشي ويحب الحياة المنطلقة. وإذا كان

هناك ما يحسب لصالح تعاليم الثيوصوفيين، فهو أن ذاك الرجل كاد يكون كاملاً، فمزاجه شديد الرقة ولم يكن يضمر أي انفعال أو سخط. ولكن حتى لو ربما خدعت نفسي، فلم أكن أرغب في أن أكون مثله. لم أرد أن أكون مثل أي إنسان آخر. أردت أن أبقى في جلدي الخاص، على الرغم من أنه كان غالباً شديد الانكماش. وبدأت اشعر بالقوة تنمو داخلي مع تنامي عملي وبدأت أيضاً أشعر بالفخر. وكان لا بد لي من إيجاد جسر أتواصل بواسطته مع الناس، كان يجب أن أتعلم كيف أتعايش معهم بدون أن أشعر دائماً أني في ظرف معوق. فإذا لم توجد وسيلة أخرى، ربما شكلت موسيقاي جسراً. وإذا لم يحبني الناس، فسوف يحبون موسيقاي.

لم أستطع أن أتخلص من هذه الأفكار الحمقاء إلا أنني كنت مستعداً لتكريس نفسي والتضحية بها لصالح شخص آخر يريدني، لشخص يفهمني حق الفهم. أليست الموسيقى هي الناموس السري للعالم؟ أليست الأرض والنجوم تتحرك في فلك متناغم؟ وهل كُتب عليّ أن أبقى وحيداً وأن لا أعثر على أناس تنسجم طبائعهم مع طبائعي؟.

مر عام على وجودي في تلك البلدة. وفي البداية لم أكوِّن معارف، خلاف ميوث، وتايزر وقائد فرقتنا الموسيقية روسلر، إلا أني لاحقاً صرت أتحرَّك ضمن دائرة أوسع، لم تكن بالضبط مصدر سرور أو إزعاج لي. ومنذ تقديم مؤلفاتي من موسيقى الحجرة، تعرفت إلى موسيقيين من البلدة من خارج المسرح أصبحوا بعد ذلك يتمتعون بسمعة جيدة مضطردة ضمن نطاق ضيق. ولاحظت أن الناس يعرفونني ويراقبونني. وأعذب أنواع الشهرة هو ذاك الذي لا ينتج عن نجاح ساحق، ولا يمكن أن يسبب الحسد، أو يدفع إلى العزلة. بل يرافقك شعور بأنك محط الأنظار، ويُشار إليك بالبنان، وتتلقى

التقريظ، وتقابل أناساً يرحبون بك ويبتسمون ومعارف يومئون إليك بمودة. ويحييك الشبان باحترام، وتشعر في دخيلتك أن الأفضل لم يأت بعد، كما يحدث مع كل الشبان، إلى أن يكتشفوا أن الأفضل أصبح وراءهم. وما كان يفسد عليّ متعتي بشكل رئيسي هو وجود بعض الشفقة دائماً خلف هذا التقدير. بل إني كثيراً ما شعرت أن الناس يُبدون لي الكثير من اللطف والود لأني إنسان مسكين ومعاق يريدون مواساته.

إبان انتهاء إحدى الحفلات الموسيقية التي عُزفت خلالها ثنائي للكمان من تأليفي، تعرفت إلى تاجر ثري يدعى إمثور، معروف عنه حبه للموسيقى، وكونه راعياً للمواهب الشابة. وكان رجلاً ضئيل الحجم ، هادئاً، وذا شعر يزداد شيباً لا تبدو عليه علائم الثراء أو حبه للفن. لكني فهمت مما قاله أنه يفهم الكثير عن الموسيقى، ولم يعط رأياً مغرقاً في التقريظ، وأنما كان هادئاً ومختصاً، مما زاد من قيمته، وأخبرني بما كنت قد استقيته منذ وقت طويل من مصادر أخرى، أي، أن هناك العديد من الأمسيات الموسيقية تقام في منزله، وتُقدَّم فيها موسيقى حديثة وكلاسيكية. ودعاني إلى حضورها، وقبل أن نفترق قال لي: « لدينا أغانيك في المنزل وهي تعجبنا. وسوف يسعد ابنتي أيضاً أن تأتي ».

حتى قبل أن أفكر في زيارته، تلقيت دعوة مكتوبة منه. وطلب السيد إمثور السماح بعزف مقطوعة ثلاثية من مقام E-Flat الكبير في منزله. وقد أحضر عازف كمان وآخر للتشلو، وهما من الهواة المتمكنين، أما الجزء الذي يؤديه الكمان الأول فسوف يحجز لي إن رغبت في عزفه. وكنت أعرف أن إمثور دائماً يدفع أجوراً مجزية جداً للموسيقيين المحترفين الذين يعزفون في منزله. ولم يكن لدي رغبة في

قبول تلك الدعوة إلا أني لم أدر ماذا أفعل بها. وأخيراً قبلتها. وجاء العازفان الآخران لمقابلتي، وأخذا الجزئين الخاصين بهما، وقمنا بعدد من التدريبات. في تلك الأثناء عرّجت لمقابلة إمثور، لكني لم أجد أحداً في المنزل. ثم حان وقت الأمسية الموعودة.

كان إمثور أرمل، يقطن في منزل قديم، فخم، يدل على الطبقة الوسطى، وهو أحد بضع منها كانت ما تزال محاطة بحدائقها القديمة بقيت صامدة وسط المدينة المتنامية. وعندما وصلت إلى هناك في المساء لم أر منها الكثير، اللهم إلا ممشى قصيراً تحف به أشجار البلانيرة المائية؛ وكان في الإمكان رؤية العلامات الخفيفة المرسومة على جذوعها على ضوء أنوار المصابيح. وكان يتخللها تمثالان قديمان اسودّ لونهما مع تقادم الزمن. وخلف الأشجار السامقة، نهض المنزل القديم، الفسيح، الواطئ بلا ادعاء. وبدءً من الباب الأمامي، وعلى طول الممرات، والدرج وفي كل الغرف التي عبرناها، كانت الجدران مغطاة بصور قديمة لتجمعات عائلية، ومناظر طبيعية باهتة ، ومشاهد عتيقة الطراز وحيوانات. وقد وصلت إلى المكان في الوقت نفسه الذي وصل فيه بقية الضيوف. واستقبلتنا مدبرة المنزل وقادتنا إلى الداخل.

لم يكن هناك عدد كبير من الضيوف، غير أنه بدا أنهم يملأون الغرف الصغيرة إلى أن فتحت أبواب غرفة الموسيقى وكانت هذه غرفة فسيحة وبدا كل شيء هنا جديداً، آلة البيانو الكبيرة، وخزائن الموسيقى، والمصابيح والكراسي، وحدها الصور المعلقة على الجدران هنا بدت، أيضاً، قديمة.

كان الموسيقيان الآخران قد وصلا لتوهما. فوضعنا حوامل النوتات، وتفحصنا الإضاءة، وبدأنا ندوزن الآلات. ثم فتح باب من

الجهة البعيد للغرفة، وعبرت سيدة ترتدي ثوباً خفيفاً الغرفة ذات الإضاءة الخافتة. فحياها السيدان الآخران باحترام. كانت ابنة إمثون ونظرت إليّ مستفهمة. وقبل أن يتم التعارف بيننا، مدت يدها إليّ وقالت: «أنا أعرفك، أنت السيد كون، أليس كذلك؟ على الرحب والسعة».

وقعت الفتاة الجميلة من نفسي موقعاً قوياً حالما دخلت علينا. والآن بدا صوتها شديد الإشراق واللطف حتى أني ضغطت على اليد المدودة بحرارة. ورنوت بنظري مسروراً إلى الفتاة التي حيّتني بطريقة مفعمة بالفتنة، والود.

قالت وهي تبتسم: «إنني تواقة لسماع المقطوعة الثلاثية».

قلت، دون أن أدري ما أقول: «وأنا أيضاً». رنوت إليها من جديد وأومأت برأسها. ثم ابتعدت، وخرجت من الغرفة وتابعتها عيناي وسرعان ما عادت متعلقة بذراع والدها، ومن خلفهما دخل الضيوف. اتخذنا نحن العازفون أماكننا وبتنا مستعدين للبدء. وجلس الجميع. أومأ عدد من المعارف لي برؤوسهم، وصافحني المضيف، وبعد أن استقر الجميع، أطفئت الأنوار الكهربائية، وبقيت الشموع الكبيرة لتنير لنا نوتاتنا.

كدت أنسى أمر الموسيقى. ورحت أبحث عن الآنسة غرترود في الجزء الخلفي. كانت جالسة متكئة على خزانة كتب وسط إضاءة خافتة. وبدا شعرها البني الداكن أسود تقريباً. ولم أتمكن من رؤية عينيها. ثم ربتُّ برفق إيذاناً ببدء العزف، وأومأت برأسي، وباشرنا بأداء حركة الأندانته بانسياب عريض من القوس.

الآن وقد باشرنا العزف، شعرت بسعادة وسلام. وتمايلت مع الإيقاع وشعرت بانسجام تام مع الموسيقى، التي بدت لي جديدة تماماً

وكأنها قد أُلِّفت لتوها. وتدفقت أفكاري حول الموسيقى وحول غرترود إمثور معاً بوضوح وبلا انقطاع. كنت أعزف بقوسي وأقوم بالقيادة بنظري. وتتابعت الموسيقى رخية ثابتة: حملتني معها على درب ذهبية تقود إلى غرترود، التي لم أعد اراها بل ولم أعد أرغب في رؤيتها. لقد كرَّست موسيقاي ونسمة حياتي، وأفكاري وقلبي، لها، كما يستسلم رحالة في الصباح الباكر للسماء الزرقاء وقطرات الندى البراقة التي تغطي المروج، طوعاً وبدون أن يضحِّي بنفسه. وفي وقت واحد مع هذا الشعور بالثراء واتساع جهارة الصوت، غمرني شعور مذهل بالسعادة، فقد أدركت فجأة كنه الحب. إنه ليس شعوراً، بل هو وضوح شكوك قديمة وتوكيد لها، عودة إلى الوطن الأم.

انتهى أداء الحركة الأولى، وساد صمت بضع هنيهات.

ثم سرت أصوات واهية متنافرة لآلات موسيقية ترفع. وخلف الوجوه المشدودة والمستحسنة، رايت الرأس المظلم برهة، ذا الجبين الصبوح والشفتين الحمراوين، المكتنزتين. ثم ربتُّ برفق على حامل نوتتي وبدأنا الحركة الثانية، وكانت تتحدث عن نفسها. ودبت الحرارة في العازفين، وتعاظم التوق المتزايد في اللحن على نحو تصعيدي، إلى أن اتخذ شكل تحليقات متصاعدة قلقة ثم تلاشت باشتياق حزين. واستلمت آلة التشيللو اللحن بوضوح وحماسة، وطورته بقوة وإطراء، وأوصلته إلى المقام الجديد المنخفض، وهناك تلاشى بشكل يائس بنغمات جهيرة هادرة شبه غامضة.

هذه الحركة الثانية كانت اعترافاً مني، وتسليماً بتوقي وحاجتي إلى ما يهفو إليه قلبي. والحركة الثالثة كان الهدف منها أن تمثل الإشباع والإنجاز. لكني في تلك الأمسية أدركت أنها ليست على أحسن ما يرام، وعزفتها بلا مبالاة كشيء نفضتُ يدي منه. فقد ظننتُ أني

صرت أعرف بالضبط كيف يجب أن يظهر الإنجاز موسيقياً، وكيف كان يجب أن يتجلى الإشعاع والسلام من خلال الهدير الصاخب الغاضب، كاشفاً عن النور من خلف السحب الكثيفة. كل هذا لم يكن متضمناً في حركتي الثالثة، كانت مجرد تحرر رقيق من تنافر الأصوات المتزايد ومحاولة إنعاش اللحن الأساسي قليلاً وتعزيزه. لم يكن يحتوي التناغم أو التوهج الذي تكشّف لي عندئذ وعشته في داخلي، وقد دهشت لأنه لم يبد أن أحداً قد لاحظ ذلك.

انتهى أداء لحني الثلاثي. انحنيت للعازفين الآخرين ووضعت كماني جانباً. وأُشعلت الأضواء مرة أخرى وبدأ الضيوف يتحركون وتقدم كثير منهم مني يبدون الملاحظات المهذبة المعتادة، ويقرظون وينتقدون ليظهروا أنهم ذوو أحكام خبيرة. ولم يأت أي منهم على ذكر الخطأ الرئيسي في العمل.

انتشر الضيوف في الغرف المختلفة. وقُدِّم الشاي، والكعك والنبيذ، وأخذ الرجال يدخنون. ومرت ساعة من الزمن وبعدها أخرى. وأخيراً تحقق ما لم أجرؤ على تمني تحققه. لقد مَثُلت غرترود أمامي ومدت يدها لي.

سألتها: « أأعجبتك؟ ».

قالت: « نعم، كانت جميلة ». لكني رأيت أنها كانت تعني أكثر مما قالت، فقلت: « أنت تقصدين بكلامك الحركة الثانية. أما الحركة الأخيرة فليست جيدة ».

مرة أخرى ألقت عليّ نظرة فضولية، تحمل حكمة امرأة ناضجة وقال: « أنت تعرف نفسك. إن الحركة الأولى قطعة موسيقية جيدة والحركة الثانية طوِّرت بشكل هائل وتتطلب الشيء الكثير من الحركة

الثالثة. وكان يمكن للسامع أن يرى وأنت تعزف متى تكون متحمساً ومتى لا تكون».

أسعدني أن أسمع أن عينيها الجميلتين، البراقتين، كانتا تراقبانني وأنا لا أدري. وقد خطر لي منذ تلك الأمسية الأولى للقائنا كم هو رائع أن يمضي المرء حياته كلها وهاتان العينان الجميلتان، الصريحتان، ترعيانه، وكم سيكون عندئذ مستحيلاً أن تسيء التفكير أو التصرف. ومنذ تلك الأمسية بت أعرف أنه يمكن لرغبتي في الاتحاد والتناغم العذب أن تتحقق وأن هناك إنساناً على هذه الأرض تجد نظرته وصوته صدى فورياً عند كل نبضة من نبضات قلبي وكل خفقة نَفَس في صدري.

لقد شعرت لفورها باستجابة متعاطفة نحوي ومنذ البداية كانت قادرة على أن تكون صريحة وطبيعية معي، دون خوف من سوء فهم أو فقدان للثقة بالنفس. وللتو عقدت صداقة معي بسرعة وسهولة لا يتوافران إلا للشبان والبريئين. وحتى ذلك الحين كنت أنجذب أحياناً إلى الفتيات، ولكن دائماً - خاصة منذ وقوع حادثتي - مع شعور حيي، كئيب ومتردد. والآن، بدل أن أكتفي بالانجذاب، كنت عاشقاً بحق، وكأن غلالة رقيقة رمادية قد زالت عن عينيّ وامتد العالم أمامي بكل ضيائه القدسي الأصلي كما يحدث للأطفال، وكما تبدو لنا الجنة في أحلامنا.

في ذلك الوقت كانت غرترود بالكاد تبلغ العشرين من عمرها، نحيلة القوام صحيحة الجسم، وقوية كشجرة فتية. كانت قد اجتازت اضطراب مرحلة المراهقة المعتادة، دون أن تتأذى، متّبعة في ذلك أوامر فطرتها النبيلة، وكأنها لحن يتطور بوضوح. وأسعدني أن أتعرف إلى شخص مثلها في هذا العالم الناقص ولم أفكر في أن أحاول

أن أستولي عليها وأحتفظ بها لنفسي. لقد كنت سعيداً بسماحها لي بمشاركتها قليلاً شبابها المتفتح وأن أعرف منذ البداية أني سأُعَدُّ من بين أصدقائها المقربين.

لم يواتني النوم قبل مرور وقت طويل خلال الليل بعد الأمسية الموسيقية تلك. لم أكن أتعذب تحت وطأة إصابة بالحمى أو بشعور بالقلق، وإنما بقيت مستلقياً يقظاً لا أجد رغبة في النوم لعلمي أن عهد ربيعي قد حان وقته، وأنه بعد ترحال طويل الأمد، كئيب، وعقيم وبعد فصول شتوية، ارتاح قلبي أخيراً. كانت غرفتي ممتلئة بومض الليل الشاحب. وتجلّت أمامي كل أهداف الحياة والفن كذرى تجتاحها الرياح. وأدركت ما كنت أفتقده في أغلب الأحيان، التناغم والانسجام الداخلي لحياتي الذي يعود منبعه إلى سنوات طفولتي الأسطورية. وعندما رغبت في التعبير عن هذا الجمال الشبيه بالحلم وعن سمو الشعور باقتضاب وأمنحه اسماً كان اسمه غرترود. وهكذا غلبني النوم عندما أوشك نور الصباح أن ينبلج، وفي اليوم التالي استيقظت منتعشاً، بعد نوم طويل عميق.

بعدئذ رحت أتأمل في أفكاري اليائسة وأيضاً الفخور التي انتابتني مؤخراً وعرفت ما ينقصني. اليوم لم يعد ثمة ما يعذبني أو يزعجني. عدت من جديد أسمع الموسيقى العلوية وأرى حلمي النضر بتناغم الأكوان. ومن جديد أخذت أسير وأفكر وأتنفس على إيقاع لحن داخلي، وعاد للحياة معناها وصرت أتطلع إلى مستقبل أفضل. لا أحد لاحظ التغير الذي طرأ عليّ، فلم يكن هناك من هو قريب مني كفاية ليفعل. وحده تايزر، ببساطته الطفولية ربت على كتفي بودّ أثناء إحدى البروفات في المسرح، وقال: «أرى أنك قد نمت جيداً ليلة

أمس، صح ظني؟ ». وفكرت في أن أقول له شيئاً يسره وخلال الاستراحة التالية قلت: « أين تنوي أن تذهب لقضاء فصل الصيف القادم، يا تايزر؟ ». لدى سماعه هذا ضحك بحياء واحمر وجهه خجلاً كفتاة مخطوبة سُئلت عن يوم زفافها، وقال: « يا إلهي، لا زال الوقت مبكراً جداً، ولكن اسمع، لقد حصلت على التذاكر لتوي ». وأخرجها من جيب صدرته. « هذه المرة سابدأ من بودنسي، ثم وادي الراين، وفورشتنتوم وليخنشتاين، وشور، وألبولا، وإنغادين العليا، ومالايا، وبرغل وبحيرة كومو. ولا أعرف طريق رحلة العودة بعد ».

التقط كمانه من جديد ورماني بنظرة فخر والبهجة تشع من عينيه الزرقاوين المائلتين إلى الرمادي والطفوليتين، وكأنهما لم تريا قط شيئاً من قذارة العالم وحزنه. وشعرت بحس القرابة معه ومع الطريقة التي تطلع بها إلى العطلة التي سيقضيها في المشي الطويل، وإلى الحركة والاتحاد السعيد مع الشمس، والهواء والأرض. وبالطريقة نفسها شعرت بسعادة متجددة لدى تفكيري في كل الدروب المفتوحة أمامي في حياتي وكأنها مضاءة بشمس جديدة متلألئة، والتي ظننت أن في استطاعتي أن أرتحل عليها بخطى ثابتة وعينين براقتين وقلب نقي.

الآن، عندما أستعيد الماضي، يبدو كل شيء بعيداً نائياً، لكني ما أزال واعياً لبعض من النور السابق، حتى وإن لم يكن مبهراً كثيراً. والآن، كما في الماضي، يريحني في أوقات الغم، ويزيل عن روحي غبار اليأس أن ألفظ اسم غرترود وأتذكر كيف تقدمتْ مني ونحن في غرفة الموسيقى في منزل والدها، بخفة طائر وبحركة طبيعية لا تصدر إلا عن صديق.

عندئذ عدت إلى زيارة ميوث، وكنت قد عملت قدر إمكاني على تجنبه منذ اعتراف لوتي المؤلم. وقد لاحظ هو ذلك، وكنت أعرف أنه

شديد الكبر وأيضاً شديد اللامبالاة بحيث يقوم بأية مبادرة بهذا الخصوص، وهكذا مرت شهور دون أن ننفرد معاً. والآن وقد جدَّدتُ إيماني بالحياة وأصبحت مترعاً بالنوايا الطيبة، بدا لي من الأهمية بمكان أن أتقرب من جديد من صديقي المهمل. وقد زودتني أغنية جديدة كنت قد ألَّفتها العذر لفعل ذلك. فقررت أن أهديها إليه. كانت شبيهة بأغنية التيهور التي أحبها، وتقول كلماتها:

تأخر الوقت، وأطفأتُ شمعتي،
حيَّيتُ الليل من النافذة المفتوحة.
فعانقني بحنان، وناداني يا أخي
ووعدني بصداقته وسط بليتي الحزينة.

كنا عليلين بشوق مشترك،
أحلامنا كئيبة وطويلة،
تهامسنا عن الأيام الخوالي
عندما كنا شبان وكان الأمل قوياً.

أخرجت نسخة عنها وكتبت فوقها: « مهداة إلى صديقي هاينريش ميوث ».

ثم انطلقت لمقابلته في وقت كنت أعرف أنه موجود في المنزل. وسمعته يغني وهو يتمشى ذهاباً وإياباً يتدرب في منزله الفخم. وكان استقباله لي بارداً.

« يا إلهي، إنه السيد كون! حسبتك لن تأتي ثانية ».

قلت: « حسن، ها أنا ذا. كيف حالك؟ ».

« كحالي دائماً. جميل منك أن تعاود زيارتي ».

« نعم، لم أكن وفياً كثيراً مؤخراً.. ».

« كان ذلك واضحاً جداً وأنا أعرف السبب ».

« لا أعتقد ».

« بل أعرف. لقد ذهبتْ لوتي ذات مرة لمقابلتك، صح؟ ».

« نعم، ولكن لا أريد أن أتحدث عن الأمر».

« ليس من الضروري البتة. مهما يكن، ها قد عدت ».

« لقد أحضرت شيئاً معي ».

أعطيته اللحن.

« آه، أغنية جديدة! عظيم. كنت أخشى أن تكرس نفسك حصراً لتأليف الموسيقى الوترية الكئيبة. أرى أن عليها إهداءً للتو. ماذا، لي! أأنت جاد؟ ».

دهشت لأنها منحته سروراً عارماً. لقد كنت أتوقع بشكل ما أن يطلق نكتة حول الإهداء.

قال بصدق: « طبعاً أنا مسرور. أنا دائماً أفرح عندما يفكر فيَّ أناس جديرون بالاهتمام، خاصة أنت. لقد كنت بحق قد حذفتك من القائمة ».

« ألديك قائمة؟ ».

« آه، نعم، فعندما يكون لشخص مثلي عدد كبير من الأصدقاء... ففي إمكاني أن أفرد لهم كتيباً مميزاً. وأنا دائماً أفكر في ذوي الأخلاق الرفيعة. وفي أولئك الذين ينبذونني. إن في إمكان المرء أن يعثر على الأصدقاء بين الأوغاد في أي يوم، ولكن من الصعب أن يعثر عليهم بين المثاليين والأناس العاديين إذا كان المرء ذا مكانة. وأنت الوحيد في الوقت الراهن. وكما هو الحال دائماً ـ فإن الناس يفضلون ما يصعب عليهم الحصول عليه! ما رأيك؟ لطالما رغبت في أن يكون لي أصدقاء ولكن ما يحدث معي دائماً هو أني لا أجذب إليَّ إلا النساء ».

« إنه جزئياً ذنبك، يا سيد ميوث ».

« لماذا ؟ ».

« لأنك تحب أن تعامل كل الناس كما تعامل النساء. وهذا لا يجوز مع الأصدقاء ولذلك تراهم ينفضّون من حولك. أنت أناني ».

« شكراً لله لأني كذلك. ثم إنك أنت أيضاً كذلك. فعندما أفضت تلك المرأة الرهيبة لوتي بحكايتها إليك، لم تقدم لها يد العون بأي شكل من الأشكال. أنت أيضاً لم تتخذ من الحادثة عذراً لهدايتي، وهو ما أشكرك عليه. لقد جعلَتْك القضية تشعر بالكراهية ونأيت بنفسك عني ».

« حسن، ها أنا قد عدت. أنت محق، كان يجب أن أحاول تقديم العون للوتي، لكني لا أفهم مثل هذه الأمور. هي نفسها ضحكت مني وقالت لي أني لا أفهم أي شيء في الحب ».

« حسن، التزم أنت بالصداقة. هي أيضاً مجال جيد. والآن سنقوم بدراسة الأغنية، إجلس واعزف الموسيقى المرافقة. أتذكر كيف كان استقبال أغنيتك الأولى؟ يبدو أنك ترتقي تدريجياً مراتب الشهرة ».

« إن الأوضاع تتحسن. لكني لن أبلغ قط مرتبتك ».

« هراء! أنت مؤلف موسيقي، مبدع، إله صغير! وما همك من الشهرة؟ إن على أمثالي أن يكدّوا باستمرار لتحقيق أي شيء. إن على المغنين والماشين على الحبال أن يفعلوا كما تفعل النساء، أن يحملوا بضائعهم إلى السوق ما داموا في حالة جيدة. إنها شهرة حتى الزيي، ومال، ونبيذ وشمبانيا! وصور تظهر في الصحف وباقات الزهور! أؤكد لك، إنه إذا ما خفَّت شعبيتي اليوم، أو ربما أصبت بالتهاب بسيط في الرئتين، فسوف ينتهي أمري غداً، وتذهب الشهرة وباقات الزهور وكل الأشياء الأخرى أدراج الرياح ».

« أوه، لا تقلق حول هذا قبل أن يحدث ».

« أتعلم، إني شديد القلق بشأن تقدمي في العمر. إن الشباب خدعة حقيقية. خدعة تصنعها الصحافة والكتب المدرسية! إنها أروع مراحل العمر! ومع ذلك يبدو العجائز أكثر رضا بكثير. الشباب هو أصعب مراحل الحياة. فمثلاً، نادراً ما تقع حوادث انتحار بين العجائز».

بدأت العزف على البيانو وأولى هو انتباهه إلى الأغنية. وبسرعة حفظ اللحن ثم وكزني وكزة مناسبة بمرفقه عند موقع العودة ذات المغزى من المقام الصغير إلى الكبير.

عندما وصلت إلى المنزل في المساء، وجدت، كما كنت أخشى، مظروفاً بعثه السيد إمثور يحتوي رسالة ودية قصيرة وأجراً أكثر من سخي. فأعدت النقود وأرفقتها برسالة أقول فيها إنني في بحبوحة وأفضّل أن يسمح لي بزيارته كصديق. وعندما قابلته في المرة التالية دعاني إلى تكرار زيارته قريباً وقال: «لقد صح ظني في ردة فعلك حيال الأمر. وقد نصحتني غرترود بعدم إرسال أي شيء إليك. لكني ارتأيت أن افعل، على الرغم من ذلك».

منذ ذلك الحين أصبحت ضيفاً كثير التردد على منزل إمثور. وعزفت الكمان الأول في العديد من الحفلات الموسيقية التي أقيمت هناك. وكنت أحضر معي موسيقى من تأليفي وأخرى من تأليف أناس آخرين، وأغلب مقطوعاتي القصيرة عزفتها هناك للمرة الأولى.

وذات مساء، في وقت الربيع وجدت غرترود وحدها في المنزل. كانت تمطر وكنت قد انزلقت على الدرجة الأمامية عند المغادرة، ولم تدعني أرحل على الفور. وتناقشنا في الموسيقى، وتصادف أن أخذت، بدون أي قصد، أحدثها عن خصوصياتي، وخاصة عن الفترة الكئيبة

التي مررت بها، وألَّفت خلالها أولى أغنياتي. ثم شعرت بالحرج ولم أدر إن كنت حكيماً بالإدلاء باعترافي إلى هذه الفتاة. ثم قالت غرترود بشيء من الجبن: «لدي اعتراف أرجو أن لا تستاء منه. لقد أخرجت نسختين من أغانيك وحفظتها».

هتفت مندهشاً: «أتغنين؟». وفي الوقت نفسه تذكرت بسرور واقعة حب شبابي الأول، وكيف سمعتها تغني بصوت نشاز.

ابتسمت غرترود وأومأت برأسها: «أوه، نعم، أغني، ولكن فقط لصديق أو اثنين ولمتعتي الخاصة. وسوف أغني أغانيك إذا وافقت على مصاحبتي على البيانو».

ذهبنا إلى آلة البيانو وناولتني نوتة الموسيقى التي نسختها بخط يدها الأنثوي، الأنيق. وبدأت بعزف الموسيقى المرافقة برفق حتى أستطيع أن اسمعها كما ينبغي. وغنت أغنية، ثم أخرى، وأنصتُّ وسمعت موسيقاي تتغيَّر وتتحوَّل. كانت تغني بصوت عال، صاف وكان أجمل ما سمعت في حياتي كلها. وتغلغل صوتها في كياني مثل هبوب الريح الجنوبية على وادٍ مكسو بالثلوج، وكان قلبي مع كل نغمة يحلق أكثر. وعلى الرغم من شعوري بالسعادة حتى كدت أطير في الجو، كان لا بد لي أن أضبط نفسي، فقد تغرغرت الدموع في عينيَّ حتى كدت لا أميِّز النوتة الموسيقية.

كنت أحسب أني أعرف ما هو الحب، وأشعر أني قد اكتسبت حكمة بمعرفتي هذه. كنت أرى العالم بعينين جديدتين وأشعر بأني بت اشد ارتباطاً بالناس كلهم. أما الآن فالأمر مختلف، الآن لم يعد هناك نور، أو عزاء أو مسرة، بل عاصفة ولهب. قلبي الآن جذل، يخفق أسرع ولم يعد يريد أن يعرف أي شيء آخر عن الحياة، يريد فقط أن يفنى

في لهبه. ولو أن أحداً يسألني الآن ما هو الحب، لعجزت عن وصفه، ولبدا متوهجاً ومضطرباً.

في تلك الأثناء، سمعت صوت غرترود يرتفع. كأنه كان يناديني ويتمنى أن يُدخل السرور إلى قلبي، إلا أنه حلّق إلى أعالي سامقة، لا تطال وتكاد تكون غريبة عليّ. عندئذ عرفت كيف تسير الأمور معي. لقد كان في إمكانها أن تغني، وأن تكون ودوداً، وتكنّ لي مشاعر حسنة، ولكن كل ذلك لم يشكل ما كنت أريده. فإذا لم يكن في الإمكان أن تكون لي وحدي، بشكل كامل وإلى الأبد، فإن حياتي عبث، وكل ما هو طيب ورائع وأصيل عندي لا معنى له.

عندئذ شعرت بيدها على كتفي. أجفلت، واستدرت ونظرت إليها. بدت الجدية في عينيها البراقتين. ولم تبتسم بعذوبة وتحمّر خجلاً إلا بعد فترة قصيرة، بينما كنت أتابع التحديق إليها.

كل ما استطعت أن أقوله شكراً. ولم تفهم ما ألمّ بي. كل ما أدركته أني متأثر بعمق وراحت تلملم بلباقة خيوط حديثنا السابق والممتع، والسهل الانسياب. وبعد ذلك بقليل غادرتُ.

توجهت إلى المنزل ولم أكن أعلم أنها تمطر. اخترقت الشوارع متكئاً على عصاي، ومع ذلك لم أكن أسير حقاً وبدت الشوارع وهمية. حملتني سحب عاصفة تزحف عبر سماء مكفهرة متغيرة. وتحدثت مع العاصفة وكنت أنا نفسي العاصفة، ومن فوقي في المدى اللامتناهي، توهمتُ سماع شيء ما. كان صوتاً نسائياً عذباً، عالي النبرة وبدا منيعاً تماماً في وجه الأفكار والمشاعر الإنسانية، وفي الوقت نفسه بدا أنه يحتوي في جوهره على كل عذوبة الشغف الجامحة.

في تلك الأمسية جلست في غرفتي بدون إضاءة. ولما ضاق صدري - وكان الوقت قد أضحى متأخراً - توجهت إلى منزل ميوث. وجدت

النوافذ مظلمة فعدت أدراجي. وأخذت أتمشى ردحاً طويلاً من الليل، وأخيراً وجدتني، وقد عدت من أوهامي إلى الأرض، واقفاً خارج حديقة إمثون. خشخشت الأشجار العتيقة بوقار من حول المنزل المستتر الذي لم يصدر عنه صوت أو يظهر منه ضوء، وقد برزت نجوم شاحبة هنا وهناك من بين السحب.

انتظرت عدة أيام قبل أن غامرت بالذهاب لمقابلة غرترود ثانية. وخلال ذلك الوقت تلقيت رسالة من الشاعر الذي كنت قد لحنت قصائده. وكنا قد تبادلنا الرسائل مدة سنتين وكنت بين حين وآخر أتلقى رسائل مثيرة منه. وأرسلت له موسيقاي وأرسل لي قصائده. ثم كتب يقول لي:

سيدي العزيز،

لم أكاتبك منذ بعض الوقت. كنت مشغولاً. وأنا منذ ذلك الحين أعمل على التآلف مع موسيقاك، وكان في ذهني نص أعدّه خصيصاً لأجلك، لكن شكله لم يكن قد اكتمل بعد. الآن اتضح وأصبح جاهزاً. إنه حوار يصلح لأوبرا، ويجب أن تضع موسيقى له. أعتقد أنك لست إنساناً سعيداً كثيراً، هذا جلي في موسيقاك. لن أتكلم عن نفسي، لكن هذا النص هو خصيصاً لك. وبما أنه لا شيء هناك يشيع البهجة في نفوسنا، فلنقدم شيئاً جيداً للجمهور، مما سيبيّن ولو برهة حتى لقليلي الإحساس أن الحياة لا تعاش فقط على السطح. وبما أننا لا نعرف حقاً نحن أنفسنا من أين نبدأ، فإنه يقلقنا أن نعي القدرات المهدورة عند الآخرين.

المخلص لك

هانز. هـ

كان تأثيرها عليّ كتأثير شرارة على البارود. فطفقت أكتب رسالة أطلب منه فيها نص الأوبرا وكنت من قلة الصبر حتى أني مزقت الرسالة وبعثت برقية. وصلني المخطوط بعد ذلك بأسبوع. كان يحكي قصة حب مشبوب نُظمتْ شعراً. وكان ما يزال فيه ثغرات، ولكن كان كافياً بالنسبة إليّ في الوقت الحاضر. وقرأته وكانت أبياته الشعرية تلازم ذاكرتي أينما ذهبت. أنشدتُها وجرّبت ليل نهار أن أضع لها موسيقى على آلة الكمان. وبعد ذلك بفترة قصيرة ذهبت لأقابل غرترود.

هتفت لها: « يجب أن تساعديني. إنني أؤلف أوبرا. هناك ثلاث أغان مناسبة لصوتك. هلا ألقيت نظرة عليها لتلقيها على مسمعي غناءً في وقت لاحق؟ ».

بدا عليها السرور الغامر، وطلبت مني أن أحكي لها عن الأمر، ثم ألقت نظرة سريعة على النوتة ووعدت بأن تحفظها سريعاً. وتبع ذلك فترة مثمرة، رائعة، كنت خلالها ثملاً بالحب والموسيقى. حتى عجزت عن التفكير في أي أمر آخر، وكانت غرترود الشخص الوحيد الذي يعرف سري عن الأوبرا. أعطيتها النوتة الموسيقية فحفظتها وغنتها. استشرتُها بشأنها، وعزفتُ لها كل شيء، وشاركتني حماسي، ودرستْ وغنتْ، ونفحتني بالنصح ومدت لي يد العون. واستمتعت بحفظ السر وبتنامي العمل الذي كان يخصنا نحن الاثنين. ولم تكن تمر أي نقطة أو إيحاء لا تفهمه على الفور وتستوعبه. وفيما بعد أخذت تساعدني في نسخ وإعادة كتابة الموسيقى بخط يدها الأنيق. وكنت قد أخذت إجازة مرضية من المسرح.

لم ينشأ بيني وبين غرترود أي شعور بالحرج. لقد كنا مجروفين بتيار واحد وكنا نعمل لهدف واحد. وكانت القدرات الناضجة تينع من أجلها، كما لأجلي، كانت فترة من السعادة ومن السحر عملت

انفعالاتي خلالها في الخفاء. ولم تكن تميز بيني وبين عملي، وكانت تجد متعة في تعاملنا معاً وتشعر بالانتماء إلى كلينا. وبالنسبة لي أيضاً، لم يعد هناك انفصام بين الحب والعمل، والموسيقى والحياة. كنت أرنو إلى الفتاة الجميلة بدهشة وإعجاب، وأنظر إليها فتجيب بنظرة أخرى منها، وكلما جئتها أو غادرتها، تشد على يدي بحرارة أكثر وحزم أشد مما كنت لأجرؤ على أن أفعل. وكنت كلما اجتزت الحديقة وولجت البيت العتيق في أيام الربيع الرخية تلك، لا أدري إن كان عملي أم حبي هو الذي حملني على ذلك وحفزني.

إن مثل هذه الأوقات لا تدوم طويلاً. وتلك الفترة كانت تقترب من نهايتها، وعاد اللهب المشتعل في داخلي يستعر بانتظام على شكل رغبات مشوشة. وجلستُ عند آلة البيانو خاصتها وغنتْ الفصل الأخير من أوبرتي، الذي كان دور صوت السوبرانو مكتملاً منه. غنت غناءً جميلاً، وبينما كان صوت غرترود ما يزال يحلق، رحت أفكر في الأيام الرائعة التي شعرت أنها قد تغيرت الآن، وأدركت أن أياماً مختلفة وأشد حلكة دون شك تلوح في الأفق. ثم ابتسمتْ لي ومالتْ عليّ لسبب يتعلق بالموسيقى. ولاحظتْ التعبير الحزين المرتسم على وجهي فوجهتْ إليَّ نظرة مستفهمة. لم أقل شيئاً. نهضتُ واقفاً، وضممتُ وجهها بكلتي يديّ، وقبّلتها على الجبين وعلى الفم ومن ثم عدت فجلست. سمحتْ بحدوث كل هذا بهدوء وبما يشبه الرصانة، وبدون إبداء أي دهشة أو انزعاج، وعندما رأت الدموع في عينيّ، مسّدت برفق على شعري، وجبيني وكتفي بيدها الناعمة، الرقيقة.

ثم باشرت العزف على البيانو وعادت هي تغني، وظلت القبلة وذكرى تلك الساعة الرائعة مغفلة بيننا وإن لم تغب عن بالنا بوصفها سرنا النهائي.

السر الآخر لم يمكث معنا طويلاً، فالأوبرا أضحت الآن تتطلب أناساً آخرين ومساعدين. وأولهم ميوث، الذي كنت أعتبره الشخصية الرئيسية، التي يمكن ترجمة تهورها ومشاعرها العنيفة بشكل جيد بواسطة صوت ميوث وشخصيته. وأرجأت القيام بأي شيء بعض الوقت. فقد كان العمل ما يزال يشكل رابطاً بين غرترود وبيني. كان يخصنا نحن الاثنين ويمنحنا معاً المسرات والهموم. كان أشبه بحديقة غنّاء يجهل وجودها كل إنسان آخر، أو سفينة لا يوجد على متنها إلا نحن الاثنان لنعبر بها المحيط.

عندما شعرتْ ورأتْ أنه لم يعد في مقدورها أن تقدم لي أي عون آخر سألتني:

قالت: « من الذي سيغني الدور الرئيسي؟ ».

« هاينريش ميوث ».

دُهشتْ.

قالت: « أوه، أأنت جاد؟ أنا لا أحبه ».

« إنه صديقي، يا آنسة غرترود، وسيكون مناسباً لأداء الدور».

« أوه! ».

وللتو دخل شخص غريب بيننا.

5

في تلك الأثناء لم أفكر في فترات عطل ميوث وفي حبه للسفر. وقد سُرَّ كثيراً لخططي من أجل الأوبرا ووعد بمساعدتي قدر طاقته. غير أنه كان منشغلاً في مشاريع السفر وكل ما استطاع أن يعدني به هو أن ينهمك في دوره خلال فصل الخريف. فنسخت من أجله الجزء الجاهز منه، وأخذه معه وكالمعتاد لم أسمع أي شيء عنه خلال تلك الشهور.

وهكذا حصلنا على فترة راحة. عندئذ كانت قد نشأت بين غرترود وبيني علاقة جميلة جداً. وأعتقد أنه منذ حادثة البيانو أضحت تدرك تماماً ما يجول في دخيلتي، لكنها لم تفه بكلمة واحدة ولم تختلف عني في أية ناحية. فهي أعجبت ليس فقط بموسيقاي وإنما بي أيضاً، وشعرت مثلي أن هناك تعاطفاً فطرياً متبادلاً بيننا وشعوراً بالتفاهم والعاطفة المشتركين. لذا كان سلوكها معي يتسم باللطف والود، ولكن بلا شغف. أحياناً، كان ذلك يكفيني وقد قضيت أياماً راضية، هادئة في صحبتها، ولكن كان الشغف دائماً سرعان ما ينشأ بيننا كعنصر إضافي، وعندئذ كان شعورها الودود يبدو كأنه صدقة

تقدمها إليَّ، فيعذبني أن أرى أن أمواج الحب والرغبة التي تغلبني غريبة عليها وممجوجة منها. وكثيراً ما كنت أخدع نفسي وأحاول أن أقتنع بأن لها مزاجاً رائقاً، لا عاطفياً. لكني كنت أشعر من أعماق قلبي أن هذا غير صحيح، وكنت أعرف غرترود بما يكفي لأدرك أن الحب سيجلب لها أيضاً المخاطر واضطراب العواطف. وكثيراً ما فكرت في هذا لاحقاً، وشعرت أنه لو أنني أقتحمها، أحارب من أجلها، وأشدها إليّ بكل ما أوتيت من قوة، إذن لتبعتني ورافقتني إلى الأبد. لكني لم أثق بسلوكها الدمث نحوي، وحين أبدت لي الرقة والعطف، عزوت ذلك إلى التعاطف المجوج المعتاد. لم استطع أن أتخلص من التفكير في أنها لو أحبت رجلاً جذاباً، صحيحاً بقدر ما أحبتني، لما استطاعت أن تحافظ على العلاقة القائمة على هذا الأساس الهادئ، الودود. ولذلك، لم يكن غريباً عليّ أن أمضي ساعات شاعراً أني أتمنى لو أبادل موسيقاي وكل ما له قيمة عندي مقابل ساق سليمة ومزاج مرح.

قرابة ذلك الوقت عاد التقارب بين تايزر وبيني، فلم يكن لي غنى عنه من أجل عملي، وهكذا كان الشخص التالي الذي يعرف سري ويطلع على نص الحوار والخطط الموضوعة للأوبرا. وقد كان شديد التكتم حول الأمر كله وأخذ العمل معه إلى البيت ليدرسه. وعندما عاد ثانية كان وجهه الطفولي بلحيته الشقراء يشع سروراً وإثارة من الموسيقى.

هتف متحمساً: «أوبراك هذه ستكون عظيمة! أكاد أشعر بالافتتاحية على أطراف أصابعي! والآن، أيها الوغد، هيا بنا لنتناول مشروباً. وأود أن أقترح، إذا لم تكن هذه جراءة مني، أن نشرب نخب الأخوة ـ لكن الأمر ليس إجبارياً».

قبلت الدعوة عن طيب خاطر وأمضينا معاً أمسية جميلة. ولأول مرة صحبني تايزر إلى منزله. كانت أخته، التي بقيت وحيدة بعد وفاة والدتها، قد جاءت مؤخراً لتعيش معه. ولم يستطع تايزر أن يتكلم بصوت عال كفاية عن الراحة التي وفرها تغير نظام البيت بعد سنوات عزوبته الطويلة. كانت أخته فتاة هادئة، لطيفة، عيناها لامعتين، طفوليتين كعيني أخيها. اسمها بريجيت. أحضرت لنا كعكاً ونبيذاً نمساوياً صافياً، وأيضاً صندوقاً من السيجار الفرجيني الكبير. شربنا الكأس الأولى من النبيذ نخب صحتها والثانية نخب صداقتنا الوثيقة، وبينما نحن نأكل الكعك، ونشرب النبيذ وندخن، كان تايزر يتنقَّل ابتهاجاً في أنحاء الغرفة. جلس أولاً عند البيانو، ثم على الأريكة وأمسك بقيثارة، ثم على طرف الطاولة وهو يحمل كمانه، وأخذ يعزف أي شيء ممتع يخطر على باله. وغنى أيضاً، وتلألأت عيناه اللامعتان. وكان كل شيء تقديراً لي وللأوبرا. وبدا أن أخته يجري في عروقها الحماس نفسه ولا تقل عنه حماسة لموتسارت. وكان غناؤه لآريات من "الناي السحري" ولمقاطع من "دون جيوفاني"، الذي كان يقطعه بين حين وآخر تبادل أطراف الحديث وقرعُ الكؤوس، يتردد صداه في أرجاء الغرفة الصغيرة، وكان أخوها يدعمه بشكل جميل بعزف على الكمان، أو البيانو، أو القيثارة، أو حتى بمجرد الصفير.

كنت ما أزال مرتبطاً بمنصبي كعازف كمان مع الفرقة الموسيقية خلال موسم الصيف القصير. لكني طلبت حلِّي منه في فصل الخريف لأني أردت أن أكرس كل وقتي وطاقتي لعملي. وكان قائد الأوركسترا، الذي انزعج بسبب مغادرتي، فظاً جداً معي عند نهاية المرحلة، لكن تايزر كان ذا عون عظيم لي في دفاعي عن نفسي، وفي تجاوز الأمر.

بمساعدة هذا الصديق الوفي، عملت على إنجاز تلحين الأوبرا، وفي الوقت الذي كان يحترم أفكاري، كان يضع أصبعه بصراحة على أي خطأ في معالجة التوزيع الأوركسترالي. وكثيراً ما كان ينزعج أيما انزعاج ويعنفني كقائد أوركسترا مفوّه إلى أن يتم تغيير الجزء المريب، الذي أكون قد أحببته وتمنيت الاحتفاظ به، وإلغاؤه. وكان دائماً مستعداً لإيراد الأمثلة كلما انتابني الشك. وعندما أقدم شيئاً غير مرضٍ أو لا ينطوي بما يكفي على روح المغامرة، يهرع إليّ حاملاً قطعاً موسيقية ويريني كيف كان لموتسارت أو لورتزينغ* أن يعالجه، ويلمّح لي أن ترددي يدل على جبن، أو أن عنادي هو حماقة متهورة. كنا نتبادل الصراخ، ونتجادل وترتفع وتيرة إثارتنا، فإذا ما حدث هذا في منزل تايزر فإن بريجيت تنصت إلينا في انتباه، وهي رائحة غادية بالنبيذ، والسيجار، وتمسّد بعناية وتعاطف الكثير من أوراق النوتة المجعدة. وكان إعجابها بي يعادل حبها لأخيها؛ فقد كانت تعتبرني مايسترو. وكنت أُدعى في كل يوم أحد لتناول طعام الغداء في منزل آل تايزر. وبعد تناول الطعام نخرج، حتى وإن لم يكن في السماء غير بقعة زرقاء صغيرة، ونركب الترام. بعد ذلك نتمشى فوق التلال ونتغلغل في الغابة، نتحدث ونغني، وكان آل تايزر كثيراً ما يرفعان عقيرتيهما بالغناء بطريقتهما المحلية.

ذات مرة توقفنا لكي نتناول وجبة خفيفة في حديقة حانة إحدى القرى كان ينبعث منها لحن رقصة ريفية مرح ينساب إلينا من النوافذ المفتوحة واسعاً. وبعد أن تناولنا الطعام وجلسنا نرتاح ونشرب عصير التفاح، تسللت بريجيت إلى الحانة وولجتها. راقبناها

---

* لورتزينغ، ألبرت (1801-1851): موسيقي ألماني.

وهي تفعل ذلك وسرعان ما شاهدناها ترقص مارة من أمام النافذة، نضرة ومتألقة كصباح يوم صيفي. وعندما رجعت هزَّ تايزر اصبعه في وجهها وقال إنه كان عليها أن تطلب الإذن منه في الذهاب. فاحمرت خجلاً وارتبكت، ثم هزت رأسها محتجة ونظرت إليَّ.

سألها أخوها: « ما بك؟ ».

قالت: « لا شيء »، لكني لاحظت بالصدفة كيف جعلته يفهم مغزى نظرتها، فقال تايزر: « أه، طبعاً! ».

لم أقل أي شيء لكني استغربت لارتباكها لأني رأيتها وهي ترقص أثناء وجودي. واتضح لي للمرة الأولى أن سيرهما أيضاً كان سيكون أسرع في الخطى وأطول مسافة لو لم أكن أعيقهما، وبعد تلك المناسبة صرت لا أنضم إليهما إلا لماماً في نزهات أيام الأحد.

بعد أن راجعنا دور صوت السوبرانو قدر إمكاننا، لاحظتْ غرترود أني راغب في التردد عليها وتمضية الأوقات المتعة عند البيانو، وأني في الوقت نفسه من فرط الحياء بحيث أختلق الأعذار لاستمرارها. ودهشتُ حين اقترحتْ أن أقوم بزيارتها بانتظام لمرافقتها بالعزف وهي تغني، وصرت أتردد على منزلها مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع في فترات بعد الظهر. وكان والدها سعيداً بصداقتها لي. فقد كانت غرترود قد فقدت أمها وهي ما تزال صغيرة، وأصبحت سيدة المنزل وترك لها والدها أن تتصرف بالطريقة التي تشاء في كل الأمور.

كانت الحديقة في أزهى حللها وروعتها، تزخر بالزهور، ويُسمع تغريد الطيور في كل أرجاء المنزل الهادئ. وعندما كنت ألج الحديقة من الطريق العام وأمرُّ بالتماثيل القائمة، العتيقة على الممشى المؤدي إلى المنزل المغطى بالنباتات المتسلقة، أشعر في كل مرة كأني أدخل حَرَماً، لا تخترقه الأصوات والأشياء الدنيوية إلا بقدر يسير. كان

النحل يئز بين الشجيرات المزهرة أمام النوافذ، والشمس تملأ الغرفة، مشكِّلة انعكاسات ضوئية من الأوراق الخضراء. وأجلسُ عند البيانو وأستمعُ غناء غرترود. كنت أنصتُ إلى صوتها الذي يرتفع بيسر وبلا جهد، وحين كنا نتبادل النظرات، بعد انتهاء إحدى الأغاني، ونبتسم، يحدث ذلك بطريقة منسجمة وحسنة النية كما بين أخ وأخته. وكثيراً ما شعرت في مثل تلك المواقف أنه ما عليّ إلا أن أمدّ يديّ لأقبض على السعادة وأمتلكها إلى الأبد. غير أني لم أفعل لأني أردت أن أنتظر إلى أن تبدر عنها أيضاً إشارة رغبة واشتياق. ولكن بدا أن غرترود كانت قانعة ولم ترغب في أي شيء آخر. والحق، لطالما بدا لي أنها لا ترغب في أن تهشم هذه العلاقة الهادئة وتعكر صفو ربيع صداقتنا.

إذا كان قد خاب أملي في هذا الأمر، فقد عزّاني أن أعي عمق اهتمامها بموسيقاي، ومدى فهمها لها واعتزازها بها.

استمر هذا الوضع حتى حزيران. ثم رحلت غرترود مع والدها إلى الجبال. وتخلّفتُ أنا وكنت كلما مررت بدارها أراها تنهض خاوية من خلف أشجار الدلب، والبوابة مقفلة. ويعاودني الألم، ويتفاقم ويتبعني حتى عمق الليل.

في الأماسي كنت أذهب إلى آل تايزر، ودائماً وأنا أحمل موسيقاي في حقيبتي، وأشاركهما أسلوبهما الهادئ، القانع بالحياة. أشرب نبيذهما النمساوي وأعزف معهما موسيقى موتسارت. وبعد ذلك أعود أدراجي في الليالي الرخيّة، وأشاهد الأزواج يتمشون في أنحاد الحدائق العامة، متوجهاً إلى البيت وأنا مرهق وألجأ إلى السرير لكن النوم يجافيني. وصرت لا أفهم كيف استطعت أن أتصرف مع غرترود بتلك الطريقة الأخوية، وكيف لم أعمل قط على تحطيم الحاجز القائم بيننا، وأشدها إليّ، وأقتحمها وأفوز بها. كنت أتخيلها

بثوبها الأزرق أو الرمادي الهفهاف، مرحة أو جادة، وأكاد أسمع صوتها، ولا أذكر أني سمعته مرة إلا وهبَّتْ فيَّ لوعة الرغبة في مضاجعتها. وأنهض وقد تمكّن مني الأرق والتهيُّج، ثم أدير مفتاح النور وأندفع لأنهمك في عملي. فأجعل الأصوات الإنسانية والآلات الموسيقية تتورد، تتوسل وتهدد. وأعيد أغنية الاشتياق بألحان جديدة، آسرة. وغالباً ما كنت أفتقد حتى هذه السلوى. وبعد ذلك أستلقي على السرير، متقداً وقلقاً، وأنا في حالة أرق مزرية. أنطق اسمها، غرترود، غرترود، بهياج وحماقة. وأنحّي العزاءً والأمل جانباً وأستسلم يائساً إلى ذل الرغبة الرهيب. وأهتف مخاطباً الله أسأله لماذا جعلني هكذا، لماذا جعلني معاقاً، ولماذا بدل أن يهبني السعادة التي يحظى بها أشد المخلوقات تواضعاً، لم يهبني إلا سلوى رهيبة هي أن أعيش وسط دوامة من الأصوات، أصوِّر عليها على الدوام الأخيلة الغريبة التي لا تطال، لأواجه بها رغباتي.

كنت خلال النهار أحقق نجاحاً أكبر في التحكم في عواطفي. كنت أشدُّ على أسناني، أنكبُّ على عملي منذ ساعات الصباح الباكر، وأهدِّئ من غلوائي في الانطلاق في السير مسافات طويلة وبإنعاش نفسي بحمامات من الماء البارد. وفي الأماسي أفرّ من أشباح الليل المقبل إلى صحبة آل تايزر المرحة، فأحصل معهم على سويعات من الراحة وأحياناً المتعة. وقد لاحظ تايزر أني مريض وأتألم وعزا الأمر كله إلى العمل. ونصحني بأخذ قسط من الراحة، على الرغم من أنه هو نفسه كان مملوءً بالحماس، وكان في دخيلته شديد اللهفة ولا يطيق صبراً ليرى الأوبرا تكتمل. وأحياناً كنت من ناحيتي أعرِّج عليه وأقضي الأمسية معه وحدنا في حديقة منعشة لإحدى الحانات، ولكن حتى في تلك الأويقات كان يضايقني مرأى العشاق الشبان، والمصابيح

الصينية والمفرقعات النارية، والشعور بالحب الذي يملأ الجو دائماً فوق المدن في أمسيات الصيف.

وصل الوضع إلى اسوأ درجة عندما سافر تايزر بدوره ليقضي عطلته مع بريجيت بالتمشي بين الجبال. ودعاني للانضمام إليهما، وكان جاداً في ذلك، على الرغم من أن عجزي عن التنقل بسهولة كان سيفسد عليه متعته، إلا أني لم أستطع أن أقبل دعوته.

بقيت في المدينة وحدي طوال أسبوعين، بائساً ولا أجد إلى النوم سبيلاً، ولم أحرز أي تقدم في عملي.

ثم أرسلت غرترود لي صندوقاً صغيراً مملوءً بالورد الألبي جمعته من إحدى قرى منطقة فاليس. وعندما رايت خط يدها، وأخرجت الأزهار الذابلة، المائل لونها إلى البني من حزمتها، شعرت كأني حظيت بنظرة من عينيها الغاليتين وشعرت بالخجل بسبب ما انتابني من توتر وفقدان للثقة بالنفس. وقررت أنه من الأفضل لها أن تعرف شعوري، وفي صباح اليوم التالي كتبت لها رسالة قصيرة، قلت لها فيها بشبه مُزاح أن النوم يجافيني بسبب شوقي إليها، وأنه لم يعد بمقدوري أن أكتفي بصداقتها لي، لأني أحبها. وبينما كنت أكتب غلبتني من جديد عواطفي وانتهت الرسالة، التي كانت قد بدأت باعتدال وبما يشبه المزاح، نهاية متهورة وملتهبة.

كان البريد يجلب كل يوم تقريباً تحيات وبطاقات بريدية جميلة من آل تايزر، ولم يكونا طبعاً يعلمان أن بطاقاتهما ورسائلهما تجلب لي الخيبة في كل مرة، لأني كنت أنتظر أن يصلني بريد من شخص آخر.

وأخيراً وصل، وكان مغلفاً رمادياً عليه كتابة بخط يد غرترود الواضح، المنساب، وفي داخله رسالة:

صديقي العزيز،

لقد أحرجتني رسالتك. إنني أدرك أنك تتألم، وإلا لأنّبتك على مهاجمتي بهذه الطريقة. أنت تعلم أني مولعة بك، لكني راضية تماماً بوضعي الراهن ولا رغبة لي حتى الآن في أن أغيره. ولو أني رأيت أن خطر فقدانك موجود لدرأته. لكني لا أستطيع أن أعطيك أي جواب على رسالتك المتقدة. صبراً، دع الأمور تبقى بيننا كما هي إلى أن نتقابل من جديد ونناقش الأمور معاً. عندئذ سيجري كل شيء بيسر.

صديقتك المحبة

غرترود

لم يتغير الوضع قيد أنملة غير أن الرسالة أدخلت السعادة إلى قلبي. فهي، قبل كل شيء، تحية منها، لقد سمحت لي أن أعلن عن حبي ولم تصدّني. ثم إن الرسالة بدت وكأنها جلبت معها بعضاً من شخصيتها، ومن عذوبتها الندية، وبدل صورتها التي ابتدعها اشتياقي، عادت لتتمثل في أفكاري بذاتها الحقيقية. وكأن نظرتها تطلب ان تثق بي. شعرت بها قريبة مني ووعيت على الفور وفي وقت واحد بالخجل وبالفخر. وقد ساعدني ذلك على قهر اشتياقي المعذّب ولكبح رغباتي الملتهبة. وشمخت برأسي عالياً، مع أني لم أتعزى، ولكن ازددت صلابة وسيطرة على نفسي. وحصلت على أسباب الراحة في نزل قروي، على مسافة ساعتين من السفر من المدينة، وأخذت عملي معي. جلست في ظل شجيرة ليلك ذابلة أستغرق في تأمل عميق، أفكر غالباً في حياتي. كم كان درب حياتي غريباً وموحشاً ووجهتي غامضة! لم يكن لي أية جذور في أي مكان ولا كان لي موقع أسميه موطناً. العلاقة الوحيدة كانت سطحية مع والديّ من خلال رسائل مهذبة. بل إني تخليت عن عملي لكي أنغمس في خلق أوهام خطرة، لم تكن

تشبعني تماماً. ولم يفهمني أصدقائي كما ينبغي. وكانت غرترود هي الشخص الوحيد الذي كان يمكن أن أقيم معها تفاهماً تاماً وعلاقة كاملة. ثم ألم أكن أتصيد أطيافاً وأبني قصوراً في الخيال من خلال عملي الذي كرست له حياتي وكان من المفترض أن يضفي عليها معنى؟ أيمكن حقاً أن يكون له معنى وأن يبرر الحياة ويغنيها، أقصد هذا الإنشاء للمنظومات الصوتية واللعب المثير بالصور، الذي في أحسن الأحوال يمكن أن يساعد الآخرين على تزجية ساعة مسلية؟

على الرغم من ذلك عدت أعمل بكد واجتهاد خلال فصل الصيف ذاك. وأنهيت الأوبرا بيني وبين نفسي، وإن كان ما يزال ينقص الكثير من التفاصيل ولم يدوَّن منها إلا جزء يسير. وكانت أحياناً تمنحني من جديد متعة بالغة وأفكر مفتخراً كيف تستولي على اهتمام الناس، وكيف سيعمل المغنون، والموسيقيون، وقادة الأوركسترا، ومجموعات الكورس وفقاً لرغباتي، وكيف ستترك الأوبرا تأثيراً على آلاف الناس. وفي أحيان أخرى كان يبدو لي أنه أمر خارق ومروع أن تنتج كل هذه القوة والعاطفة عن الأحلام القلقة ومخيلة رجل وحيد مسكين محط شفقة الجميع. وفي أحيان أخرىكنت أيضاً أفقد شجاعتي، وأشعر أن أوبراي لن ترى النور أبداً، وأن كل شيء غير حقيقي ومبالغ فيه. غير أن هذا الشعور كان نادراً، فقد كنت في أعماق قلبي مقتنعاً بجودة عملي وقوته. لقد كان يتصف بالصدق وبالتوهج، لقد عيش وجرى الدم في عروقه، فإذا كنت في هذه الأيام لم أعد أرغب في أن أسمع تلك الأوبرا وأود أن أؤلف نوعاً مختلفاً تماماً من الموسيقى، فإنها، مع ذلك، تحتوي على عصارة شبابي كله. وكلما استمعت من جديد إلى ألحان منها، أشعر وكأن عاصفة ربيعية معتدلة تهب عليَّ من وديان الشباب

والعنفوان المهجورة. وعندما أفكر في أن كل ما تتصف به من قوة وسلطان على الناس نشأ من الضعف، والحرمان، والاشتياق، لا أعود أدري إن كانت حياتي برمتها في ذلك الوقت، وفي الوقت الحاضر أيضاً، يمكن وصفها بأنها سعيدة أو حزينة.

اقترب فصل الصيف من نهايته. وذات ليلة حالكة، خلال فترة هطول سيل غزير عاصف من المطر، أنهيت تأليف الافتتاحية. وفي صباح اليوم التالي كان المطر خفيفاً وبارداً، والسماء مغطاة تماماً باللون الرمادي، والحديقة وقد تلبَّست مظهراً خريفياً. فحزمتُ أغراضي وقفلت عائداً إلى المدينة.

كان تايزر وأخته، من بين معارفي، هما الوحيدان اللذان كانا قد عادا. وقد بدا على كليهما الصحة الجيدة وسمرة البشرة بعد فترة مكوثهما في الجبال. وكانا قد مرا بعدد مدهش من التجارب خلال سياحتهما ومع ذلك فقد أبديا بالغ الاهتمام والفرح لعلمهما أن العمل في أوبراي يتقدم. وقمنا بدراسة الافتتاحية وكانت لحظة عظيمة بالنسبة إليّ عندما وضع تايزر يده على كتفي وقال: «انظري يا بريجيت، ها هنا موسيقي عظيم!».

على الرغم من فيض اشتياقي وحماسي، فإني ترقبت عودة غرترود بلهفة عارمة لكي أعرض عليها كمّ العمل الهائل. كنت أعلم أنها سوف تبدي اهتماماً قوياً به، وتفهمه وتستمتع به وكأنه من إنجازها. وفوق ذلك، كنت متلهفاً لمقابلة هاينريش ميوث، الذي قدم لي عوناً أساسياً ولم أكن قد رايته منذ اشهر.

أخيراً وصل، قبل عودة غرترود، ودخل ذات صباح غرفتي. وألقى عليّ نظرة متفحصة.

قال وهو يهزّ رأسه: « مظهرك فظيع. لا عجب، إن كان المرء يؤلف موسيقى كتلك! ».

« هل اطلعتَ على دورك؟ ».

« أتقول اطلعتُ عليه؟ بل إني أحفظه عن ظهر قلب وسوف أغنيه حالما ترغب. إنها موسيقى رائعة! ».

« أهذا رأيك حقاً؟ ».

« نعم. لقد كنت تنجزُ أعظم أعمالك. فقط انتظر! بعد أن تقدَّم أوبراك على المسرح سوف تصبح شهرتك المتواضعة من الماضي. والأمر عائد إليك. متى تريد مني أن أغني؟ ثمة نقطة أو اثنتان أذكرهما. إلى أين وصلت في الأوبرا كلها؟ ».

عرضت عليه عملي وبعد ذلك صحبني إلى بيته. وهناك، وللمرة الأولى، سمعته يغني الجزء الذي طالما خصصته له في ذهني عندما كنت أعزف معبّراً عن مشاعري الخاصة، وشعرت بمواطن القوة في موسيقاي وفي غنائه. وعندئذ فقط وصلني توهجي الخاص واستشعرت دفأه. وكأن الأوبرا لا تخصني، وكأنها لم تكن قط من إنجازي، وإنما لها كيانها الخاص ولها تأثير القوة الخارجية عليّ. وشعرت للمرة الأولى بهذا الحس بانفصال عمل عن مبدعه، ولم أكن قبل ذلك أؤمن به قط. لقد أخذ عملي يقف بعيداً، يتحرك، وتصدر عنه أمارات الحياة ولا أزال أمسك به، وها هو يستقل عني، كان أشبه بطفل نما حتى أصبح أطول قامة من والده، وأخذ يعيش ويتصرف طوعاً وينظر إليّ نظرة مستقلة من خلال عينيه الخاصتين، إلا أنه يحمل اسمي ويشبهني. وقد انتابني هذا الشعور المزدوج، الذي يكاد يكون مخيفاً، مع الأعمال الأخرى اللاحقة.

كان ميوث قد حفظ دوره جيداً، وقد وافقت بسهولة على إجراء التغييرات اليسيرة التي رغب فيها. بعد ذلك سأل عن دور صوت السوبرانو، الذي لم يكد يعرف عنه إلا القليل، وودّ أن يعرف إن كانت المغنية قد جربته بعد. واضطررت لأول مرة إلى أن أخبره عن غرترود، وقد نجحت في أن أفعل ذلك بهدوء شديد وبنبرة عرضية. كان يعرف الاسم معرفة جيدة على الرغم من أنه لم يكن قد زار منزل إمثور. وقد دهش لدى سماعه أن غرترود قد قامت بدراسة الدور وأنها قادرة على أدائه.

قال مستحسناً: « لا بد أن لها صوتاً جيداً، عالي النبرة وعذباً. هلا أخذتني إلى هناك في وقت ما؟ ».

« على أية حال كنت أنوي أن أسألهم إن كان في استطاعتك أن تقوم بزيارتهم. إنني أرغب في أن أسمعك تغني مع الآنسة إمثور مرة أو مرتين، سوف يستلزم الأمر إجراء بعض التصحيحات وحالما يعود آل إمثور إلى البلدة سوف أطلب منهم ذلك ».

« أنت بحق إنسان محظوظ، يا كون. وسوف يتمكن تايزر من مساعدتك بالتوزيع الأوركسترالي. سوف تنجح الأوبرا، وسترى ».

لم اقل أي شيء. لم أكن بعد قد كوَّنت أفكاراً حول المستقبل ومصير أوبراي، أولاً يجب إنهاؤها. ولكن بما أني سمعته يغنيها، فأنا أيضاً آمنت بقوة عملي.

عندما أخبرت تايزر عن الأمر، قال لي بتجهّم: « أستطيع أن أصدقك. إن ميوث يتمتع بطاقة هائلة. ليته فقط لم يكن سطحياً جداً. إنه لم يهتم حقاً بالموسيقى قط، ولا يهمه إلا نفسه. إنه أناني صرف ».

في اليوم التالي ذهبت لملاقاة غرترود التي كانت قد عادت أخيراً. ازداد وجيب قلبي وأنا أجتاز أرض حديقة منزل آل إمثور وهي في

حلتها الخريفية، وقد بدأت أوراق الشجر تسقط لتوها. لكنها تقدمت مني وهي تبتسم، وقد لوحتها أشعة الشمس قليلاً وبدت أكثر جمالاً وحسناً من أي وقت آخر. مدت يدها لي، وإذا بصوتها الغالي، وعينيها المشرقتين وكامل سحرها، وسلوكها العفوي يسلب لبي من جديد وللتو. وبكل سرور أزحت أحزاني ورغباتي جانباً وقنعت بعودتي إلى كنف حضورها المهدهد. وتركتْ لي القياد،ولما لم تواتني الشجاعة لآتي على ذكر رسالتي وطبيعتها، لزمت بدورها الصمت بشأنها، ولم تشر بأي حال من الأحوال من خلال سلوكها، إلى أن صداقتنا قد نالها أي عطب مهما كان أو يتهددها أي خطر. ولم تحاول أن تتجنبني، كانت كثيراً ما تنفرد بي، لثقتها بأني سأحترم رغباتها ولن أكرر إعلان حبي لها إلا إذا شجعتني. وخضنا، بدون إضاعة أي وقت، في الحديث عما أنجزته خلال الأشهر القليلة الأخيرة وأخبرتها أن ميوث قد حفظ دوره وأطراه. وطلبت السماح لي بإحضاره معي إلى هناك، لأنه من الضروري بالنسبة إليَّ أن نراجع الدورين الرئيسيين معهما معاً، فوافقت.

قالت: «إنني لا أوافق بكامل رغبتي. أنت تعلم أني لا أغني أبداً للغرباء وسيكون الأمر مؤلماً بشكل مضاعف إذا فعلت أمام هاينريش ميوث، وليس فقط لأنه مغني مشهور. ثمة شيء فيه يخيفني، على الأقل على خشبة المسرح. على أية حال، سوف نرى كيف سيجري الأمر».

لم أغامر بالدفاع عن صديقي ومدحه. لم ارد أن أفاقم من شعورها بالارتباك. كنت مقتنعاً أنها بعد المرة الأولى سوف تشاركه الغناء من جديد طوعاً.

بعد بضعة ايام، توجهنا ميوث وأنا إلى هناك واستقبلنا مضيفنا بأدب جم وتحفظ. ولم يكن قد أبدى قط أدنى اعتراض على تكرار زياراتي وصداقتي لغرترود ولكان ضحك لو أن أي شخص

اعترض عليها. ولم يسرّ كثيراً لزيارة ميوث، لكن سلوك هذا الأخير كان بالغ الكياسة واللباقة مما أثار دهشة آل إمثور وإعجابهما. لقد استطاع المغني الفعال والمتعجرف ذو السمعة السيئة أن يتصرف بصورة لا تشوبها شائبة. ثم أنه لم يكن تافهاً وصارماً في آرائه، وإنما متواضعاً.

بعد قليل سألت غرترود: « ألا نغني؟ ». ونهضنا واقفين وانتقلنا إلى غرفة الموسيقى. جلست إلى البيانو، وتكلمت قليلاً عن المقدمة والمشهد، وأعطيت بعض التعليمات ومن ثم طلبت من غرترود أن تباشر. ففعلت، وغنت بتحفظ وحذر. ومن ناحية أخرى، عندما جاء دور ميوث في الغناء، كان صوته عالياً بلا أي تردد أو خجل، وأُسرنا نحن الاثنان وجعلنا نمتزج في روح الموسيقى حتى أن غرترود أخذت بدورها عندئذ تغني بلا تحفظ. وهنا فقط بدأ ميوث، الذي كان معتاداً على معاملة سيدات العائلات الكريمة برسمية شديدة، يوليها انتباهه، ويصغي إلى غنائها باهتمام ويعبر عن إعجابه بتشجيعها ولكن بدون مبالغة.

منذ ذلك الوقت تلاشت كل الضغائن، وقربت الموسيقى فيما بيننا ووحّدت هدفنا. وأخذ عملي الذي كان شبه ميت ومقطّع الأوصال يتخذ باستمرار شكل كيان كلي وحي. وعندئذ أدركت أن الجزء الرئيسي من العمل قد أُنجز، وأنه ليس هناك من خطر حقيقي يتهدده، وبدا لي جيداً. ولم أخفِ سروري وشكرت صديقيَّ بامتنان. غادرت المنزل مع ميوث ونحن في مزاج بهيج ودعاني بشكل غير متوقع إلى تناول وجبة فخمة في المنزل حيث يقيم. وبينما نحن نشرب الشمبانيا فعل شيئاً كان يخشى قليلاً أن يفعله، لقد خاطبني كصديق حميم واستمر على هذا. وسرّني ذلك وحظي بموافقتي.

قال وهو يضحك: « ها نحن نستمتع ونحتفل، وأعتقد أنها فكرة جيدة أن نفعل ذلك مقدماً. هذا هو الوقت المناسب. بعد ذلك سوف تختلف الأوضاع. سوف تسلط عليك الأضواء، أيها الشاب، وآمل أن لا تفسدك كما يحدث مع معظم الناس ».

ظلت غرترود لا ترتاح مع ميوث مدة طويلة، ولا تكون على سجيتها ولا يزول تحفظها إلا أثناء الغناء. وكان هو شديد التهذيب والمراعاة، وشيئاً فشيئاً أضحت غرترود تسعد برؤياه وتدعوه في كل مرة وبكل ود أن يعاود الزيارة، تماماً كما كانت تفعل معي. ونادراً ما كان يجمعنا مجلس واحد، وكنا عندئذ نتدرب ونتناقش. وعاد آل إمثور إلى عقد اجتماعاتهم الشتوية لإقامة أمسيات موسيقية منتظمة كثيراً ما كان ميوث يحضرها، ولكن بدون أن يساهم فيها.

أحياناً كنت أعتقد أن غرترود قد بدأت تصبح أكثر تحفظاً معي وأنها إلى حد ما تبتعد عني. إلا أني كنت دائماً أأنّب نفسي على هذه الأفكار وأخجل من شكوكي. لقد كانت غرترود مطلوبة جداً كسيدة منزل يحدث فيه الكثير من الأمور المسلية، وكثيراً ما كان يسعدني أن أراها تتنقل وتقوم بدور المضيفة بين ضيوفها، تبدو شابة غضة، وساحرة ولبقة.

مرت الأسابيع بالنسبة إليّ بسرعة كبيرة. عملت أثناءها على أوبراي، وكنت آمل في أن أنهيها خلال فصل الشتاء. واجتمعت بتايزر، وأمضيت أماسي كثيرة معه ومع أخته. ثم كانت هناك رسائل كثيرة وحوادث، بما أن أغانيَّ كانت تؤدّى في أماكن مختلفة، وكل مؤلفاتي الموسيقية الوترية كانت تعزف في برلين. وكانت هناك تحقيقات ومقابلات صحفية، وإذا بالجميع فجأة كأنهم يعرفون أنني

أعمل على تأليف الأوبرا، على الرغم من أني لم أفه بأي كلمة لأي إنسان، ما عدا غرترود، وآل تايزر وميوث. والحقيقة هي أنه لم يكن ذلك مبهماً، وقد كنت سعيداً في داخلي بدلائل النجاح. وكان طريقاً قد فُتح أمامي أخيراً، وفي الوقت المناسب.

لم أكن قد قمت بزيارة بيت والديّ منذ عام كامل فذهبت إليه لقضاء فترة عيد الميلاد. وقد كانت أمي حنوناً، ولكن ساد بيننا التحفظ القديم، كان من ناحيتي خوفاً من سوء الفهم، ومن ناحيتها فقدان الإيمان في مستقبلي كموسيقي وإنكاراً لجدية مساعيّ. وأصبحت الآن تتحدث بحيوية عما سمعته وقرأته عني، لكن ذلك كان إلى حد بعيد لإسعادي أكثر منه نابعاً من قناعتها، لأنها في دخيلتها كانت ترتاب من هذه النجاحات الظاهرية بقدر ريبتها في فني بمجمله. وهذا لا يعني أنها لم تكن تحب موسيقاي، بل إنها في الحقيقة كانت في وقت ما تغني قليلاً، ولكن الموسيقي في رأيها هو إنسان بائس. وكانت أيضاً قد سمعت بعضاً من موسيقاي فلم تفهمها أو تأبه لها.

أما أبي فكان إيمانه أكبر. فبوصفه تاجراً فقد كان يفكر قبل أي شيء آخر في نجاحي المادي، وعلى الرغم من أنه كان دائماً ينفحني مخصَّصاً سخياً بدون تذمر، وواصل دعمه الكامل لي منذ أن تركت الفرقة الموسيقية، وقد فرح عندما رأى أني قد بدأت أكسب نقوداً من مجهودي. وبما أنه كان هو نفسه يكسب مالاً، فإنه اعتبر هذه قاعدة أساسية للوجود المحترم. وعندما وصلت كان مستلقياً على السرير. فقد كان قد سقط في اليوم السابق لوصولي وجرح قدمه.

كان يسيطر عليه مزاج فلسفي قليلاً. واقتربت منه أكثر من المعتاد وأثار اهتمامي بنظرته العملية إلى الحياة. كان في إمكاني أن

أحكي له عن العديد من مشاكلي، وهو ما لم أكن قد فعلته قط في السابق بسبب الحياء. وتذكرت شيئاً كان ميوث قد قاله لي ذات مرة وكررته على مسامع والدي. وكان ميوث قد قال، ولم يكن جاداً حقاً، أنه يظن أن فترة الشباب هي أصعب مرحلة من الحياة وأنه اكتشف أن أغلب العجائز من الناس أكثر صفاء وقناعة من الشبان. فضحك والدي من ذلك وقال وهو مستغرق في التفكير: « من الطبيعي أن نقول نحن معشر العجائز نقيض ذلك، ولكن ثمة بعض الحق فيما قاله صديقك. إنني أعتقد أنه يمكن التفريق بوضوح تام بين الشباب والنضج. فالشباب ينتهي عندما تنتهي النزعة الأنانية، والنضج يبدأ عندما يعيش المرء للآخرين. هذا ما أعنيه. إن متع الشباب كثيرة وأحزانهم كثيرة، لأنهم لا يفكرون إلا في أنفسهم، لذا فكل رغبة وكل نزوة لها أهميتها، وكل متعة تذاق حتى الثمالة، ولكن أيضاً كل حزن، والكثيرون ممن لا يستطيعون تحقيق رغباتهم يعمدون على الفور إلى وضع حد لحياتهم. هذا هو معنى الشباب. ولكن بالنسبة إلى معظم الناس يأتي وقت يتبدل فيه الوضع، وذلك عندما يعيشون أكثر للآخرين، ليس لأي سبب أخلاقي، وإنما بشكل طبيعي تماماً. والعائلة هي السبب بالنسبة إلى معظم الناس. إذ يقل تفكير المرء في ذاته وفي رغباته عندما يكوّن عائلة. وثمة آخرون يفقدون أنانيتهم عندما يحتلون منصباً مسؤولاً، في مجال السياسة، أو الفن أو العلم. الشبان يريدون أن يلعبوا، والناضجون يريدون أن يعملوا. إن الإنسان لا يتزوج فقط لينجب أولاداً، ولكن إذا أنجبهم يغيّرون حياته، وأخيراً يرى أن كل شيء قد حدث فقط لأجلهم. وهذا يرتبط بحقيقة أن الشبان يحبون أن يتحدثوا عن الموت لكنهم لا يفكرون فيه حقاً. والأمر معكوس مع العجائز. الحياة تبدو طويلة في عين الشبان لذا في

إمكانهم أن يركزوا كل رغباتهم وأفكارهم في أنفسهم. والعجائز واعون لاقتراب النهاية، وأن كل ما يملكه الإنسان ويفعله لنفسه غير كاف ويفتقر إلى القيمة. لذا فالإنسان يحتاج إلى الإيمان وإلى شيء آخر يدوم، ولا يعمل فقط لإطعام الديدان. لذا فهناك الزوجة والطفل، والعمل والمسؤولية والأمة وكلها تبرر الكد والجهد اليومي. وصديقك على حق تماماً في هذا المجال، فالإنسان يكون أسعد حالاً عندما يعيش من أجل الآخرين منه عندما يكتفي بالعيش بنفسه فقط، ولكن على العجائز أن لا يجعلوا من ذلك فضيلة عظمى، لأنها ليست كذلك حقاً. على أية حال، إن أشد الشبان حيوية يصبحون أفضل نوع من العجائز، وليس الذين يدّعون اتصافهم بحكمة الأجداد في حين أنهم مازالوا في المدرسة».

لزمت المنزل مدة أسبوع وقضيت وقتاً طويلاً إلى جوار سرير والدي. ولم يكن مريضاً صبوراً، ثم أنه كان يتمتع بصحة ممتازة، فيما عدا الجرح الصغير الذي في قدمه. وقلت له إنني آسف لأني لم أبدِ مزيداً من الثقة بالنفس وأقتربَ منه أكثر في السابق، لكنه قال إن هذا الكلام ينطبق على كلينا، وأن علاقتنا في المستقبل ستكون أفضل مما لو كنا قمنا بمحاولات سابقة لأوانها، والتي نادراً ما تنجح، للتفاهم. وسألني، بتكتم ولطف، عن موقفي من النساء. لم تكن لدي رغبة في الاقتراب من ذكر غرترود، وما قلته في هذا المجال كان موجزاً جداً.

قال والدي وهو يبتسم: «لا تقلق، أنت من النوع الذي يصبح زوجاً صالحاً حقاً، وسرعان ما ستلاحظ النساء الذكيات ذلك. كل ما في الأمر خذ حذرك من النساء الفقيرات اللواتي لعلهن يسعين وراء مالك. وإذا لم تعثر على فتاة أحلامك التي تعتقد أنك تحبها، فليست كارثة، إن الحب بين الشبان والحب الذي يولد بعد سنين عديدة من

الزواج ليسا أمراً واحداً. فعندما يكون المرء شاباً، لا يفكر فقط في نفسه ويهتم بها، ولكن عندما تكون هناك أسرة فثمة أمور أخرى تتطلب السهر عليها. هكذا كان الحال معي، كما تعرف جيداً. لقد كنتُ أهيمُ حباً بأمك، وكان زواج حبٍ حقيقي. لكنه لم يدم أكثر من سنة أو اثنتين، ثم همد الهيام وكاد يموت ولم نعد نعرف نوع العلاقة التي تربطنا معاً. ثم جاء الأطفال، أختاك الكبريان اللتان توفيتا وهما صغيرتان، وكنا قد أنجبناهما لنعتني بهما. وأخذت مطالب كل منا من الآخر تتضاءل باضطراد، وانتهى عهد البرودة السائد بيننا، وفجأة إذا بالحب يعود، ولكن يجب أن تعلم أنه لم يكن نفسه الحب القديم، وإنما شيئاً جديداً تماماً. وظل معنا منذ ذلك الحين بدون كبير حاجة إلى بذل الكثير لإحيائه، أكثر من ثلاثين عاماً. وليس كل الزيجات التي تنشأ عن حب ينتهي هكذا، بل الحق، قليل منها فقط ».

لم يكن لكل هذه الملاحظات أي نفع لي، غير أن العلاقة الحميمة الجديدة التي أقمتها مع والدي شجعتني وأعادت إليّ استمتاعي بجو بيتي، وكنت خلال السنوات القليلة الماضية أشعر باللامبالاة نحوه. وعندما غادرته لم أندم على الزيارة وقررت أني سأبقى أكثر على اتصال بالعجائز من الناس في المستقبل.

منعني العمل والسفر لتقديم أعمالي الموسيقية من زيارة آل إمثور بعض الوقت. وعندما عاودت زيارتهم اكتشفت أن ميوث قد أضحى من الضيوف الأكثر تلقياً لدعواتهم. وكان السيد إمثور لا يزال يعامله ببرود وبقدر من التعالي، أما غرترود فبدا أنها قد أصبحت صديقة حميمة له. وسعدتُ لذلك. ولم أجد مبرراً للغيرة واقتنعت بأنه جدير باثنين متنافرين كميوث وغرترود أن يثير كل منهما اهتمام الآخر به ويجذبه إليه، لكنهما لا يمكن أن يتحابا ويوفر كل منهما السعادة

للآخر. لذا لم ينتبني أي شك عندما اشترك معها في الغناء وامتزج صوتاهما الجميلان. كان منظرهما معاً ممتعاً، كلاهما كان طويل القامة وحسن الشكل، هو، النكد المزاج والجاد، وهي، المشرقة والصافية. غير أنه بدا لي مؤخراً أنها كانت تجد صعوبة في المحافظة على صفائها الفطري القديم، وأخذ يظهر عليها أحياناً التعب وتشتت الذهن. وغالباً ما كانت ترميني بنظرة جادة وحادة، مفعمة بالفضول والاهتمام، على طريقة القلقين من الناس والمهمومين، وعندما أبتسم لها وأجيبها بنظرة ودية، تسترخي قسماتها لترسم ابتسامة ببطء شديد وبتكلّف، فانتابني القلق.

غير أني لم ألاحظ ذلك إلا نادراً، وفي أحيان أخرى كانت غرترود تبدو مرحة ومتألقة كعهدها دائماً، بحيث أني عزوت تلك الملاحظات إلى التوهم أو إلى انحراف عابر في الصحة. مرة واحدة فقط صعقت حقاً. فبينما كان أحد ضيوفها يعزف مقطوعة ما من موسيقى بيتهوفن اتكأت على ظهرها داخل العتمة، معتقدة ربما أن لا أحد يراقبها. وفي وقت سابق، وبينما كانت تستقبل ضيوفها تحت الأضواء الساطعة، بدت مشرقة وتضج بالمرح، أما الآن، وهي منطوية على نفسها ومن الواضح أن الموسيقى لا تؤثر فيها، فإن وجهها مرتاح ويتلبّس تعبير الارهاق، والقلق، والخوف، كوجه طفلة ساخطة. ودام ذلك عدة دقائق. وعندما رأيتُه، ذُهلتُ. ثمة ما يقلقها. هذا بحد ذاته أمر سيء، لكن ما أقلقني أنها تظاهرت بالمرح وأخفت كل شيء عني. حالما سكتت الموسيقى، اقتربتُ منها، وجلست إلى جانبها وباشرت حديثاً اعتيادياً. قلت إنها قد أمضت شتاءً مفعماً بالعمل وإنني أيضاً قضيت وقتاً مرهقاً، لكني كنت أتكلم بنبرة خفيفة وشبه مازحة.

وأخيراً، أتيت على ذكر فترة في فصل الربيع ناقشنا خلالها بدايات أوبراي وعزفناها وغنيناها معاً.

فقالت: « نعم، كانت أوقاتاً سعيدة ». ولم تزد على ذلك، لكنه كان اعترافاً، لأنها أدلت به برصانة شديدة. وجدت فيه أملاً لي وشعرت بالامتنان في قرارتي.

كنت تواقاً إلى تكرار السؤال الذي طرحته عليها خلال فصل الصيف. اعتقدت بكل التواضع المطلوب أني أستطيع أن أغامر وأأوّل التغير الذي طرأ على سلوكها، والارتباك والمخاوف الغامضة التي كانت تظهر عليها، كدلائل مبشرة نصالحي. وقد أثر بي أن أرى كيف بدت كبرياؤها كفتاة مجروحة وكان من الصعب إخفاؤها. ولم أجرؤ على قول أي شيء، وآلمني ارتباكها وشعرت أن عليّ أن أحافظ على وعدي غير المعلن. لطالما كنت أجهل معاملة النساء. لقد ارتكبت الخطأ نفسه الذي ارتكبه هاينريش ميوث، ولكن بالعكس: فأنا كنت أعامل النساء وكأنهن صديقات.

عندما لم يعد في مقدوري أخيراً أن أعتبر ملاحظاتي مجرد أوهام مع أني لم أكد أتوصل إلى فهم التغير الذي طرأ على سلوك غرترود، صرت أتصرف بتحفظ، وقلّت زياراتي لها وتجنبت الخوض في أحاديث حميمة معها. لقد أردت أن أبدي لها مراعاتي وأن لا أفاقم من حيائها وخوفها وأنا أراها تعاني وهي في حالة صراع. وأعتقد أنها لاحظت التبدل الذي طرأ في سلوكي ولم تزعجها معاملتي الفاترة لها. وراودني أمل في أن نستعيد عهد السكينة، والهدوء، بعد انتهاء فصل الشتاء، وحركة الضيافة النشيطة، وأردت أن أنتظر حتى ذلك الحين. لكني كنت غالباً ما أشعر ببالغ الأسى لأجلها، وأخذت بدوري أشعر بالتدريج بالقلق وأعتقد أنه لا بد أن هناك أمراً خطيراً وشيك الوقوع.

كان ينتابني الاضطراب تحت ضغط الظروف. وحل شهر شباط وبدأت أشتاق إلى فصل الربيع. ولم يكن ميوث يزورني كثيراً. وفي الحقيقة كان قد أمضى شتاءً مضنياً في دار الأوبرا وقد تلقى مؤخراً عرضين هامين من مسارح شهيرة، وكان عليه أن يتخذ قراره بشأنهما. ولم يبد أن له صديقة أخرى، على الأقل، لم أر أي سيدة أخرى في منزله منذ انفصاله عن لوتي. وكنا قد احتفلنا بعيد ميلاده مؤخراً. ومنذ ذلك الحين لم أره.

بدأت أشعر بحاجة ملحة إلى مقابلته. وكنت قد بدأت اشعر بوطأة التوتر الناتج عن علاقتي التي تغيرت بغرترود، وضغط العمل، وفصل الشتاء الطويل، وقد قمت بزيارته لأتسامر معه. فقدم لي كأساً من الشيري وحدثني عن المسرح. بدا تعباً وشارد الذهن، ولطيفاً فوق العادة. أصغيت إليه، وجلت ببصري في أنحاء الغرفة وهممت بسؤاله إن كان قد عاود زيارته لآل إمثور، حين شاهدت بالصدفة مغلفاً عليه كتابة بخط يد غرترود موضوعاً على الطاولة. وقبل أن أستوعب ما أرى، انتابني شعور بالرعب وبالمرارة. لعلها دعوة، مجرد إجراء شكلي، إلا أني لم استطع أن اصدق ذلك بأي حال.

استطعت أن أتمالك نفسي وغادرت بعدها مباشرة. وأدركت على كره مني، أني عرفت فحوى الأمر كله. كان يمكن أن تكون دعوة، أو أمراً تافهاً، أو شيئاً عرضياً محضاً - إلا أني عرفت أنه ليس كذلك. لقد فهمت فجأة وبوضوح كل ما حدث مؤخراً. عرفت أني قد عمدت إلى الانتظار لكي أتأكد، لكن كل أفكاري المتعلقة بهذا الأمر كانت مجرد ذرائع وأعذار. لقد انغرز السهم عميقاً وتقيَّح في دمي. وبعد أن وصلت إلى بيتي وجلست في غرفتي، أخذ اضطرابي يزول ليحل محله

شعورا شبه بالسكينة الفظيعة، انتشر في كل كياني في آخر المطاف، وأدركت أن حياتي قد تهشمت وأن الإيمان والأمل قد تحطما.

بقيت طوال أيام عديدة عاجزاً عن ذرف دمعة واحدة أو الإحساس بأي حزن. وكنت قد قررت، بدون تفكير، أن أتخلى عن الحياة. وعلى أية حال، كانت إرادة الحياة قد هجرتني وكأنها اختفت. ورحت أفكر في الموت وكأنه عمل يجب إنجازه بلا تردد، وبدون التفكير إن كان عملاً ممتعاً أم لا.

من بين الأمور التي رغبت في إنجازها قبل ذلك أن أقوم قبل أي شيء بزيارة غرترود. إلى حد ما من أجل المحافظة على النظام ـ لكي أحصل على الإثبات الضروري لشكوكي. وكان في إمكاني أن أحصل على ذلك من ميوث، ولكن على الرغم من أنه بدا ملوماً بمقدار اقل من غرترود، إلا أني لم استطع أن أقنع نفسي باللجوء إليه. وذهبت لمقابلة غرترود لكني لم أجدها هناك. وعدت من جديد في اليوم التالي وتحدثت معها ومع والدها بضع دقائق ثم تركنا هذا الأخير معاً وحدنا، معتقداً أننا نرغب في التدرب على عزف بعض المقطوعات الموسيقية.

عندئذ وقفت وحدها أمامي ورحت أنظر إليها بفضول. بدا عليها قليل من التغيير لكن جمالها لم ينقص قيد أنملة.

قلت بحزم: « سامحيني يا غرترود إن كنت قد عدت إلى إزعاجك. كنت قد بعثت إليك رسالة خلال فصل الصيف ـ فهل لي أن أحصل على جواب لها؟ أمامي رحلة أقوم بها، وقد تطول، وإلا لانتظرت إلى أن تبادري.. ».

تبدت الدهشة على وجهها وهي تنظر إليّ وعلاه الشحوب، فقدمتُ لها يد العون وتكلمت من جديد: « هل أفهم أن جوابك هو "لا"؟ هذا ما حسبته. أردت فقط أن أتأكد ».

هزت رأسها إيجاباً وبحزن.

سألتها: « أهو هاينريش؟ ».

هزت رأسها مرة أخرى إيجاباً، وفجأة بدت خائفة وشدت على يدي.

« سامحني أرجوك ولا تؤذه ».

« ليس في نيتي، اطمئني ». قلت هذا وكان لا بد أن أبتسم، فقد تذكرت ماريان ولوتي، اللتين كانتا بدورهما متعلقتين بشدة به وكان قد ضربهما. لعله أيضاً سيضرب غرترود ويدمر كبرياءها المترفعة وثقتها الفطرية في الآخرين.

مرة أخرى بادرت بالكلام: « أعيدي التفكير يا غرترود! ليس من أجلي. إنني الآن أعرف موقعي. لكن ميوث لن يوفر لك السعادة. وداعاً، يا غرترود ».

تواصل إحساسي بالخدر والهدوء غير العادي. الآن فقط، وبعد أن كلمتني غرترود بهذه الطريقة بنبرة الصوت نفسها التي أذكر أن لوتي كانت تستخدمها، ونظرت إليّ بقلق شديد وقالت: « لا تقل هذا. أنا لا أستحق منك ذلك! »، عندئذ شعرت وكأن قلبي قد انفطر وكدت أعجز عن التحكم في نفسي.

مددت يدي لها وقلت: « لا أرغب في إيذائك أو إيذاء هاينريش ولكن انتظري قليلاً. لا تدعيه يمارس سلطته عليك. إنه يدمر كل من يولع به ».

هزت رأسها وحررتْ يدي.

قالت بهدوء: « الوداع! إنها ليست غلطتي. لا تسيء الظن بي أو بهاينريش ».

انتهى الأمر. عدت إلى المنزل وواصلت تنفيذ خطتي وكأنها عمل يجب إنجازه. صحيح أن قلبي أثناء ذلك كان مثقلاً ومترعاً حتى الزبى بالحزن، لكن وعيي بذلك كان واهياً ولم أعد أفكر فيه. كان سيان بالنسبة إليّ إن مرت الأيام والساعات المتبقية مروراً حسناً أم لا. ورحت أرتب كومة الأوراق المدوّن عليها أوبراي شبه المنتهية، وكتبت رسالة موجهة إلى تايزر أطلب منه فيها أن يكملها حفاظاً، إذا أمكن، على عملي. وبعد ذلك رحت أفكر بكل جدية في طريقة موتي. وتمنيت أن أجنّب والديّ الحزن، لكني لم أعثر على سبيل إلى تحقيق ذلك. لم يكن هذا بالأمر الهام، على المدى الطويل. وأخيراً قررت أن استخدم مسدساً. كل هذه المسائل تبدت لي فقط بصورة غامضة ووهمية. فكرة واحدة فقط كانت ثابتة في ذهني وهي أنه لم يعد في إمكاني أن أواصل الحياة. فخلف صلابة قراري كنت قد لمحت قبساً من رعب الحياة التي يمكن أن تواجهني. إنها تحدق إليّ بنظرة شنيعة من خلال عينين خاويتين وبدت أشد بشاعة وبثاً للرعب من فكرة الموت القاتمة والكئيبة.

بعد ذلك بيومين، بعد الظهر، كنت مستعداً بالإجراءات التي أعددتها. وكنت ما أزال أرغب في القيام بجولة في أنحاء البلدة. كان عليّ أن أعيد كتابين إلى المكتبة العامة. وكان مصدر راحة لي أن أعلم أني لن أكون على قيد الحياة بحلول المساء. وشعرت كأني إنسان تعرض لحادثة، وما يزال واقعاً جزئياً تحت تأثير المخدر ولا يشعر بالألم، وإنما يشتبه في تعرضه للتعذيب الجسدي. وأمله الوحيد هو في أن يغوص في غياهب النسيان التام قبل أن يصبح الألم المشتبه في وجوده حقيقة واقعة. هكذا كان شعوري. ولم يكن منشأ معاناتي هو الألم الفعلي بقدر ما كان خوف موجع من احتمال عودتي إلى الوعي واضطراري إلى جرع الكأس حتى الثمالة قبل أن يأخذها الموت، الذي

ينـاديني، مني. ولهذا أسرعت في خطاي، لأؤدي مـا هـو ضروري ومـن ثـم عدت مباشرة. وقمت فقط بالتفاتـة قصيرة تفاديـاً للمـرور مـن أمـام منزل غرترود فقد شعرت، بدون أن أستطيع أن أحلل الأمر، أنـي إذا رأيت المنزل، فسوف يغمرنـي الألم الممض الذي كنـت أسعى للهروب منه، ويهلكني.

وهكـذا، زفـرت تنهيـدة ارتيـاح وعـدت أدراجـي إلى المنزل الـذي أقطن فيـه، فتحـت البوابـة وصعـدت لتـوي إلى الطـابق العلـوي، وأنـا أشعر بطفر في القلـب. بحيـث إذا كـان مـا يـزال الحـزن يلاحقـني ويمـد مخالبه نحوي، أو كـان الألم الممض قد بدأ في ركن مـا في داخلـي ينهش مـن جديـد، فليـس يفصلـني عـن التحـرر غير بضـع درجـات مـن السلم وبضع ثوان.

كـان رجـل بـزي رسمـي يهبـط الـدرج نحـوي، فـأزحت جانبـاً واستعجلت مروره، خشية أن يعيقني أي شيء. فإذا به يلمس قلنسوته وينطـق اسمـي. فنظـرت إليـه وقـد تولانـي الرعـب. لقـد ملأنـي إعـلان اسمـي واسـتيقافي خوفـاً، وأشـاع الرعشـة في جسـدي. وفجـأة، غلبـني إحسـاس بالإرهـاق. أحسسـت أنـي أوشك أن اقـع علـى الأرض. وأفقـد الأمل في قطع الخطوات القليلة الضرورية للوصول إلى غرفتي.

في تلك الأثناء، كنت أحدق بكرب إلى الرجل الغريب. ولما تفـاقم إحساسـي بـالوهن، جلسـت علـى إحـدى الدرجـات. فسـألني إن كنـت مريضـاً فهـززت رأسـي نفيـاً. كـان يحمـل شيئـاً في يده أراد أن يعطنيـه فرفضت أخذه، إلى أن أقحمـه تقريبـاً في يـدي. فقمـت بحركـة رفـض وقلـت: « لا أريده ».

نـادى على صاحبة الدار لكنها لم تكن موجودة. عندئذ أمسكني مـن ذراعي يبغي أن يعينني علـى النهـوض. ولمـا أدركـت أن لا مهرب لي وأنـه

لن يدعني وشأني، قمت فجأة بلملمة نفسي، ونهضت واقفاً ثم سرتُ باتجاه غرفتي، وهو في إثري. ولما شعرت أنه ينظر إليّ بارتياب، مددت ساقي المعاقة وتظاهرت بأنها تؤلمني، فصدقني. ثم أخرجت محفظتي ونفحته قطعة نقدية. شكرني وأخيراً دفع بالغرض الذي رفضت تسلمه إلى يدي. كان برقية.

وقفت أفكر عند الطاولة، وقد تولاني الضجر. ها قد أعاقني أحدهم وكسر السحر. ما هذه؟ إنها برقية. لمن؟ لا يهمني. من المزعج أن أتلقى برقية الآن بالذات. لقد قمت بكل الاستعدادات وفي اللحظة الأخيرة ها هو أحدهم يرسل لي برقية. نظرت فيما حولي. وجدت رسالة موضوعة على الطاولة.

وضعت الرسالة في جيبي، لأنها لم تغرني بقراءتها. لكن البرقية أسرتني. لم استطع أن أبعدها عن تفكيري فقد كانت تشوشني. فجلست ورحت أنظر إليها وهي موضوعة على الطاولة وأتساءل هل أقرأها أم لا. إنها، بلا ريب، بمثابة هجوم شُن على حريتي، وليس لدي أدنى شك في هذا. ثمة من يريد أن يعمل على منعي، أن يضنّ عليّ بانعتاقي، يريدني أن أقبل حزني وأجرعه حتى الثمالة لكي لا تفوتني أي وخزة، أو طعنة أو نوبة ألم.

لماذا سبَّبت لي البرقية كل هذا القلق، لا أدري. وبقيت جالساً عند الطاولة فترة طويلة لا أجرؤ على فتحها، شاعراً أنها تنطوي على قوة خفية سوف تجرني إلى الوراء وتجبرني على تحمل ما لا يطاق والذي أريد أن أهرب منه. وعندما فتحتها في آخر الأمر، كانت يدي ترتعش. ولم أتمكن من فهم فحوى البرقية إلا ببطء وكأني أترجم محتوياتها عن لغة أجنبية غير مألوفة. وكانت تقول: « والدك يحتضر. أرجوك إحضر فوراً. والدتك ».

فهمت بالتدريج ما تعني. بالأمس فقط كنت أفكر في والديّ وأسفت لأني سأسبب لهما الألم، ومع ذلك كان ذاك مجرد فكرة سطحية. وها هما الآن يخلقان العراقيل، ويجراني بعيداً ويعلنان مطالبهما. وعلى الفور تذكرت الأحاديث التي تبادلتها مع والدي خلال فترة عيد الميلاد. لقد قال إن الشبان بما يتصفون من أنانية وشعور بالاستقلال، يمكن أن يصلوا إلى شفا إنهاء حياتهم بسبب رغبة لم تتحقق، ولكن عندما ترتبط حياة المرء بحياة الآخرين، لا يعود يفكر في رغباته بالقدر نفسه. أنا أيضاً كنت موثقاً بمثل ذلك الرباط! إن والدي يحتضر. ووالدتي وحدها معه، وهي تناديني. وفي تلك اللحظة لم يؤثر بي بعمق التفكير في احتضاره وفي حاجتها إليّ. حسبت أني مررت بآلام أفدح بكثير، لكني أدركت إدراكاً تاماً أنه لا يمكنني الآن أن ألقي على كاهليهما عبئاً زائداً، وأتجاهل طلب أمي وأهرب منهما.

في المساء كنت واقفاً في محطة القطار مستعداً للانطلاق في رحلتي، وقمت آلياً ولكن عن وعي بما هو ضروري. حصلت على بطاقتي، ووضعت الفكة في جيبي، ومضيت إلى الرصيف وولجت القطار. جلست في زاوية من إحدى المقصورات، واستعديت للبدء برحلة ليلية طويلة. دخل شاب المقصورة، نظر فيما حوله، وحياني ثم جلس قبالتي. سألني عن شيء ما، لكني اكتفيت بالنظر إليه، متمنياً فقط أن يدعني وشأني. وسعل ثم نهض واقفاً، التقط حقيبة سفره الجلدية الصفراء، وبحث له عن مقعد آخر.

انطلق القطار يشق الليل بسرعة متهورة، لا معنى لها، وكأنه سيتأخر عن موعده، أو سينقذ أحداً. وبعد مرور بضع ساعات وعندما دسست يدي في جيبي، أحسست بوجود الرسالة. قلت في نفسي، إنها ما زالت هناك، ففتحتها.

كانت من ناشري وهو يكلمني عن حفلات موسيقية وأجور، ويبلغني أن أموري تسير من حسن إلى أحسن. وكان أحد النقاد المشهورين قد كتب عني وهو يهنئني على ذلك. وكان مرفقاً بالرسالة قصاصة من صحيفة، هي مقالة معنونة باسمي، وحديث طويل حول وضع الموسيقى المعاصرة، وعن فاغنر وبرامز، ثم كان هناك نقد لمؤلفاتي الموسيقية وأغانيّ، مع تقريظ ضاف وتمنيات طيبة. وبينما كنت أقرأ الأحرف السوداء الصغيرة، أخذت أدرك بالتدريج أن الكلام هو عني، وأن العالم والشهرة يمدان أيديهما إليّ. وكان لا بد لي أن أضحك قليلاً.

أزالت الرسالة والمقالة العصابة التي كانت تعمي عينيّ، وفجأة عدت بتفكيري إلى العالم فاكتشفت أني لم أُهزم أو أنتهي، وإنما موجود في قلبه وأنتمي إليه. وكان لا بد لي أيضاً أن أواصل الحياة قدر استطاعتي. أممكن هذا؟ ثم استعدت ذكرى كل ما مر معي خلال الأيام الخمسة الأخيرة، وكل المشاعر التي انتابتني وكأني في حالة خَدَر، وتمنيت أن أهرب منها ـ فكلها فظيعة، مريرة، ومهينة. كانت كلها تمثل حكماً بالموت. لم أنفذه، ويجب أن أترك مهمتي معلّقة.

سمعت القطار يندفع مقرقعاً. فتحت النافذة، ورأيت أثناء انطلاقنا السريع مساحات الريف الكئيبة، وأشجاراً جرداء منظرها يقبض الصدر، أغصانها سوداء اللون، ومنازل ريفية كبيرة وتلالاً نائية. كلها بدت غير راغبة في الحياة، وتريد أن تعبِّر عن الأسى وعن الاستياء. قد يرى البعض أن كل هذا جميل، أما لعيني فلم يبد إلا حزيناً. وتذكرت الأغنية التي تقول: « أهذه إرادة الله؟ ».

حاولت جاهداً أن أنظر إلى الأشجار والحقول والأسقف في الخارج . حاولت بكل جدية أن أركز أفكاري على مواضيع نائية وعلى

كل ما أستطيع أن أفكر فيه بلا أسى، ولكن عبثاً. بل إني عجزت حتى عن التفكير في والدي، لقد أصبح نائياً مثل الأشجار والريف المسربل بالليل، لكن أفكاري ارتدّت، رغماً عني وعن محاولاتي، إلى أمور محرَّمة. رأيت حديقة تحتوي أشجاراً عتيقة، ويوجد بينها منزل على مدخله اشجار نخيل، وفي الداخل كانت الجدران كلها مغطاة بلوحات قديمة، قاتمة. ولجتُ المكان ورحت أرتقي الدرج ماراً بكل الصور القديمة ولم يرني أحد. مشيت في المكان وكأني شبح. ثم كانت سيدة نحيلة القوام سوداء الشعر تدير ظهرها لي. ورايته هو أيضاً، وتعانقا. رايت صديقي هاينريش ميوث يبتسم ابتسامة حزينة، كئيبة، كعادته أحياناً، وكأنه يعرف مسبقاً أنه سوف يؤذي أيضاً هذه السيدة الجميلة ويسيء معاملتها، ولا حيلة له في ذلك. إن من الحماقة والعبث أن ينجح هذا الرجل التعيس، الفاسد، في جذب أشد النساء فتنة، وأن يفشل كل حبي ونواياي الطيبة في تحقيق ذلك.

عندما أفقت من نومي أو إغفائي، رأيت الصباح الرمادي ونور السماء الباهت من خلال النافذة. مطّيتُ أطرافي المتيبسة وكنت أشعر بالحزن وبالرصانة، وبدا طريقي مكفهراً ومضطرباً.

كان الجو ما يزال رمادياً والصباح ما يزال باكراً عندما اقتربنا من جسور ومنازل مدينة مسقط رأسي. وشعرت وسط الرائحة والضجيج المنبعثين من محطة القطار بإرهاق شديد وسخط حتى أني كرهت مغادرة القطار. إلا أني حملت أمتعتي واستقليت أقرب عربة للأجرة، فسارت أولاً فوق إسفلت ممهَّد، ثم على أرض مكسوة قليلاً بالصقيع، ثم راحت تسحق درباً وعراً حتى توقفت أمام بوابة بيتنا الكبيرة، التي لم أرها قط مغلقة.

أما الآن فكانت مغلقة. وعندما شددت الجرس، وقد مسّني الرعب والخوف، لم يأت أحد ولم اسمع جواباً. رفعت بصري إلى أعلى المنزل وشعرت كأني أرى حلماً مزعجاً عنيفاً. كان السائق ينظر إليّ مندهشاً وينتظر. انتقلت وأنا اشعر بالبؤس إلى الباب المجاور الذي كان نادراً ما يُستعمل ولم أكن قد لجأت إليه منذ سنين عديدة. كان مفتوحاً. وعندما دخلت وجدت هيئة مكتب والدي مجتمعة هناك يرتدي أعضاؤها كعادتهم المعاطف الرمادية، ويخيم عليهم الهدوء والصمت. ولدى دخولي نهضوا وقوفاً لأني كنت وريث والدي. انحنى كليم، كاتب الحسابات، الذي لم يبدُ عليه أي اختلاف منذ عشرين سنة خلت، انحناءة قصيرة، ووجَّه إليّ نظرة مستفهمة وقد ارتسم على وجهه تعبير حزين.

سألت: « لماذا الباب الخارجي مقفل؟ ».

« لأنه لا أحد في المنزل ».

« وأين والدي؟ ».

« في المستشفى. وأمك أيضاً موجودة هناك ».

« أما زال حياً؟ ».

« كان حياً حتى هذا الصباح، لكنهم يعتقدون.. ».

« أخبرني بما حدث ».

« أه، طبعاً، أنت لا تعلم! إن قدمه ما زالت تؤلمه. جميعنا متفقون على أنه حصل على معالجة خاطئة. وفجأة أصيب بآلام حادة وأخذ يطلق صراخاً رهيباً. ثم نقل إلى المستشفى. والآن هو يعاني من تسمم الدم. وبالأمس، في الساعة الثانية والنصف بعثنا إليك ببرقية ».

« فهمت. شكراً لك. من فضلك أأمر بإحضار شطيرة وكأس من النبيذ لي بسرعة ثم استدع عربة أجرة ».

نُقلت رغباتي همساً إلى أحدهم ومن ثم عاد الصمت فخيم. وقَدَّم لي أحدهم صحناً وكأساً. أكلت الشطيرة، وشربت كأس النبيذ، ثم خرجت واستقليت عربة الأجرة، وشخر الحصان وسرعان ما بتنا واقفين عند بوابة المستشفى. كانت ممرضات يعتمرن قلنسوات بيضاء، وخدم يرتدون بزات من الكتان المخطط بالأزرق يمرون من الأروقة. قادني أحدهم من يدي إلى إحدى الغرف. نظرت فيما حولي فرأيت أمي تومئ إليّ والدموع تملأ عينيها، وكان والدي مستلقياً على سرير واطئ، حديدي، وقد تغير شكله وتقلص، وبرزت لحيته القصيرة الشائبة بشكل غريب.

كان ما يزال حياً. فتح عينيه وتعرّف إليّ على الرغم من إصابته بالحمى.

سألني بهدوء: « أما تزال تؤلف موسيقى؟ »، وكان صوته ونظرته رقيقين بقدر ما كانا ساخرين. وغمزني غمزة تعبر عن حكمة تعبة، وساخرة، ليس لديها ما هو أكثر لتنقله إليّ، وشعرت أني أنظر إلى أعماق قلبي فرأيت وعرفت كل شيء.

قلت: « أبي »، لكنه اكتفى بالابتسام، ونظر إليّ مرة أخرى نظرة شبه ساخرة، وإن كانت قد أضحت لتوها شاردة، وعاد فأغمض عينيه.

قالت أمي وهي تحيطني بذراعها: « يبدو شكلك فظيعاً! هل صُدمت للخبر؟ ».

لم يكن عندي ما أقول. وعندئذ دخل طبيب شاب، يتبعه آخر أكبر سناً. أُعطي المحتضر مورفين، والعينان اللتان كانتا قبل هنيهة

مفعمتين بالفهم وا لمعرفة الكلية لم تفتحا مرة ثانية وجلسنا بجانبه ورحنا نراقبه وهو مستلق هناك، راينا وجهه يتغير ثم تسوده السكينة، وأخذنا ننتظر حلول النهاية. ظل حياً عدة ساعات وتوفي في وقت متأخر من بعد الظهر. ولم أشعر إلا بحزن فاتر وبإرهاق بالغ. كنت جالساً وعيناي مشحونتين بالدموع وقرابة المساء استغرقت في النوم وأنا جالس بجانب فراش الاحتضار.

6

طالما أدركت بمرارة أن الحياة شاقة. وقد توفر لدي سبب آخر للتأمل الرصين. وحتى الوقت الحاضر لم أكن قد فقدت قط الشعور بالتناقض الذي يكمن خلف كل معرفة. لقد كانت حياتي بائسة وصعبة، إلا أنها كانت بالنسبة إلى الآخرين وأحياناً بالنسبة إليّ، تبدو غنية ورائعة. كانت حياة الإنسان تبدو لي أشبه بليل طويل، مضجر، تكون غير محتملة إذا لم تلمع في سمائها بين حين وآخر ومضات من النور، يشيع سطوعها المفاجئ راحة غامرة ورائعة، بحيث أن لحظات ظهورها تلغي سنوات الظلام وتبررها.

إن الكآبة، والظلام المقبض، يكمنان في المسار المحتوم لحياتنا اليومية. لماذا يستيقظ واحدنا باستمرار في الصباح، يأكل، ويشرب ومن ثم يأوي من جديد إلى السرير؟ إن الطفل، والهمجي والشاب الصحيح الجسم لا يعاني جراء هذه الدورة من النشاطات المتكررة. إذا كان الإنسان لا يعاني من التفكير، فإنه يبتهج لدى استيقاظه في الصباح، وعند تناوله الطعام والشراب. يجد الرضا في ذلك ولا يرغب في

تغييره. ولكن إذا كف عن قبول الأشياء على علاتها، فإنه يأخذ بالبحث بلهفة وأمل على امتداد النهار عن لحظات من الحياة الحقيقية، يستمد من إشعاعها البهجة ويمحو الوعي بالزمن وكل الأفكار التي تدور حول معنى هدف كل شيء. يمكن أن نصف هذه اللحظات بالخلاقة، لأنه يبدو كأنها تمنح شعوراً بالاتحاد بالخالق، وطوال دوامها يعي المرء أن كل شيء ضروري، حتى ما يبدو ظاهرياً أنه تصادفيّ. إنه ما يسميه الصوفيون الاتحاد في الله. ولعل الإشعاع المكثف لهذه اللحظات هو الذي يجعل كل شيء آخر يبدو شديد القتامة، لعل الشعور بالانعتاق، بالخفة الساحرة والسعادة المعلّقة هو الذي يجعل بقية الحياة تبدو فائقة الصعوبة وكثيرة المطالب وثقيلة الوطأة. لا أدري. فأنا لم أتعمق كثيراً في الفكر والفلسفة.

غير أني أعرف أنه إذا كانت هناك حالة من السعادة والنعيم، فلا بد أنها سلسلة متواصلة من مثل تلك اللحظات، وإذا كان في الإمكان بلوغ هذه الحالة من السعادة من خلال المعاناة والإقامة في الألم، عندئذ لا يعود هناك حزن أو ألم هو من الفداحة بحيث يحاول المرء أن يهرب منه.

بعد مرور بضعة ايام على جنازة والدي - وكنت ما أزال في حالة من البلبلة والإرهاق العقلي - وجدتني ذات يوم أسير على غير هدى في أحد شوارع الضاحية. وأيقظ مرأى المنازل الصغيرة، الجميلة، ذكريات غامضة داخلي، وبقيت أستعيدها إلى أن تعرفت إلى منزل وحديقة أستاذي العجوز الذي حاول أن يهديني إلى عقيدة الثيوصوفيين قبل بضع سنوات. قرعت الباب فظهر، وتعرف إليّ، وقادني بكل ود إلى غرفته، حيث كان عبق دخان التبغ الممتع يخيم على كتبه ونباتاته.

سالني الدكتور لوهه: « كيف حالك؟ آه، طبعاً، لقد فقدت لتوك والدك. تبدو مفجوعاً. هل ترك الأمر أثراً عميقاً فيك؟ ».

قلت: « لا، كان يمكن لوفاة والدي أن يكون لها أثر أعمق لو أنني كنت ما أزال على علاقة حسنة به، لكني خلال زيارتي الأخيرة له ازددت قرباً منه، وتخلصت من الشعور المؤلم بالذنب الذي يحمله المرء نحو والديه الطيبين اللذين تلقّى منهما من الحب أكثر مما في إمكانه أن يعطيه ».

« يسعدني سماع هذا ».

« كيف تسير أمورك مع مذهب الثيوصوفية؟ أحب أن تحدثني، لأني حزين ».

« ما الخطب؟ ».

« كل شيء. إنني عاجز عن الحياة وعاجز عن الموت. كل شيء يبدو لي بلا معنى وأحمق ».

غضّ السيد لوهه وجهه اللطيف، الهادئ التقاسيم. ويجب أن أعترف أنه حتى وجهه اللطيف، الأقرب إلى الامتلاء قد أزعجني، ولم أتوقع أن أحصل منه ومن حكمته على أي قدر من العزاء. أردت فقط أن أسمعه يتكلم، لكي أبرهن على عقم حكمته ولكي أزعجه بسبب سعادته ومعتقداته المتفائلة، لقد كنت أشعر بالنفور منه ومن كل إنسان آخر.

ولكن الرجل لم يكن راضياً عن نفسه ومنغمساً في معتقداته كما ظننت. لقد نظر إليّ بعين الاهتمام الحقيقي، وهز بحزن رأسه الوسيم.

قال بحزم: « أنت مريض، يا صديقي العزيز. لعل المرض جسدي فقط، وإذا كان الأمر كذلك فعلاجك في المتناول. يمكنك أن تلجأ إلى الريف وتنغمس في العمل الشاق وتمتنع عن تناول كل أنواع اللحوم. لكني لا أعتقد أن الأمر كذلك. إن مرضك فكري ».

« أتظن ؟ ».

« نعم. أنت تعاني من مرض شائع لسوء الحظ، وهو ينتشر في كل يوم بين الناس الحساسين. وله علاقة بالجنون الأخلاقي ويسمى أيضاً بالفردانية أو العزلة الوهمية. إن الكتب الحديثة ملأى بالكلام عنه. وقد تسلل إلى خيالك، أنت معزول، تعتقد أنه لا أحد يأبه لك ولا أحد يفهمك. صح؟ ».

اعترفت وأنا مندهش: « تقريباً ».

« إسمع. إن الذين يعانون من هذا المرض يكفيهم أن يصابوا بعدد قليل من خيبات الأمل حتى يعتقدوا أن لا صلة تربطهم وبقية البشر، وأنه تسيطر على الناس جميعاً حالة من العزلة، وأنهم في الحقيقة لا يفهم بعضهم بعضاً، ولا يتقاسمون أي شيء ولا يجمع بينهم أي قاسم مشترك. وقد اتضح أيضاً أن الذين يعانون من هذا المرض يصبحون عدائيين ويعتبرون كل باقي الأصحاء من الناس القادرين على تبادل الفهم والحب قطعاناً من الغنم. ولو أن هذا المرض يعم، لاندثر الجنس البشري كله، لكنه لا يوجد إلا بين أفراد الطبقة العليا في وسط أوروبا. ويمكن البراء منه عند الشبان، وهو يشكل، بحق، جزءً من فترة محتومة من التطور».

أزعجتني قليلاً نبرة الأستاذية الساخرة التي تبدت في صوته. ولما رأى أنني لا أبتسم أو يبدو عليّ أني أهمُّ بالدفاع عن نفسي، عاد التعبير اللطيف، المهتم، إلى وجهه.

قال برقة: « سامحني، إنك تعاني من المرض نفسه، وليس من الصورة الشائعة عنه. ولكن هناك بالفعل علاجاً له. ومن الوهم المحض أن نقول إنه لا جسور اتصال بين البشر، وإن كل إنسان هو وحيد. ولا أحد يفهمه. على العكس، فالقاسم المشترك بين الناس، هو أكثر بكثير

وأعظم أهمية مما يتصف به كل شخص بحد ذاته ويجعله مختلفاً عن الآخرين ».

قلت: « هذا ممكن، ولكن ماذا يفيدني أن أعرف كل هذا؟ أنا لست فيلسوفاً وتعاستي لا يعود سببها إلى أني لا أعثر على الحقيقة. إني فقط أريد أن أعيش بيسر ورضا أكثر قليلاً ».

« حسن، حاول إذن! لا حاجة لك أن تدرس أي كتب أو نظريات. ولكن طالما أنت مريض، عليك أن تؤمن بطبيب. هل ستفعل؟ ».

« سأحاول ».

« عظيم! إذا كان مرضك جسدياً ونصحك الطبيب بأخذ حمامات أو شرب دواء أو أن تذهب إلى شاطئ البحر، فقد لا تفهم كيف يمكن لهذا العلاج أو ذاك أن يساعدك، ولكن عليك أن تجرّبه، وتنفِّذ الإرشادات. والآن إفعل الشيء نفسه بنصيحتي. تعلّم أن تفكر في الآخرين أكثر مما تفكر في نفسك فترة من الوقت. إنها الطريقة الوحيدة الجديرة بتحسين حالتك ».

« كيف لي أن أفعل ذلك؟ إن كل إنسان يفكر أولاً في نفسه ».

« عليك أن تتغلب على هذه الفكرة. يجب أن تنمّي نوعاً من اللامبالاة بمصلحتك الخاصة. تعلم أن تقول: ماذا في وسعي أن أفعل؟ ثمة فقط وسيلة واحدة. عليك أن تتعلم أن تحب أحداً حباً جماً، بحيث تغدو مصلحته ـ أو مصلحتها ـ أكثر أهمية من مصلحتك الشخصية. أنا لا أعني أن عليك أن تنخرط في علاقة حب! فإن ذلك سوف يعطي نتيجة معاكسة! ».

« فهمت، ولكن مع من سأقوم بالمحاولة؟ ».

« إبدأ بإنسان قريب منك، صديق أو ذو قرابة. هناك أمك. لقد مُنيتْ بخسارة فادحة، هي الآن وحيدة وتحتاج إلى من يواسيها. اعتن بها وحاول أن تكون ذا عون لها».

« أمي وأنا غير متفاهمين كثيراً. سيكون الأمر صعباً ».

« سيكون الأمر صعباً فعلاً إذا غابت نواياك الطيبة. إنها القصة القديمة عن أن لا أحد يفهمك! أنت لست دائماً تريد أن تعتقد أن هذا الشخص أو ذاك لا يفهمك الفهم التام. ولا ينصفك تماماً. حاول بنفسك أن تفهم الآخرين، حاول أن تسعدهم وأن تنصفهم! إفعل هذا وابدأ بأمك! إسمع، عليك أن تقول لنفسك: إن الحياة في كل الأحوال لا تمنحني الكثير من السرور، فلم لا أحاول أنا أن أفعل ذلك! لقد فقدت اهتمامك بحياتك فكفاك تفكيراً فيها. تولّ مهمة ما، إزعج نفسك قليلاً ».

« سأحاول. أنت على حق. سيان عندي مهما فعلت. لِمَ لا أفعل ما تنصحني به ».

إن ما لفت نظري في ملاحظاته تشابهها مع وجهات نظر والدي عن الحياة التي شرحها لي خلال لقائنا الأخير: عش للآخرين! لا تفرط في أخذ نفسك بجدية! ووجهة النظر هذه كانت تتناقض تماماً ومشاعري. ثم إنها تفوح بنكهة تعليمية وتعاليم التثبيت التي، مثل كل شاب تام الصحة، أكن لها البغض والكراهية. غير أن المسالة لم تكن في الحقيقة مسالة آراء وفلسفة حياة وإنما محاولة عملية لجعل حياتي التعيسة محتملة. وقبلت القيام بالمحاولة.

نظرت بدهشة إلى هذا الرجل الذي لم آخذه قط على محمل الجد، وها أنذا الآن أسمح له بلعب دور ناصحي وطبيبي. لكنه في الحقيقة كان يمارس عليّ بعضاً من الحب الذي أوصاني به. بدا أنه

يشاركني معاناتي وتمنّى لي الخير بصدق. وعلى أية حال، لقد شعرت أن عليّ أن أتخذ الإجراء القاسي بمواصلة الحياة والتنفس كغيري من البشر. وفكرت في قضاء فترة عزلة طويلة بين الجبال أو في تكريس نفسي كلياً للعمل الشاق، لكني بدل كل ذلك أطعت ناصحي الودود بما أني كنت قد فقدت إيماني بتجربتي وحكمتي.

عندما أخبرت أمي أني لا أنوي أن أتركها وحدها، وأني آمل في أن تلجأ إليّ وتشاركني حياتها، هزت رأسها بحزن.

اعترضتْ قائلة: « ما هذا الذي تفكر فيه. لن يكون الأمر سهلاً. إن لي طريقتي الخاصة في الحياة ولا استطيع ابداً أن ابدأ من جديد. وعلى أية حال، فيجب أن تكون حراً، وأن لا أكون عبئاً عليك ».

قلت: « يمكننا أن نجرب، وقد نحقق من النجاح أكثر مما كنا نتوقع ».

في البدء كان لدي من العمل ما يكفي ليقيني التأمل الحزين وإفساح المجال لليأس. فقد كان هناك المنزل، والكثير من العمل، وموجودات لصالحنا وفواتير تستوجب السداد، وكانت هناك دفاتر وحسابات مصرفية، ةمال مقرض ومال محصّل، وكان من الصعب معرفة إلام سيؤول أمر كل هذه الأشياء. وفي البدء أردت طبعاً أن أبيع كل شيء، ولكن لم يكن من المكن إنجاز ذلك بسرعة كبيرة. فأمي كانت متعلقة بالمنزل العتيق، ويجب تنفيذ وصية والدي وكانت هناك مصاعب جمة. وكان لا بد من اللجوء إلى مساعدة كاتب حسابات وكاتب عدل. ومرت الأيام والأسابيع في ترتيبات، ومراسلات بشأن الأموال والديون، وفي خطط وخيبات أمل. وسرعان ما عجزت عن التعامل مع كل الحسابات المصرفية والصيغ الرسمية. فاستخدمت محام لمساعدة كاتب العدل وتركتهما ليحلا كل الأمور.

كانت أمي تخيب ظني على الدوام على الرغم من محاولتي تسهيل الأمور لها قدر الإمكان خلال هذه الفترة. لقد أرحتها من كل الشؤون التجارية، قرأت لها وأخذتها في نزهات. وأحياناً كنت أشعر برغبة عارمة في أن أترك كل شيء وأرحل، لكن شعوراً بالخجل وقدراً من الفضول لمعرفة كيف سينتهي الأمر كانا يمنعاني من ذلك.

لم تكن أمي تفكر إلا في الموتى، وكانت تبدي حزنها من خلال أفعال أنثوية صغيرة بدت لي غريبة وغالباً تافهة. فأولاً كان عليّ أن أجلس في مكان والدي على المائدة، ثم رأت أن ذلك غير ملائم وأن المكان يجب أن يبقى خالياً. وأحياناً لم يكن يتاح لي أن أكلمها بما يكفي عن والدي، وفي أحيان أخرى كانت تلزم الصمت وتروح ترميني بنظرة حزينة حالما آتي على ذكر اسمه. ثم إني اشتقت إلى موسيقاي. وأحياناً كنت مستعداً للتضحية بالكثير مقابل أن أتمكن من العودة إلى العزف على كماني مدة ساعة من الزمن، ولم أغامر بفعل ذلك إلا بعد مرور أسابيع عديدة، وحتى عندئذ تنهدت وبدا عليها التأذي. وبدا أنها لا تولي أي اهتمام بمحاولاتي للتقرب منها ولكسب صداقتها.

كثيراً ما كان هذا يسبب لي الألم ويدفعني إلى التفكير في التخلي عن محاولاتي، لكني واصلت مثابرتي وصرت أعتاد على تعاقب الأيام الكئيبة. وأضحت حياتي الخاصة محطمة مقيتة. وفي مناسبات قليلة كنت أسمع صدى واهياً من الماضي عندما أسمع صوت غرترود في الحلم، أو عندما أتذكر فجأة نغمات من أوبراي خلال ساعة من السكينة. وعندما توجهت إلى ر لكي أسلّم المكان الذي كنت أستأجره وأجمع أغراضي، بدا لي كل ما كان له صلة بالمكان بعيداً قصياً. ولم أقم بزيارة إلا تايزر، الذي كان وفياً لي. ولم أغامر بسؤاله عن غرترود.

أخذت بالتدريج أشن حرباً سرية على سلوك أمي المحافظ والمستسلم، الذي ظل يسبب لي الغم مطولاً. وكثيراً ما طلبت منها أن تفصح عن رغباتها وأسالها إن كنت أزعجها بأي شكل. فتداعب يدي عندئذ وتقول وهي ترسم ابتسامة حزينة: « لا تقلق يا ولدي. ما أنا إلا امرأة عجوز». وعندئذ أبدأ بإجراء استقصاءاتي في مكان آخر ولم آنف من استقاء معلوماتي من كاتب الحسابات ومن الخدم.

ثم اكتشفت أموراً كثيرة. وكان على راسها ما يلي: إن لأمي قريبة مقربة وصديقة في البلدة، هي ابنة عم عزباء، لا تظهر كثيراً لكنها كانت على علاقة ودية جداً مع أمي. لكن أبي لم يكن يحب الآنسة شنيبل هذه، وكانت هي تكنّ لي كرهاً خاصاً لذلك كانت قد امتنعت عن زيارتنا مؤخراً. وكانت أمي قد وعدت الآنسة شنيبل أن تستقدمها لتعيش معها إذا ما توفي والدي قبلها، ويبدو أن هذا الأمل قد تلاشى بحضوري. وعندما بدأت أعلم كل هذا بالتدريج، قمت بزيارة السيدة العجوز وحاولت أن أكون مقبولاً منها قدر إمكاني. وكان جديداً عليّ انخراطي في الأعمال الغريبة والمكائد الصغيرة، وقد وفرت لي بعض التسلية. ونجحت في إقناع السيدة بمعاودة التردد على منزلنا، وقد أدركت أن أمي كانت ممتنة لي لذلك. بل لقد أخذت كلتاهما الآن تعملان على إقناعي بعدم بيع المنزل، كما كنت أرغب، وقد نجحتا في ذلك. ثم حاولت السيدة أن تغتصب مكاني في المنزل وتحتل مكانة والدي التي طالما طمعت فيها. لكن وجودي حال دون تحقيق ذلك. لقد كان هناك مكان يكفينا نحن الإثنان، لكنها لم تكن ترغب في وجود سيد للمنزل، ومن ثم رفضت أن تعيش معنا. ومن ناحية أخرى، أخذت تقوم بزيارتنا باستمرار، وتجعل من نفسها صديقة لا غنى عنها في كثير من الأمور الصغيرة، فكانت تعاملني

بدبلوماسية وكأني شخصية هامة، واكتسبتْ موقع المرشد في الشؤون المنزلية، التي لم أكن قادراً على منافستها فيها.

كانت أمي المسكينة لا تقف إلى جانبها ولا إلى جانبي. لقد كانت ضجرة وتعاني معاناة شديدة نتيجة التغير الذي طرأ على حياتها. ولم أدرك إلا مع مرور الوقت كم كانت تفتقد والدي. وذات مرة، لدى دخولي إحدى الغرف التي لم أتوقع أن أجدها فيها، ألفيتها منهمكة عند خزانة ملابس. وأجفلتْ عند دخولي، فأسرعتُ بالخروج. بيد أني لاحظت أنها كانت تتحسس ملابس والدي، وعندما رأيتها بعد ذلك، كانت عيناها حمراوين.

في فصل الصيف بدأت معركة جديدة. فقد رغبت في أن أسافر مع أمي. كنا نحن الاثنان بحاجة إلى إجازة، وأملت أيضاً في أن أدخل السرور إلى قلبها وأقرِّبها مني. ولم تُبدِ أي بادرة اهتمام بفكرة السفر، غير أنها لم تعترض. ومن ناحية ثانية، كانت الآنسة شنيبل متحمسة أيضاً لبقاء أمي في المنزل ولرحيلي أنا، ولكن لم تكن لدي أي نية في التراجع في هذا الأمر. وكنت أتوقع أن أستفيد كثيراً من هذه الإجازة. فقد كنت قد بدأتُ أشعر بالضيق في المنزل العتيق وأنا مع أمي القلقة، والحزينة. وأملتُ في أن أكون أكثر عوناً لها بعيداً عن المكان، وأملت أيضاً في أن ألجم بشكل أفضل جماح أفكاري وتقلبات مزاجي.

وهكذا أعددت العدة للانطلاق في رحلتنا في نهاية شهر حزيران. كنا نتقدم يوماً بعد يوم، فزرنا كونستانس وزيوريخ وعبرنا ممر برونيغ إلى جبال برنيز أوبرلاند. وبقيت أمي هادئة وفاترة الهمة، وصبرت على الرحلة ولم تكن سعيدة. وفي أنترلاكن اشتكتْ من الأرق، لكني أقنعتها بالمتابعة حتى غريندلفالد، حيث كنت آمل أن نجد الراحة

والسكينة. وقد أدركتُ، خلال تلك الرحلة الطويلة، المملة التي لا معنى لها، استحالة فراري وهروبي من بؤسي الخاص. لقد شاهدنا بحيرات خضراء جميلة تعكس على صفحاتها بلدات قديمة رائعة، وشاهدنا جبالاً بدت زرقاء وبيضاء، وأنهاراً جليدية خضراء مشوبة بالزرقة تتلألأ تحت أشعة الشمس، غير أننا كنا ننظر إلى كل شيء بلا أي تأثر أو استمتاع. كنا نشعر بالخجل، غير أننا كنا نشعر بالانقباض والضجر من كل شيء. تنزهنا، تفرجنا على الجبال، استنشقنا الهواء النقي، العذب، وأصغينا إلى الأجراس التي تعلق في أعناق البقر ترن في المروج، وقلنا: « أليست جميلة! »، لكننا لم نجرؤ على أن ينظر كل منا في وجه الآخر.

تحمَّلنا الوضع في غريندلفالد مدة أسبوع. وذات صباح قالت أمي: « لا فائدة، فلنعد، أحب أن أنام الليل من جديد. أريد أن أكون في بيتي إذا ما مرضت أو مت ».

حزمت أمتعتنا بهدوء، متفقاً معها بدون أن أنطق بأي كلمة، وقفلنا عائدين بأسرع مما أتينا. لكني شعرت أني لم أكن عائداً إلى المنزل، بل إلى سجن، حتى أمي لم تبدِ أي نوع من الرضا.

عشية عودتنا إلى المنزل، قلت لها: « ماذا سيكون شعورك إذا ما رحلتُ الآن وحدي؟ أريد أن أذهب إلى ر. إنني راغب في البقاء معك إن كان ذلك يخدم أي غرض، لكننا نحن الاثنان نشعر بالضيق والانزعاج وكل منا لا يترك إلا أسوأ الأثر على الآخر. اطلبي من صديقتك أن تأتي لتعيش معك. إنها أقدر مني على مواساتك ».

أمسكت بيدي وراحت تداعبها برفق كعادتها. وأومأت برأسها موافقة وابتسمت لي، وكأن لسان حال ابتسامتها يقول لي بوضوح: « نعم، إرحل بأي ثمن! ».

على الرغم من كل جهودي المبذولة ونواياي الطيبة، فإن كل ما ترتب من نتائج كان أن كلاً منا سبب الضيق للآخر على مدى شهرين وأنها أضحت أكثر اغترابا عني من أي وقت آخر. فعلى الرغم من أننا عشنا معاً، فإن كلاً منا كان يحمل همه الخاص، ولم يقتسمه مع الآخر، وغاص أعمق في همه الخاص وفي مرضه. لقد ذهبت محاولاتي عبثاً وكان أفضل ما في وسعي أن أفعله هو أن أرحل وأفتح الطريق لمرور الآنسة شنيبل.

قمت بفعل هذا بدون أي تأخير، ولما لم أكن أعرف إلى أين أتوجه، فإني رجعت إلى ر. ولدى مغادرتي تبين لي أنه لم يعد لدي بيت بعد الآن. فالبلدة التي ولدت فيها، وقضيت فيها ايام شبابي ودفنت والدي، لم تعد تهمني في شيء. لم تعد هناك روابط تربطني ولم يعد لديها ما تمنحني غير الذكريات. ولم أخبر السيد لوهه برحيلي، غير أن نصيحته لم تساعدني.

تصادف أن كان مكان سكناي في ر. ما يزال شاغراً. فرأيت أن ذلك بمثابة إشارة لي إلى أن من العبث أن أحاول كسر ارتباطي بالماضي وأهرب من قدري. وها أنا قد عدت من جديد لأقطن المنزل نفسه والشقة نفسها في البلدة نفسها. وأخرجت كماني وعملي، ووجدت أن كل شيء كان على حاله ما عدا أن ميوث كان قد ذهب إلى ميونيخ، وأنه خطب غرترود وسوف يتزوجان.

التقطت أجزاء أوبراي وكأنها أطلال حياتي السابقة التي ما زلت أرغب في أن أحاول أن أبني منها شيئاً، لكن الموسيقى عادت ببطء شديد إلى روحي المخدَّرة. ولم تتفجر بحق وتنبثق إلا عندما أرسل كاتب كل نصوصي لي كلمات أغنية جديدة. لقد وصلت في الوقت الذي أخذ اضطرابي القديم يعاودني باستمرار، وكنت أدور

حول حديقة آل إمثور يتملكني شعور بالخجل وألف هاجس وهاجس.
كانت كلمات الأغنية تقول:

الريح الجنوبية تهدر في الليل
وطيور الكروان تسرع في طيرانها،
والهواء رطب ودافئ
تلاشت رغبتي في النوم الآن،
لقد حل الربيع أثناء الليل،
إثر العاصفة.

أنا أيضاً لم يعد يراودني النوم،
وأشعر بقلبي شاباً وقوياً.
الذاكرة تمسكني من يدي لأتلصص
من جديد على أيام الفرح والغناء،
لكني خائف من القيام بهذا العمل الشديد الجرأة،
ولم يدم ذلك طويلاً.

إهدأ يا قلبي، وارحل أيها الألم!
مع أن الشغف يمور من جديد
في الدماء التي تتدفق الآن ببطء
وتقودني في دروب عرفتها ذات مرة،
فعبثاً تسير في هذه الدروب
لأن الشباب قد ولى.

هـذه الأبيـات أثـرت فيَّ بـالغ الأثـر وأيقظـت عنـدي الحيـاة والموسيقى. نكأت الجرح الذي طالما أخفيته وآلمني ألماً مبرحاً، متحولاً إلى إيقاعات وأصوات. فوضعت الموسيقى لهذه الأغنية، ثم التقطت الخيوط المفقودة لأوبراي، وبعد فترة عطالتي الطويلة غصت من جديد عميقاً في تيار الخلق السريع بثمالة محمومة إلى أن ارتفعت أخيراً إلى ذرى الشعور الحرة، حيث لا انفصام بعد ذلك بين الألم والسعادة ويندمج الشغف والقوة في الروح في لهب واحد ثابت.

في اليوم الذي ألفت أغنيتي الجديدة وعرضتها على تايزر، سرت عائداً إلى المنزل في المساء ماراً بجادة تحف بها أشجار الكستناء، أشعر بتجدد طاقتي على العمل. كانت ذكرى الأشهر الماضية ما تزال تحدق إلى وجهي وكأنما من خلال عينين مقنَّعتين، وتبدوان خاويتين وخاليتين من العزاء، لكن قلبي أضحى الآن يخفق بنبض أسرع، ولم أعد أفهم لماذا أريد أن أهرب من حزني. ونهضتْ صورة غرترود واضحة ورائعة من قلب الرماد. فنظرت في عينيها البراقتين بلا خوف وتركت قلبي أعزل ليتلقى ألماً جديداً. لقد كان من الأفضل أن أعاني بسببها وأن أغرز الشوكة أعمق في الجرح على أن أعيش بعيداً عنها وأطير متنقلاً كما الأشباح بعيداً عن حياتي الحقيقية. ومن بين الذرى المظلمة، المثقلة، لأشجار الكستناء الممتدة ظهرت زرقة السماء الداكنة، مرصعة بالنجوم، لامعة تشع جلالاً، تفرش إشعاعها في المدى لا تبالي. وتلك هي طبيعة النجوم. والأشجار تعرض براعمها وأزهارها وندوبها أمام الجميع، وسواء أكان هذا يدل على المتعة أو الألم، فإنها قبلت إرادة الحياة الصلبة. والذباب الذي يعيش يوماً واحداً اندفع مسرعاً نحو الموت. إن لكل حياة تألقها وجمالها. ونفذتُ برهة

ببصيرتي في كل هذا، فهمته ووجدته حسناً، ووجدت أيضاً حياتي وأحزاني حسنة.

أنهيت العمل في أوبراي في فصل الخريف. وخلال تلك الفترة قابلت السيد إمثور في إحدى الحفلات الموسيقية. فحياني بحرارة وقد فوجئ لأنني لم أحطْهُ علماً بوجودي في المدينة. وكان قد سمع بوفاة والدي، وأنني منذ ذلك الحين أعيش في منزل أهلي.

سألته بأقصى ما استطعت من هدوء: « كيف حال الآنسة غرترود؟ ».

« أوه، يجب أن تأتي لتراها بنفسك. سوف تتزوج في شهر تشرين ثاني، ونحن نعتمد على حضورك المناسبة ».

« شكراً لك، سيد إمثور. وكيف حال ميوث؟ ».

« جيد. أتدري، إنني غير مرتاح كثيراً لهذا الزواج. منذ زمن طويل وأنا أريد أن أسالك عن ميوث. حسب معرفتي الخاصة به، لا اعتراض عليه، لكني سمعت أموراً كثيرة عنه. لقد ذُكر اسمه مقروناً بعدد من النساء. هل تستطيع أن تخبرني بأي شيء في هذا الخصوص؟ ».

« كلا، سيد إمثور. إن هذا لن يفيد. لن تبدل ابنتك رايها مطلقاً بسبب بعض الشائعات. إن السيد ميوث صديقي وأتمنى له التوفيق إذا عثر على السعادة ».

« حسن. هل ستأتي لزيارتنا قريباً؟ ».

« أعتقد ذلك. وداعاً، سيد إمثور».

منذ وقت ليس بالبعيد كنت قد حاولت أن أتجنب إقامة كل صلة معهما هما الإثنان، ليس بدافع الحسد أو أملاً في أن تكون غرترود لا تزال تميل إليّ، وإنما لأني كنت مقتنعاً وشعرت مسبقاً أن الأمور لن تسير سيراً حسناً معهما، لأني كنت مدركاً كآبة ميوث

المعذبة للنفس وسرعة هياجه وحساسية غرترود، وأن ذكرى ماريان ولوتي كانت ما تزال حية في ضميري.

الآن اختلف تفكيري. فتحطّم حياتي برمتها، ونصف عام من العزلة الداخلية وإدراكي انصرام عهد شبابي، قد غيرني. إنني الآن أرى أن من الحماقة والخطر أن أمد يدي لأغيّر أقدار الآخرين. وأيضاً لا سبب لدي لأعتقد أن يدي ماهرة أو أن أعتبر نفسي قادراً على تقديم يد المساعدة للآخرين وفهمهم، بعد أن أخفقت محاولاتي في هذا الاتجاه وأثبطت همتي. ولا أزال حتى الآن أشك بقوة في قدرة الناس على تغيير حياتهم الخاصة وحياة الآخرين وتشكيلها بأي قدر مقبول. يمكن للإنسان أن يكسب مالاً، وشهرة، ومنزلة متميزة، لكنه لا يستطيع أن يخلق السعادة أو التعاسة، لا لنفسه ولا للآخرين. يمكنه فقط أن يقبل ما يأتي، وفي استطاعته، بلا شك، أن يقبله بأساليب مختلفة تماماً. وبالنسبة إليّ، فلن أقوم بمزيد من المحاولات الدؤوب للعثور على مكان في الشمس، لكني سأرضى بما قُسِم لي، سأحاول أن استفيد منه قدر الإمكان، إن استطعت، وأحوله إلى شيء طيب.

على الرغم من أن الحياة تبقى مستقلة عن مثل هذه التأملات، إلاّ أن الأفكار الصادقة والقرارات تُدخِل السكينة إلى القلب وتساعد المرء على تحمُّل ما لا يمكن تغييره. وأخيراً، بدا لي بالنتيجة أنه بما أنني أضحيت مستسلماً ولا مبالياً حيال قدري الخاص، فإن الحياة قد عاملتني برقة ضافية.

سرعان ما تعلمت من خلال والدتي أن المرء أحياناً يحقق بشكل غير متوقع وبدون أن يبذل أي مجهود ما لم يكن سابقاً قادراً على بلوغه، على الرغم من كل المحاولات والنية الطيبة. كنت أبعث إليها رسالة كل شهر، لكن بعد ذلك مرت فترة لم أعد أسمع أخبارها. ولو أنه

كان قد وقع خطب ما لكنت عرفت، لذا كففت عن التفكير في الأمر وواصلت كتابة رسائلي إليها، وكانت قصيرة تحدثتُ فيها عن أحوالي وكنت دائماً أضمنها تحياتي الطيبة للآنسة شنيبل.

هذه التحيات توقفت مؤخراً. لقد حققتْ المرأتان ما كانتا ترغبانه لكن الأمر لم تترتب عنه النتيجة المرجوة. لقد ضخَّمت الأوضاعُ المحسَّنة أنانيةَ الآنسة شنيبل. فبُعيد رحيلي مباشرة احتلت بكل انتصار المركز المستولى عليه واستقرت في منزلنا. وها هي الآن تشارك صديقتها القديمة وقريبتها المنزل، وقد اعتبرت أنه، وبعد سنوات الحرمان الطويلة، من قبيل انقلاب الحظ الذي تستحقه أن تتمكن من السيطرة وتتلبَّس هيئة إحدى سيدات البيوت المحترمة. فليست لديها عادات بذخة ولا كانت مسرفة. لقد كانت قد مرت في ظروف ضيقة وحالة شبه فاقة فترة طويلة لا تسمح لها أن تكون كذلك. فلا هي ارتدت ملابس أغلى ثمناً ولا نامت على فراش أوثر. على العكس، لقد اتبعت سياسة اقتصادية جديرة بالاهتمام حيث توفرت ظروف للاقتصاد. غير أنها لم تتخل عن النفوذ والسلطة. وكان على الخادمتين أن تطيعاها بقدر طاعة أمي لها، وكانت أيضاً تعامل الخدم، والعمال وسعاة البريد بأسلوب متغطرس. وبما أن الرغبات لا تنتهي بتحقيقها، فإنها أخذت أيضاً بالتدريج توسِّع مجال سيطرتها على الأشياء التي لم تكن أمي تتنازل عنها بالسرعة الكافية. فقد أرادت أن تعرف معلومات عن زوار أمي، حتى وإن كانت شخصية، ولم تقبل منها أن تستقبل أياً كان أثناء غيابها. ولم تكن تكتفي بسماع مقاطع من الرسائل التي تتلقاها أمي، خاصة رسائلي، وإنما أرادت أن تقرأ بنفسها. وأخيراً، قرَّ قرارها على أن ثمة أشياء كثيرة في منزل أمي لم تكن تُنفَّذ ويُعتنى بها، وتُدار كما ارتأت هي. وقبل كل

شيء، اعتبرتْ أن القصاص المتّبع مع خدم المنزل ليس صارماً بما فيه الكفاية. فإذا خرجتْ خادمة في المساء، أو أطالت في حديثها مع ساعي البريد، أو إذا طلبتْ الطباخة يوم أحد إجازة، فإنها توبّخ أمي بشدة على تساهلها وتلقي على مسامعها محاضرات طويلة حول الطريقة الصحيحة لإدارة شؤون المنزل. زيادة على ذلك، كانت تتأذى كثيراً عندما ترى أن قواعد الاقتصاد التي وضعتها يتم تجاهلها بشكل كبير. فثمة مغالاة في كمية الفحم المشتراة، وفي عدد البيض الذي تعتمدْ الطباخة! وكانت تعارض بحدّة مثل هذه الأمور، ولهذا السبب نشأ الخلاف بين الصديقتين.

كانت أمي حتى ذلك الحين تتخذ الموقف الأقل مقاومة على الرغم من أنها لم تكن توافق على كل شيء، وقد خاب أملها من نواح عدة في صديقتها، التي كانت تتخيل صداقتها لها بشكل مختلف. ولكن من ناحية أخرى، عندما كانت العادات القديمة المحترمة للمنزل تتعرض للخطر، وتتهدد راحتها اليومية وسكينة المنزل، لا تستطيع أن تمنع نفسها من الاحتجاج وإبداء شيء من المقاومة، على الرغم من أنها لم تكن تفعل ذلك تواً. وكانت تبرز اختلافات في الرأي ونزاعات ودية، ولكن عندما أنذرت الطباخة بترك العمل - ولم تنجح في إقناعها بالبقاء إلا بصعوبة، وبعد أن قطعت لها وعوداً كثيرة كانت أقرب إلى الاعتذارات - بدأت مسألة الهيمنة على المنزل تؤدي إلى معركة حقيقية.

لم تفهم الآنسة شنيبل، المعتزة بمعرفتها، وخبرتها، وقدراتها الاقتصادية والتنظيمية، لماذا لا تُقابَل كل هذه المؤهلات بالتقدير، وكانت تشعر أن لديها ما يبرّر انتقادها لسياسة المنزل الاقتصادية السابقة، وتعييبها لإدارة أمي لشؤون المنزل وإظهار ازدرائها لعادات

المنزل وتقاليده. ثم أتت أمي على ذكر والدي الذي سارت إدارته لكل شيء في المنزل على أحسن ما يرام على مدى سنين عديدة. فلم يكن يحتمل التوافه والإجراءات الاقتصادية الدنيئة، وكان يمنح الخدم حرية التصرف والامتيازات ويكره الجدال مع الخادمات والحوادث ذات الطبيعة المقيتة. ولكن عندما أتت والدتي على ذكر والدي وكانت تنتقده أحياناً في السابق، إلا أنه أصبح، منذ وفاته شيئاً مقدساً بالنسبة إليها، لم تستطع الآنسة شنيبل من تمالك نفسها وذكّرت أمي بحدة كيف أنها كانت قبل زمن قد عبّرت عن رأيها في المرحوم وأنه قد حان الوقت الآن كي تتخلى عن الأساليب القديمة وتحكّم عقلها. وهي لم تُرد أن تفسد على صديقتها ذكرى المرحوم، مراعاة لمشاعرها، ولكن ما دامت قد أتت على ذكره، كان عليها أن تعترف بأن هناك الكثير من الأمور غير المرضية في المنزل يعود سببها إلى السيد القديم، وهي لا تفهم لماذا عليها الآن، وقد تحررت، أن تتّبع الأسلوب القديم.

كانت تلك بمثابة ضربة موجهة إلى أمي لم تسامح عليها صديقتها أبداً. وفي السابق كان تذمُّرها بين حين وآخر على مسامع صديقتها موضع ثقتها وتعييبها على سيد المنزل يشكل حاجة ومتعة لها، أما الآن فلن تتحمل أن يُرمى أوهى ظل على ذكراه المقدسة. وبدأت تشعر أن بوادر الثورة أخذت تنشب في المنزل لم تكن فقط مزعجة، بل وقبل أي شيء هي إثم مرتكب في حق المرحوم.

استمر هذا الوضع بدون علمي. وعندما أتت أمي، ولأول مرة، على ذكر هذا الافتقار إلى الانسجام في إحدى رسائلها، مع أنها فعلت ذلك بحذر شديد وتحفظ، ضحكتُ. وفي رسالتي التالية إليها ألغيتُ تحياتي الموجهة إلى العانس، لكني لم أشر إلى تلميحات أمي. وظننت أن

المرأتين جديرتين بحل شأنهما من دوني. ثم أنه كانت هناك مسألة أخرى تشغل بالي أكثر.

كان شهر تشرين الثاني قد حل وفكرة زواج غرترود المرتقب تلح باستمرار على ذهني. ولم أكن قد عاودت زيارة منزلها ولا حتى قابلتها. ونويت أن أعاود الاتصال بوالدها، بعد عقد القران، ورحيلها. وكنت آمل أيضاً في أن أقيم، في الوقت المناسب، علاقة ودية متينة مع غرترود. لقد كنا على علاقة وثيقة بحيث نستطيع أن نلغي الماضي بسهولة شديدة، غير أنني لم أكن أتحلى بعد بالشجاعة الكافية لإجراء لقاء معها أعرف أنها لن تحاول أن تتفاداه.

ذات يوم، سمعت طرقاً عادياً على بابي. فاستولت عليّ الهواجس وقفزت لأفتحه. فإذا بهاينريش ميوث ماثلاً أمامي ويمد لي يده.

هتفت: « ميوث! ». وشددت على يده بقوة، لكنني لم أقو على النظر في عينيه بدون أن أتذكر كل ما حدث وأتألم. رأيت من جديد الرسالة ملقاة على طاولته، رسالة عليها كتابة بخط يد غرترود، ورأيتني أودّعها وأتمنى الموت. وها هو الآن واقف هنا يسدِّد إليَّ نظرة حادة. بدا أنحل قليلاً ولكن وسيماً ومعتزاً بنفسه كعهده دائماً.

قلت بهدوء: « لم أتوقع حضورك ».

« أحقاً؟ أعرف أنك لم تعد تقوم بزيارة بيت غرترود. أما عني - فلنجلس ونتحدث! لقد جئت لأطمئن عليك وأيضاً على تقدُّم عملك. كيف يسير العمل في الأوبرا؟ ».

« لقد اكتملت. ولكن قل لي أولاً، كيف حال غرترود؟ ».

« بصحة جيدة. سنتزوج قريباً ».

« أعلم ».

« حسن، ألن تقوم بزيارتها في وقت قريب؟ ».

« فيما بعد. أريد أولاً أن أطمئن عليها وهي بين يديك ».

« همم... ».

« هاينريش، سامحني، لكني أحياناً لا يسعني إلا أن أفكر في لوتي التي أسأت معاملتها وضربتها ».

« دعك من لوتي. لقد نالت ما تستحق. إن المرأة لا تُضرب إلا إذا رغبتْ في ذلك ».

« أوه! بالنسبة إلى الأوبرا، لا أدري في الحقيقة إلى منْ يجب أن أسلّمها أولاً. لا بد أن يكون إلى مسرح جيد، وإن كنتُ، طبعاً، لا أدري إن كانوا سيقبلونها ».

« أوه، بل سيقبلونها حتماً. وأريد أن أحدثك عن هذا. هاتها إلى ميونيخ. فاحتمال قبولها هناك أكبر، إن الناس يزداد اهتمامهم بك. وإذا لزم الأمر، سأكون ضامناً لك. لا أريد لأحد غيري أن يكون أول من يغنّي دوري ».

أراحني كلامه كثيراً. ووافقت بسرور ووعدته بإعداد نسخ باسرع وقت ممكن. وناقشنا التفاصيل وتابعنا حديثنا مع شيء من الارتباك، وكأنها مسألة حياة أو موت بالنسبة إلينا، ومع ذلك كل ما كنا نبتغيه هو تزجية الوقت، والتغاضي عن الشُقة التي ظهرت بيننا.

وكان ميوث هو المبادر إلى اجتياز الهوة.

قال: « أتتذكر أول مرة صحبتني فيها إلى آل إمثور؟ لقد مرّت سنة الآن على ذلك ».

قلت: « أعرف، لا داعي لتذكيري. الأفضل أن تذهب الآن ».

« لا، ليس بعد، يا صديقي. إذن ما زلت تذكر. حسن، إذا كنت تحب الفتاة، فلم لم تقل: "دعها وشأنها، دعها لي!" كان ذلك يكفي. كنتُ فهمتُ التلميح ».

« لم استطع أن أفغل ذلك ».

« لم تستطع؟ لم لا؟ من قال لك أن تكتفي بالنظر وتلزم الصمت إلى أن فات الأوان؟ ».

« لم أكن أعرف إنْ كانت تحبني أم لا. ثم ـ إنْ كانت تفضّلك أنت، فلا حيلة لي في الأمر».

« يا لك من طفل! ربما كانت ستسعد أكثر معك. إن من حق كل رجل أن يتودّد إلى امرأة. لو أنك قلت لي كلمة واحدة فقط منذ البداية، لو أنك فقط ألمحت إليّ، لابتعدت. أما بعد ذلك، كان الأوان قد فات ».

هذا الحديث سبب لي الألم.

قلت: « إن لي رأياً آخر في هذا، ولا داعي لأن تقلق. والآن دعني في سلام! بلغها تحياتي وسوف آتي وأزوركما في ميونيخ ».

« ألن تأتي إلى حفل الزفاف؟ ».

« لا، يا ميوث، سينم ذلك عن قلة ذوق. ولكن ـ هل ستتزوجان في كنيسة؟ ».

« طبعاً، في كنيسة ».

« يسعدني سماع هذا. لقد ألّفتُ مقطوعة للمناسبة، على آلة الأرغن. لا تقلق، إنها قصيرة جداً ».

« أنت صاحب وفي! ما أبشع أن أسبِّب لك كل سوء الحظ ذاك! ».

« أظن أن عليك أن تقول "حسن الحظ"، يا ميوث ».

« حسن، لن نتشاجر. يجب أن أذهب الآن، ما زالت هناك أشياء كثيرة يجب أن تُشترى ولا أدري ماذا أفعل. سوف ترسل الأوبرا قريباً، اتفقنا! أرسلها إليّ وأنا سأوصلها إلى أصحاب الشأن. وقبل حلول الزفاف يجب أن نقضي معاً أمسية. ربما غداً! ما رأيك؟ حسن، وداعاً ».

وهكذا جُرفتُ إلى الدائرة من جديد وأمضيت الليل تتلاطمني الأفكار والأحزان التي تكررت مئة مرة. وفي اليوم التالي قمت بزيارة

عازف أرغن كنت أعرفه وطلبت منه أن يعزف مقطوعتي في حفل زفاف ميوث. وبعد الظهر راجعت افتتاحيتي مع تايزر للمرة الأخيرة، وفي المساء توجهت إلى النزل الذي يقيم فيه هاينريش.

وجدت أن غرفة قد أُعدَّت لنا تحتوي مدفأة مفتوحة وشموعاً. وقد فُرشت الطاولة بمفرش أبيض ووضعت عليها أزهار وأطباق فضية. وكان ميوث موجوداً وينتظرني.

« إن هذا، يا صديقي، هو احتفال وداع، لي أكثر منه لك. إن غرترود تبعث لك بتحياتها. واليوم سنشرب نخب صحتها ».

ملأنا كأسينا وشربنا محتواهما في صمت.

« والآن، فلنفكر فقط في نفسينا. إن الشباب ينصرم، يا صديقي العزيز، ألا تشعر أنت أيضاً بهذا؟ ويجب أن يكون أفضل فترة في حياة الإنسان. أتمنى أن يكون هذا غير صحيح، مثل كل الأقوال الشهيرة. يجب أن يقع الأفضل أمامنا، وإلا فالحياة برمتها لا تساوي شيئاً. سوف نعود إلى الحديث بعد أن تقدِّم أوبراك ».

استرخينا وشربنا بعضاً من نبيذ الراين الثقيل. بعد ذلك، غصنا في كرسيين وثيرين ونحن ندخن السيجار ونشرب الشمبانيا، واستمر ذلك ساعة ذكَّرتنا نحن الاثنان بالأيام الخوالي عندما كنا نستمتع في مناقشة الخطط والمسامرة الحقيقية. كنا نتبادل النظرات المتأملة ولكن الصريحة وكنا نشعر بالسعادة المشتركة. في أوقات كتلك كان هاينريش ألطف وأشد كياسة من المعتاد. كان يعرف أن عمر هذه المتع قصير جداً وكان يتشبث بها بولع طالما أن مزاجه يتحمل ذلك. وأخذ يحدثني، بهدوء، وهو يبتسم، عن ميونيخ، وحكى لي حوادث صغيرة عن المسرح، ومارس براعته القديمة في وصف الناس والمواقف في بضع كلمات موجزة.

بعد أن رسم اسكتشاً لصورة قائد الأوركسترا الذي يعمل معه، وحماه المقبل وآخرين بطريقة مسلية وواضحة ولكن بدون خبث، شربت نخب صحته وقلت: « وأنا؟ هل تحسن رسم أناس من نمطي أيضاً؟ ».

قال بهدوء وهو يهز رأسه إيجاباً ويحدّق إليّ بعينيه الداكنتين: « أوه، نعم. أنت تمثل نمط الفنان بكل معنى الكلمة. إن الفنان ليس كما يراه العاديون من الناس، شخصاً مرحاً يطلق أعماله الفنية هنا وهناك من فيضه الغزير، لكنه عادة ويا للأسف مخلوق مسكين مخنوق بنفائس فائضة ولذلك يضطر إلى أن يهب بعضها. والقول إن هناك فنانين سعداء هو مغالطة، مجرد كلام أناس رجعيين. إن موتسارت الخلي البال كان يحافظ على حيويته بالشمبانيا وكان دائماً لا يجد ما يأكل، ولا أحد يدري لماذا لم ينتحر بيتهوفن في شبابه بدل أن يؤلف كل تلك الموسيقى الرائعة. إن الفنان الحقيقي يجب أن يكون تعيساً. فكلما جاع ثم فتح جعبته وجد في داخلها لآلئ ».

« ولكن إذا رغب في شيء من المتعة والدفء والتعاطف في الحياة، فإن حفنة من الأوبرات، والثلاثيات وما شابهها لن تساعده كثيراً ».

« معك حق. إن ساعة كهذه مع كأس من النبيذ وصديق، إن وجد، ومسامرة ممتعة حول هذه الحياة الاستثنائية، هي تقريباً أفضل ما يمكن له أن يتوقع الحصول عليه. هذه هي حقيقة الأمر، وجدير بنا أن نسعد بحصولنا على هذا على الأقل. فقط تصوّر كم يستغرق المسكين من الوقت لكي يبدع عملاً جيداً، والمتعة التي يستمدها منه لا تدوم أكثر من دقائق! بالطريقة نفسها يجب على الإنسان أن يوفر الفرح وراحة البال والضمير المرتاح ليثري بهما ساعة صفاء كل حين. في صحتك، يا صديقي ».

لم أوافق بأي حال على فلسفته، ولكن ما همّ! كنت سعيداً بقضاء أمسية كهذه مع الصديق الذي كنت لسوء الحظ سأخسره وكان بالقدر نفسه غير واثق مني، ورحت أتفكر في الماضي الذي كان ما يزال شديد القرب مني، إلا أنه كان يكتنف شبابي بأيامه الرخية التي لن تعود أبداً.

أخيراً أشرفت الأمسية على نهايتها وعرض ميوث عليّ أن يسير معي إلى المنزل، لكني قلت له أن لا يزعج نفسه. كنت أعلم أنه لا يحب أن يمشي معي في الخارج، لأن خطوي البطيء الأعرج كان يوتر أعصابه ويثير غضبه. كان يكره أن يتضايق والأشياء الصغيرة مثل هذه كانت غالباً هي اشد ما يثير انزعاجه.

كنت سعيداً جداً بمقطوهة موسيقى الأرغن الصغيرة التي ألّفتها. كانت نوعاً من المقدمة الموسيقية (بريلود)، وكانت بالنسبة إليّ منفصلة عن الماضي، والشكر والفضل في ذلك يعود إلى الخطيبين وإلى صدى أوقات سعيدة قضيتها معهما.

في يوم الزفاف توجهت إلى الكنيسة مبكراً، واختبأت بالقرب من آلة الأرغن، ورحت أطل على المراسيم. وعندما بدأ عازف الأرغن يعزف موسيقاي، رفعت غرترود بصرها وابتسمت في وجه خطيبها. ولم أكن قد رأيتها طوال تلك الفترة لكنها بدت أطول قامة وأشد نحولاً من المعتاد وهي بثوبها الأبيض. وأخذت تسير برشاقة، وقد ارتسم على وجهها تعبير جاد، على طول الممر الضيق، المزخرف، باتجاه المذبح إلى جانب الرجل المنتصب القامة، الفخور الطلعة. ما كان يمكن أن يكون مشهداً رائعاً لو أنه بدلاً عنه كنت أنا، المعاق ذو الساق المقوسة، الذي يسير على هذا الممر المهيب.



7

كان قد تقرر للتو أن عليَّ أن لا أطيل التفكير في زواج صديقيَّ وأن تأملاتي ورغباتي وتعذيبي لنفسي يجب أن يتوجَّه في هذا الاتجاه.

خلال تلك الفترة لم أكن قط أفكر في أمي. ولا شك في أني علمت من خلال رسالتها الأخيرة أن سكينة البيت وراحته ليسا كما يجب أن يكونا، غير أنه لم يكن لدي السبب ولا الرغبة في أن أتدخل في الصراع القائم بين السيدتين وقبلته، بشيء من الخبث، بوصفه أحد الأشياء التي لا ضرورة لرأيي فيها. ومنذ ذلك الحين وأنا أكاتبها بدون أن أحصل على ردود. لقد كان لدي من العمل الكثير في إعداد نسخ أوبراي وتفحصها ما منعني من التفكير في الآنسة شنيبل.

ثم تلقيت رسالة من أمي فاجأني حجمها الضخم بشكل غريب وحده. كانت رسالة كلها غم تشكو فيها أمي من رفيقتها، وعندئذ أصبحت مطَّلعاً بالتفصيل على الانتهاكات التي ترتكب في المنزل على حساب راحة بال أمي. وكان يشقُّ عليها أن تكتب لي عن الأمر وقد فعلت ذلك بوقار وتحفظ. كان ببساطة اعترافاً بخيبة الأمل التي أصيبت بها من صديقتها وقريبتها.

لم تعد أمي الآن فقط تتفهم نفورنا، والدي وأنا، من الآنسة شنيبل، بل اصبحت تميل إلى بيع المنزل إذا كنت ما أزال أرغب في ذلك، وإلى أن تذهب لتعيش في مكان آخر، حتى لمجرد أن تهرب من هذه المرأة شنيبل.

« ربما أفضل من ذلك أن تأتي إلى هنا. إن لوسي، طبعاً، تعرف للتو بماذا أفكر وماذا أعدُّ - إنها حادة الذكاء - ولكن صلاتي مع الآخرين ثقيلة الوطأة عليّ بحيث أعجز عن أن أطلب منها أن تقوم بالعمل اللازم بالأسلوب الأمثل. إنها تتجاهل تلميحاتي إلى أني أفضل أن أنفرد بنفسي من جديد في منزلي وأن في إمكاني أن أتدبَّر أموري بدونها، وأنني لا أريد نشوب شجار صريح. أعرف أنها ستؤنبني وتبدي مقاومة قوية إذا ما طلبت منها صراحة أن ترحل. لذا من الأفضل إذا أتيت وعالجت الأمر بنفسك. لا أريد أن أثير أية بغضاء ولا أريد أن أحمِّلها أية تكاليف، ولكن يجب أن تبلَّغ بكل وضوح وحزم بأن عليها أن ترحل ».

لقد كنت مستعداً حتى لذبح التنين إذا ما رغبت أمي في ذلك. ورحتُ أعد العدَّة بسرور عظيم للانطلاق في الرحلة متوجهاً إلى بيتنا. وحالما ولجت البيت العتيق، شعرت بغزو روحٍ جديدة. فغرفة الجلوس الكبيرة والمريحة، خاصة، أصبحت كئيبة، مقبضة وتوحي بالفقر. كل شيء بدا مرتباً ومنظماً. كان يغطي الأرض الصلبة العتيقة نوع من السجاد، ضيق العرض وطويل وقاتم اللون، مصنوع من مادة رخيصة وبشعة، لحماية خشب الأرضية، وتجنُّب تنظيفه. والبيانو العتيق الذي كان موضوعاً في غرفة الجلوس ولم يُستعمل طوال سنين عديدة كان أيضاً قد غطِّي بغطاءٍ واقٍ، وعلى الرغم من أن أمي أعدَّت لي

الشاي والكعك وحاولت أن تشيع جواً من البهجة قدر استطاعتها، إلا أنه كان يسود المكان ما يشبه وسوسة خادمة عجوز ورائحة نفتالين، بحيث أني حالما دخلت ابتسمت في وجه أمي وغضّنتُ أنفي ورفعته إلى أعلى. ففهمتني للتو.

ما أن جلست حتى دخلت أنثى التنين، تخب خبباً على طول السجاد الطويل الضيق متجهة نحوي وشرّفتني بأن سألتني بكثير من التطويل والتدبيج عن حالي. وسألتها بالتفصيل عن أحوالها، واعتذرت لها لأن المنزل عتيق والذي ربما لا يوفر لها ما يكفي من الراحة التي تعوّدت عليها. ودار بيننا حديث بعيداً عن مشاركة أمي، تولت هي إدارة دفته، واتخذتْ دور سيدة المنزل، وقدّمت الشاي، وقامت بلهفة بالإجابة عن ملاحظاتي المهذبة وبدت عليها السعادة، ولكن أيضاً القلق والارتياب بسبب ما أبديه من ودٍ ضافٍ. لقد توثّبت شكوكها ولكن لم يكن أمامها إلا أن تقبل مجاملاتي وأن تبادلها من مخزونها من العبارات المهذبة والتي بشكل ما عفا عليها الزمن. وتواصلتْ الأمسية كاشفة عن تفانٍ واحترام مشتركين واضحين. وتمنى كل منا من كل قلبه ليلة هانئةً للآخر وافترقنا كدبلوماسيين من المدرسة القديمة. ولكن، على الرغم من الحلوى، فإن الشيطان لم يحظ في تلك الليلة بالكثير من النوم، في حين أني كنت مرتاحاً وراضياً، وأمي المسكينة، التي ربما بعد مرور ليال كثيرة وهي في حالة من الانزعاج والغم، عادت تنام لأول مرة مع إحساس بكونها السيدة الوحيدة في منزلها.

على مائدة إفطار صباح اليوم التالي، بدأنا اللعبة المؤدبة نفسها. وأمي، التي كانت في الأمسية الفائتة قد اكتفت بالإنصات بهدوء

وانتباه، أخذت الآن تشارك باستمتاعٍ، وغمرنا شنيبل بالعبارات المهذبة حتى حوصرت وشعرت بالتعاسة. وأدركت بوضوح تام أن تلك العبارات المنمقة لا تخرج من قلب أمي. وكدت أرثي لحال العانس العجوز لتصاعد قلقها، وهي تحاول أن تتواضع وتطري كل شيء، لكني كنت أفكر في مدبرة المنزل المطرودة، والطباخة التي بدا عليها السخط ولم تمكث إلا إكراماً لأمي، فكرتُ في البيانو المغطى وفي الجو العام البائس الذي سربل منزل والدي الذي كان حتى ذلك الحين بهيجاً، وحافظتُ على صلابتي. بعد تناول الطعام طلبت من أمي أن تذهب وتستلقي قليلاً، وبقيتُ وحدي مع قريبتها.

سألتها بأدب: « ألست معتادة على النوم بعد تناول الطعام؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا تتركيني أزعجك. كنت أريد أن أتحدث معك في أمر، لكنه ليس عاجلاً جداً ».

« أوه، أرجوك تكلم. إنني لا أنام أبداً أثناء النهار. شكراً لله لأني لست عجوزاً جداً. إنني تحت أمرك ».

« اشكرك شكراً جزيلاً، آنسة شنيبل. أريد أن أعبر لك عن امتناني لك للّطف الذي أبديته نحو أمي. فلولا وجودك في المنزل الكبير كانت ستشعر بوحشة. على أية حال، إن الأمور ستتغير الآن ».

صرخت وقد نهضت واقفة: « ماذا! ماذا تقصد بأن الأمور ستتغير؟ ».

« ألم تعلمي بعد؟ لقد قررتْ أمي أخيراً أن تحقق لي رغبتي القديمة في أن تأتي وتعيش معي. وطبعاً نحن لا نستطيع أن نترك البيت القديم خالياً، لذا سوف يُعرض للبيع قريباً ».

حدقت السيدة إليّ في اضطراب.

أردفتُ آسفاً: « نعم، أنـا أيضـاً آسـف، لقـد كـانـت فـترة شديدة الارهاق لك. لقد أبديت اهتماماً بالغ اللطف وعملياً بالمنزل حتى أني عاجز عن إبداء ما تستحقين من شكر».

« ولكن أنا ـ أنا؟ ».

« أوه، سوف نجد لك حـلاً. سيكون عليك طبعـاً أن تبحثـي عـن مكـان آخر تعيشين فيه، ولكن لا داعي للعجلة. سوف تسعدين أنـت أيضاً لأنك سترتـاحين ».

ظلت واقفة. وكانت ما تزال مهذبة غير أن نبرة صوتها أضحت أحدّ بشكل واضح.

صرخت بمرارة: « لا أدري ماذا أقول. إن أمك، يا سيدي، وعدتني أن تدعني أعيـش هنـا، وكـان اتفاقـاً دائمـاً. والآن، وبعـد أن تعلقـت بالمنزل وساعدت أمك في كل شيء، ها أنا أصبح في الشارع ».

بـدأت تنشـج وأرادت أن تهـرع مبتعـدة، لكـني أمسكت بيدهـا النحيلة وشددتها لتعود إلى الكرسي الوثير.

قلت مبتسماً: « إن الوضـع ليس سيئاً إلى هذا الحد. صحيـح أن الظروف قد تغيرت قليلاً لأن أمي ترغـب في الانتقـال مـن هنـا. إلا أن مسألة بيع المنزل لم تكن قرارها هي، بل قراري، بما أنـي مالكه. سوف تحرص أمي على أن لا تنفردي بالبحث عن منزل جديد وسـوف تقـوم بنفسها بالاجراءات اللازمة لذلك. وهكـذا سـوف ترتـاحين أكثر مـن السابق وسوف تظلين، إن صح التعبير، ضيفة عليها ».

وهنـا جـاء مـا توقعتـه مـن تـأنيب، وغطرسـة، وبكـاء، وتعـاقب المناشـدة والتبجّـح، لكـن المـرأة النكـدة أدركـت في نهايـة المطـاف أن أحكم تصرف هو أن تقبل بالوضع. وعندئذ انسحبت إلى غرفتهـا ولم تعد إلى الظهور حتى لتشرب القهوة.

ارتأت أمي أن نرسلها إليها في غرفتها، لكني أردت أن أنفِّذ انتقامي بعد كل هذا التمثيل المهذب وأن أترك الآنسة شنيبل معتكفة هناك مع مزاجها المستقل حتى المساء وعندئذ سوف تظهر بانتظام، ولكن وهي هادئة ومتجهمة، لتناول طعام العشاء.

أثناء تناول الطعام قلت: « أنا مضطر، للأسف، أن أعود إلى ر. غداً، ولكن إذا احتجتني في أي أمر، يمكنني دائماً أن آتي على وجه السرعة ».

بينما كنت أقول هذا لم أنظر إليها بل إلى قريبتها، وفهمتْ قصدي. إن فراقي لها سيكون فترة وجيزة لكنه ودِّي تقريباً.

لاحقاً قالت لي أمي: « لقد برعت يا عزيزي في وضع الأمور في نصابها. اشكرك من كل قلبي. ألن تعزف لي شيئاً من أوبراك؟ ».

لم أكن قد وصلت بعد إلى هذا الحد، لكن حاجزاً كان قد انهار، وعلاقة جديدة قد بدأت تترسخ بين العجوز وبيني. وكان ذلك أفضل ما أسفرتْ عنه هذه القضية. لقد أصبحتْ الآن تثق بي وسرَّتني فكرة أن أنشئ معها جواً أسرياً صغيراً بعد تشرُّدي ردحاً طويلاً من الزمن. واستودعت الآنسة شنيبل أرق تمنياتي ثم غادرتُ مع شعور بالرضى. وبُعيد عودتي، بدأتُ أفتشُ في الجوار عن منازل صغيرة جذابة معروضة للإيجار. وقد ساعدني تايزر في هذا الأمر وكانت أخته تنضم إلينا عادة. وقد شاركني كلاهما البهجة وأملاً في أن تعيش العائلتان متقاربتين بسعادة.

في تلك الأثناء، كنت قد أرسلت نص أوبراي إلى ميونيخ. وبعد مرور شهرين، وبُعيد وصول أمي، كاتبني ميوث قائلاً إنها قد قُبلَتْ ولكنها لن تُقدَّم في هذا الموسم. غير أنها ستُعرَض في بداية الشَتاء القادم. وهكذا كان لدي خبر سعيد أنقله إلى أمي. وعندما سمعه تايزر رقص فرحاً وأعدَّ العدة للاحتفال.

بكت أمي عندما انتقلنا إلى منزلنا الصغير الجميل، وقالت إنه ليس من المستحب أن ينتقل المرء من أرضه وهو في سن متقدمة، أما أنا فرأيت أنها خطوة جيدة جداً، ووافقني آل تايزر، وقد سرني أن ألاحظ كم ساعدت بريجيت أمي. فلم يكن للفتاة معارف كُثُر في البلدة وكانت أثناء غياب أخيها في المسرح غالباً ما تشعر بالوحشة وهي في المنزل، على الرغم من أنها لم تكن تعترف بذلك. والآن صارت كثيراً ما تأتي لتزورنا ولا تكتفي بمدّ يد المساعدة لنا لترتيب أمورنا والاستقرار، وإنما كانت تساعد أمي أيضاً وتساعدني في طريق الحياة الصعب لنعيش معاً في وئام. كانت تعرف كيف تلفت نظر السيدة العجوز إلى حاجتي إلى الهدوء والعزلة، وكنت دائماً أجدها عندما أحتاج إلى مساعدة. وقد نبهتني أيضاً إلى الكثير من حاجات أمي ورغباتها لم أكن أعرف أي شيء عنها ولم تكن أمي قد باحت لي بها. وهكذا سرعان ما استقر بنا المقام في بيتنا الصغير الهادئ، وكان يختلف مفهومي السابق عن المنزل وأكثر تواضعاً، لكنه كان جيداً وبهيجاً بالنسبة إلى مَنْ لم يُحرز تقدماً أكثر مني.

الآن أصبحتْ أمي أكثر معرفة ببعض موسيقاي، لم تحبها كلها ولم تعلّق بالكثير حولها، لكنها رأت وآمنت بأنها ليست مجرد تزجية وقت ولعب، وإنما عمل جدّي. وفوق كل ذلك، دُهشتْ إذ وجدتْ أن حياة الموسيقي، التي كانت تعتقد أنها غير مستقرة، لا تكاد تقلُّ عن حياة المعاملات التجارية التي عاشها والدي المرحوم. وأصبح أسهل علينا الآن أن نتحدث عنه وصرت تدريجياً أسمع حكايا لا تحصى عنهما هما الإثنان، وعن جدي وعن فترة طفولتي. واستمتعت بالانصات إلى حكايا عن الماضي والعائلة، ولم أعد اشعر بالاغتراب. ومن ناحية أخرى، تعلمتْ والدتي أن تدعني أعيش على طريقتي وأن

تثق بي، حتى عندما أقفل على نفسي باب غرفتي خلال ساعات العمل، أو عندما أكون متوتر الأعصاب. لقد كانت تعيش في منتهى السعادة مع والدي مما جعل من الصعب أكثر عليها أن تتحمل تجاربها ومحنها مع الآنسة شنيبل. لقد استعادت الآن ثقتها بنفسها من جديد وأخذت تكف بالتدريج عن التحدث عن تقدمها في السن وعن شعورها بالوحشة.

في قلب كل هذه الراحة والسعادة المتواضعة، غرق شعوري بالحزن والاستياء الذي طالما عايشته. لم يغص إلى أعماق لا يمكن سبرها وإنما توقف عند عمق روحي. كان يواجهني في الكثير منً الليالي ويطالب بحقوقه. وكلما ابتعد الماضي أكثر، ازداد وعيي بحبي وبحزني اللذين لازماني كمصدر هادئ للذكرى. وفي الماضي كنت بين حين وآخر أعتقد أني عاشق. وعندما كنت ما أزال شاباً صغيراً، متيماً بحب الجميلة "ليدي" التي لا تحمل هماً، حسبت أني أعرف ما هو الحب، ومرة أخرى، عندما قابلت غرترود للمرة الأولى وشعرت أنها تمثل الإجابة عن كل أسئلتي ورغباتي الغامضة، وعندما بدأ الألم وحلَّ الوله والأعماق المجهولة محل الصداقة والتفهم، وأخيراً عندما فقدتها، حسبت أني عرفت ما هو الحب. لقد ظل حبها يتملكني دائماً وأدركت أني لن أرغب في أي امرأة أخرى ولن أرغب في تقبيل شفتي امرأة أخرى منذ أن مَلَكَ حب غرترود عليَّ قلبي.

بدا أن والدها الذي كنت أقوم بزيارته من وقت إلى آخر، كان يعرف حقيقة مشاعري نحوها. وسالني عن المقطوعة الموسيقية التي ألَّفتها بمناسبة زفافها وأبدى لي مشاعره الودية الهادئة. لا بد أنه شعر بمدى سعادتي لسماع أخبارها وبمقاومتي للسؤال، ونقل إليَّ الكثير من

محتويات رسائلها. وكانت كثيراً ما تضم شيئاً عني، خاصة فيما يتعلق بمقطوعة الأوبرا. وقالت إنه تم العثور على مغنية جيدة لكي تؤدي دور السوبرانو، وأنه سيسرها كثيراً أن تسمع هذا العمل الحبيب إلى قلبها بكامله في آخر المطاف. وكانت أيضاً سعيدة لأني أحضرت أمي لتعيش معي. ولم أعرف ماذا كانت تقول عن ميوث.

استمرت حياتي بسلام، ولم تعد التيارات الداخلية تحاول أن تشق طريقها عنوة إلى السطح. كنت أعمل على إنجاز "قداس" وأفكر في التحضير لأوراتوريو كنت ما أزال أبحث له عن نص. وعندما أُضطر إلى التفكير في الأوبرا، تبدو لي كعالم غريب. لقد كانت موسيقاي تتطور في اتجاهات أخرى، كانت تغدو أبسط وأشد هدوءً، وأصبح هدفها أن تهدِّئ الأعصاب، لا أن تثيرها.

خلال هذه الفترة، كان آل تايزر مصدر راحة عظمى لي. كنا نتقابل تقريباً في كل يوم. ونعزف موسيقى، ونخرج لنتمشى معاً، ونشترك في قضاء أيام الإجازات والنزهات. فقط في فصل الصيف، عندما لا أرغب في إعاقة تينك النشيطين في سيرهما، كنا نفترق بضعة أسابيع. ومن جديد جاب آل تايزر مناطق تيرول وفورالبرغ، وأرسلا إليَّ صناديق صغيرة من أزهار الإيدلفايس. أما أنا فصحبت أمي إلى أقاربها في شمال ألمانيا، وكانت تقوم بزيارتهم في كل عام. واستقريت أنا على شاطئ بحر الشمال. وهناك رحت أنصت ليلاً ونهاراً إلى أغنية البحر القديمة، وكانت وسط الهواء اللاذع والمنعش تصاحب أفكاري وأنغامي. من هنا واتتني الشجاعة لأكتب إلى غرترود في ميونيخ للمرة الأولى، ليس إلى السيدة ميوث، وإنما إلى صديقتي غرترود التي حكيت لها عن موسيقاي وأحلامي. قلت في نفسي، ربما أدخلتُ

السرور إلى قلبها، ولا ضرر من بضع كلمات رقيقة وتحيات ودِّية. ولم يسعني، ورغماً عني، إلا أن أسيء الظن بصديقي ميوث، وكنت على الدوام أضمر قليلاً من القلق على غرترود. لقد كنت على معرفة تامة بهذا الرجل الكئيب، المتشبث برأيه، المعتاد على التعبير عن كل تقلبات مزاجه ولا يضحي أبداً من أجل أي إنسان، الذي تحثه دوافع قوية، وينظر إلى حياته برمتها، عندما يكون في حالات من التفكير الأعمق، على أنها مأساة. وإذا كان إحساسُ المرء بالوحشة وبأنه مُساء فهمه هو فعلاً مرض، كما أعلن صديقي العزيز السيد لوهه، فإن ميوث كان يعاني من هذا المرض أكثر من أي إنسان آخر.

لم تصلني أي أخبار منه. لم يكاتبني. حتى غرترود لم ترسل لي إلا رسالة شكر قصيرة تطلب مني فيها أن آتي إلى ميونيخ في أوائل فصل الخريف، بما أن التدريبات على أوبراي سوف تبدأ هناك في بداية الموسم.

في بداية أيلول، بعد عودتنا جميعاً إلى البلدة لنمارس حياتنا اليومية، زارني آل تايزر ذات مساء في منزلي ليلقيا نظرة على عملي الذي أنجزته خلال فصل الصيف. وكان أهم عمل هو مقطوعة غنائية قصيرة لآلتي كمان وبيانو. وعزفناها. جلست بريجيت عند البيانو، وكان في إمكاني أن أرى من فوق النوتة الموسيقية راسها وشعرها الأشقر المضفور الكثيف، الذي كان يلمع من قمته كلمعان الذهب على ضوء الشموع. ووقف أخوها إلى جانبي وعزف الجزء المخصص للكمان الأول. كانت مقطوعة غنائية، بسيطة، خفتت ثم تلاشت مثل أمسية صيفية، لا هي فرحة ولا هي حزينة، لكنها ترفرف وسط جو أمسية تنصرم، مثل غيمة تتوهج عند الغروب. وأحبَّ آل تايزر هذه المقطوعة، خاصة بريجيت. وكانت نادراً ما تبدي رأياً في موسيقاي، وإنما تكتفي بالاحتفاظ بهدوء بنوع من الخوف الأنثوي الطفولي

نحوي، وهي تتأملني بإعجاب، لأنها كانت تعتبرني موسيقياً عظيماً. أما اليوم فقد استجمعت شجاعتها وعبَّرت عن سرورها الخاص. ونظرت إليَّ نظرة صريحة بعينيها الزرقاوين الباهتتين وأومأت برأسها تشجيعاً حتى أن النور تلألأ على جدائلها الشُقْر. لقد كانت على جانب كبير من الحسن، بل يمكن القول إنها جميلة.

لكي أدخل السرور إلى قلبها، تناولتُ النوتة المخصصة للبيانو وكتبت عليها إهداءً بالقلم الرصاص في أعلاها: «إلى صديقتي بريجيت تايزر»، ثم أعدتها إليها.

قلت بشهامة: «سيظل دائماً موجوداً في أعلى هذه المقطوعة الصغيرة بعد الآن»، ثم انحنيت لها. قرأتْ الإهداء ببطء وتضرجتْ وجنتاها خجلاً. ومدَّت يدها القوية الصغيرة إليَّ وفجأة تغرغرت عيناها بالدموع.

سألتني بهدوء: «أأنت جاد؟».

قلت: «أوه، نعم. وأعتقد أن هذه المقطوعة الموسيقية تناسبك تماماً، يا آنسة بريجيت»، ثم ضحكت.

فوجئت إذ رأيت أن عينيها كانتا ما تزالان تتغرغران بالدموع، لقد كانت ردَّة فعلها شديدة الرصانة والأنثوية - لكني لم أولِ المسالة مزيداً من الاهتمام. وكان تايزر قد وضع كمانه جانباً، وملأت أمي الكؤوس بالنبيذ، وكانت قد باتت تعرف ما يعجبه. ودبَّت الحيوي في الحديث الدائر. وتناقشنا حول أوبريتاً جديدة كانت قد قدِّمت قبل بضعة أسابيع، ولم أتذكر الحادثة الصغيرة التي جرت مع بريجيت ثانية إلا مرة واحدة في وقت لاحق من الأمسية عندما همّا معاً بالمغادرة وفي مرة أخرى رمتني بنظرة غريبة.

في تلك الفترة بدأت التدريبات على أوبراي في ميونيخ. ولما كان أحد أبرز الأدوار موجوداً بين يدي ميوث الأمينة وكانت غرترود قد أطرت السوبرانو، أصبح أمر الأوركسترا والكورس هما اهتمامي الرئيسي. وتركت والدتي في رعاية صديقيّ وسافرت إلى ميونيخ.

في صباح اليوم الذي تلا وصولي، انطلقت أجوب الشوارع العريضة الجميلة متوجهاً إلى شفابينغ حيث يقوم المنزل الهادئ الذي يعيش فيه ميوث. وكنت قد نسيت تماماً تقريباً أمر الأوبرا. كنت أفكر فقط فيه وفي غرترود وكيف سأجدهما. توقفت العربة في طريق فرعية شبه ريفية أمام منزل صغير قائم بين أشجار منظرها خريفي. وكانت أوراق أشجار القبقب الصفراء ملقاة على كلا جانبي الطريق، تنحرف لتشكل أكواماً.

دخلتُ ينتابني شيء من الخوف. أوحى إليّ المنزل بانطباعٍ كونه مريحاً ومرفهاً. وتناول الخادم معطفي مني.

في الغرفة الفسيحة التي أُدخلتُ إليها، ولاحظت وجود لوحتين قديمتين كبيرتين جُلبتا من منزل آل إمثور. وعلى أحد الجدران عُلِّقت صورة شخصية جديدة لميوث رُسمت له في ميونيخ. وبينما كنت أتفرج عليها، دخلت غرترود.

تسارع وجيب قلبي لمرآها من جديد بعد مرور ردح طويل من الزمن. كانت قد تغيرت فأصبحت امرأة أكثر نضجاً، وجدية، لكنها ابتسمت لي بالطريقة الودية القديمة ومدت يدها لي.

سألت بأسلوب وديّ: «كيف حالك؟ لقد أصبحت أكبر في السن لكنك تبدو بحال جيدة. إننا نتوقع زيارتك منذ وقت طويل».

سألت عن أصدقائها، وعن والدها وأمي، وبعدما تنامى اهتمامها وتغلبت على حيائها الأولي، أخذت أتأملها كما كنت قد فعلت في

الماضي. وفجأة، تلاشى ارتباكي ورحت أتحدث معها كصديق صدوق، وأخبرها عن قضائي فصل الصيف على شاطئ البحر، وعن عملي، وعن آل تايزن، وأخيراً حدثتها عن المسكينة الآنسة شنيبل.

هتفت قائلة: « والآن، ها أن أوبراك ستعرض! وسوف تسعد بها كثيراً ».

قلت: « نعم، بل إنني أكثر سعادة لأني سأسمعك تغنين مرة أخرى ».

ابتسمت وقالت: « أنا أيضاً سأكون سعيدة. إنني كثيراً ما أغني، ولكن غالباً لنفسي ووحدي. سوف أغني كل أغانيك. إنها عندي هنا، ولا أدع الغبار يستقر عليها. إبق معنا لنتناول الطعام معاً. سيعود زوجي قريباً ويمكنه أن يرافقك لمقابلة قائد الأوركسترا بعد الظهر».

انتقلنا إلى غرفة الموسيقى وغنت أغنياتي. ولزمتُ الصمت، وكان صعباً عليّ أن أبقى هادئاً. لقد أضحى صوتها أكثر نضجاً وبدا أكثر ثقة في تعبيره، لكنه كان يحلّق بيسر كعهده دائماً ويحملني معه على جناح الذكرى إلى أحلى أيام حياتي، حتى إني كنت أنظر إلى مفاتيح البيانو كالمفتون، أعزف بهدوء الأنغام التي أعرفها جيداً، ولم أتمكن خلال بضع هنيهات، وأنا أنصت مغمض العينين، من التمييز ما بين الحاضر والماضي. ألم تكن تنتمي إليّ وإلى حياتي؟ ألم نكن متقاربين كتقارب أخ وأخته، وكنا صديقين حميمين؟ لا شك في أنها لو كانت مع ميوث لغنّت بشكل مختلف!.

جلسنا نتسامر قليلاً، ترفرف علينا السعادة وليس لدينا الكثير من الكلام لنتبادله، لأننا كنا نعرف أن لا حاجة بنا إلى أي تفسيرات. عندئذ لم أفكر في سؤالها عن مجريات أمورها وعن طبيعة العلاقات القائمة بينها وبين زوجها. كان في وسعي أن أعرف ذلك لاحقاً. وعلى

أية حال، لم تكن قد انحرفت عن سبيلها وخانت طبيعتها، وإذا كان عبؤها ثقيلاً، فلا ريب في أنها سوف تتحمله بكل نبل وبدون شعور بالمرارة.

بعد ذلك بساعة، دخل علينا هاينريش، الذي كان قد سمع أنني وصلت. وللتو أخذ يتحدث عن الأوبرا، التي بدت أكثر أهمية بالنسبة إلى كل إنسان آخر مما كانت بالنسبة إليّ. سألته عن حاله وكيف يجد المقام في ميونيخ.

قال بجدية: «كأي مكان آخر. إن الراي العام لا يحبني لأنه يبدو أني لا آبه له. ولدى ظهوري الأول لم يكن الاستقبال مرحباً. إنني دائماً أضطر إلى أن أمسك بالناس وأحملهم معي. بهذه الطريقة نجحت بدون أن أكون محبوباً. إنني حتى أحياناً أغني بشكل سيء، ولا بد أن أعترف بهذا بنفسي. والحق، إن أوبراك سوف تلقى نجاحاً. كن واثقاً من هذا ـ لصالحك ولصالحي. واليوم سنذهب لنقابل قائد الأوركسترا، وغداً سوف تدعو السوبرانو إلى الحضور لنجتمع بها وسوف تقابل كل من تريد مقابلتهم. وغداً صباحاً سيكون هناك تدريب أوركسترا لي. وأعتقد أنك ستكون راضياً».

أثناء تناول طعام الغداء لاحظت أنه كان مهذباً بصورة استثنائية مع غرترود، مما أثار ريبتي. وظل الحال هكذا طوال فترة وجودي في ميونيخ، وكنت أراهما معاً في كل يوم. وكانا زوجاً على قدر غير عادي من الوسامة ويلفتان الانتباه أينما ذهبا. وكانا يتعاملان مع بعضهما ببرود، وحسبت أن قوة شخصية غرترود وطبيعتها المتفوقة وحدهما مكناها من إخفاء هذا البرود بطبقة رقيقة من التهذيب والوقار. وكأنه لم يمض وقت طويل على استيقاظها من

شغفها بهذا الرجل الوسيم وما تزال تأمل في أن تستعيد سكينتها الداخلية السابقة. وعلى أي حال، لقد تصرفت وفقاً للشكليات المتعارف عليها. لقد كانت مفرطة التهذيب والمثالية بحيث تلعب دور المرأة الخائبة الأمل والمُساء فهمها أمام الأصدقاء وتكشف عن حزنها السري لأي إنسان، على الرغم من أنها لم تتمكن من إخفائه عني. لكنها أيضاً لم تكن لتحتمل أي نظرة أو إيماءة فهم أو تعاطف مني. لقد تحدثنا وتصرفنا طوال الوقت وكأن زواجها لا تشوبه أية شائبة.

لم يكن واضحاً إلى كم من الوقت سيدوم هذا الوضع، فالأمر يعتمد على ميوث، الذي رأيت ولأول مرة أن طبيعته المتقلبة تقيِّدها امرأة. لقد شعرت بالرثاء لهما معاً لكني لم أدهش كثيراً عندما اكتشفت الوضع على هذا الشكل. لقد كانا يستمتعان معاً بشغفهما، والآن بات عليهما إما أن يتعلما الإذعان وأن يحفظا هذا الزمن السعيد في ذاكرتيهما، أو أن يتعلما أن يشقا طريقهما إلى نوع جديد من السعادة والحب. ولعل ولادة طفل تعيد الوئام فيما بينهما، ولا أقول يعودان إلى جنة لهيب الحب التي خرجا منها، وإنما إلى إرادة جديدة للحياة معاً وللتقارب. وكنت أعلم أن غرترود تمتلك القوة وتتصف بصفاء الشخصية اللازمتين لذلك. ولم أجرؤ على التساؤل فيما إذا كان هاينريش أيضاً يمتلك المقدرة ذاتها. ومهما بلغ مقدار شعوري بالرثاء لأن عاصفة الشغف والمتعة العاتية الأولية التي عصفت بهما قد خفتت، فإني قد سُررت لطريقة سلوكهما معاً لمحافظتهما على كرامتهما وسمعتهما ليس فقط أمام الناس وإنما أيضاً فيما بينهما.

في تلك الأثناء، لم أوافق على تلبية الدعوة لأمكث في بيت ميوث، وهو لم يلح عليّ في ذلك. وأخذت أتردد عليهما في كل يوم وقد اسعدني

أن ألاحظ أن غرترود ترحب بزياراتي، وتستمتع بالتسامر معي وبعزف الموسيقى، لذا لم أكن أنفرد بالاستمتاع.

بات من المؤكد تماماً أن أوبراي ستقدم في شهر كانون أول ومكثت في ميونيخ مدة أسبوعين، حضرت خلالهما تدريبات الأوركسترا كلها، وأجريت بعض التغييرات والتعديلات هنا وهناك، لكن العمل كان بين أيدٍ أمينة. ووجدت من الغريب أن أرى المغنين، وعازفي الكمان والفلوت، وقائد الأوركسترا والكورس منهمكين في عملي الذي أصبح الآن غريباً عني، واكتسب حياة وأنفاساً لم تعد تخصني.

قال هاينريش ميوث: «فقط انتظر، قريباً ستضطر إلى أن تتنفس هواء الشهرة الملعون. إني أكاد أتمنى لمصلحتك أن تفشل الأوبرا فعندئذ سيطاردك الرعاع. عندئذ ستضطر إلى أن تتعامل مع خصلات الشعر والصور الفوتوغرافية، وأن تتذوق طعم استحسان الجمهور المعجب بك ولطفه. إن الجميع قد بدأوا لتوهم يتحدثون عن ساقك المعاقة، فمثل هذه الأشياء تساهم في شهرة الإنسان!».

بعد أن قمت بالتدريبات اللازمة رحلت، وفي نيتي أن أعود قبل بدء العرض ببضعة أيام. وطرح عليّ تايزر سيلاً لا ينتهي من الأسئلة عن التدريبات. وكان يفكر في عدد لايحصى من التفاصيل الأوركسترالية لم تخطر في بالي وكان أشد توتراً وقلقاً بشأن الأمر كله مني. عندما دعوته وأخته لمرافقتي لحضور العرض، قفز فرحاً. ومن ناحية أخرى، لم ترحب أمي بسفر الشتاء وبكل الإثارة، ووافقتُ على تخلفها. وأخذت أشعر بالتدريج بازدياد توتري واضطررت إلى أن اشرب كأس من البورت ليلاً لتعينني على النوم.

حل الشتاء باكراً، وغطى الثلج منزلنا الصغير وحديقتنا بطبقة سميكة، وذات صباح عرّج عليّ آل تايزر مع عربة. لوّحت أمي لنا

مودعة من النافذة، وانطلقت العربة بنا، كان تايزر يتلفع بوشاح سميك، ويغني أغنية السفر. كان على امتداد الرحلة الطويلة أشبه بفتى يسافر متوجهاً إلى وطنه لقضاء عطلة عيد الميلاد، وكانت الجميلة بريجيت متوردة، وتعبِّر عن سرورها بهدوء أكبر. كنت سعيداً بصحبتهما، ولم أعد هادئاً، ورحت أنتظر وقوع أحداث الأيام القليلة القادمة كالمحكوم بالإعدام.

لاحظ ميوث ذلك للتو، وكان ينتظرني في محطة القطار. قال وهو يضحك باستمتاع: « إنك تعاني من رهاب المسرح، أيها الشاب. الحمد لله على ذلك! فأنت، قبل كل شيء، موسيقي ولست فيلسوفاً ».

بدا لي على حق، لأن توتري استمر إلى أن بدأ العرض، وخلال تلك الليالي لم تعرف عيناي النوم. وكان ميوث هو الشخص الوحيد الهادئ الأعصاب بيننا. كان تايزر يتحرق توتراً، وكان يحضر كل التدريبات ويبدي عدداً لا يحصى من الانتقادات. وخلال التدريبات كان يجلس إلى جانبي، رابضاً ومنتبهاً، يوقّع مع الإيقاع بيده المشدودة أثناء الفقرات الصعبة، وكان بالتناوب إما يطري أو يهز راسه استنكاراً.

خلال التدريب الأوركسترالي الأول الذي حضره، قال، بصوت عال جداً، حتى أن قائد الأوركسترا مدّ بصره نحونا مبدياً انزعاجه: « هناك فلوت ناقص! ».

قلت وأنا أبتسم: « اضطررنا إلى إلغائه ».

« تلغون فلوتاً؟ لماذا؟ أي جنون هذا! إحذر، وإلا أفسدوا الافتتاحية كلها ».

كان لا بد لي أن أضحك وأعيده عنوة إلى الخلف لأنه كان نقّاداً. لكنه خلال الجزء المفضل لديه، الذي تشترك فيه آلات الفيولا

والتشيللو، مال إلى الخلف وأغمض عينيه، وأخذ يضغط على يدي بين حين وآخر، وبعد ذلك يهمس في أذني خجلاً: « هذا الجزء يكاد يجعل الدموع تطفر من عيني. إنه جميل! ».

لم أكن قد سمعت بعد الجزء المخصص للسوبرانو. وقد بدا لي الآن غريباً وحزيناً على أذني وأنا أسمعه للمرة الأولى بصوت مغنية أخرى. وقد أحسنتْ الغناء، وشكرتُها حالما انتهت، لكني في دخيلتي تذكرت فترات بعد الظهر التي كانت غرترود خلالها تغني تلك الكلمات، وانتابني شعور بسخط مكبوت كمن يمنح شيئاً ثميناً ويراه للمرة الأولى بين أيد غريبة.

خلال تلك الأيام لم ار غرترود كثيراً. كانت تراقب توتري وهي تبتسم وتدعني وشأني. وكنت قد زرتها بصحبة آل تايزر، واستقبلتْ بريجيت استقبالاً حاراً، وامتلأت الفتاة إعجاباً بالمرأة الحسناء، الجميلة. ومنذ ذلك الوقت أخذت تتحمس لغرترود وتفرط في إطرائها، وحذا أخوها حذوها.

لم أعد أتذكر تفاصيل اليومين اللذين سبقا العرض، إن كل شيء مشوش في ذهني. لقد كانت هناك أسباب إضافية للتوتر، فقد أصيب أحد المغنين ببحّة في صوته، وانزعج آخر لأنه لم يحصل على دور أكبر وعبَّر خلال التدريب الأخير عن تأذيه، وأضحى قائد الأوركسترا أكثر بروداً وتمسكاً بالشكليات نتيجة لتعليماتي. وقد هبَّ ميوث لمساعدتي في لحظات مناسبة، وكان يبتسم في وجه كل ذاك الاضطراب، وفي ذلك الوقت كان ذا قيمة لي أكثر من تايزر، الذي كان يهرع راكضاً هنا وهناك كالعفريت ويلقي انتقاداته في كل مكان. وكانت بريجيت ترنو إليّ بإجلال ولكن أيضاً بشيء من الهدوء، وقد لفّنا الإرهاق والصمت.

مرت الأيام وحلّت ليلة العرض. وبينما كان النظارة يدخلون المسرح، وقفت خلف خشبة المسرح لا أجد ما أفعله أو نصيحة أقدمها. وأخيراً، لازمتُ ميوث، الذي كان قد ارتدى زيه، ثم جلس في غرفة صغيرة بعيدة عن الضوضاء برمتها يعمل ببطء على شرب نصف زجاجة من الشمبانيا.

قال بلهجة متعاطفة: «هل لك في كأس؟».

قلت: «لا، ألا يسبب لك توتراً زائداً؟».

«ماذا؟ أتقصد كل ذاك النشاط الدائر في الخارج؟ إن الأمر هكذا دائماً».

«أنا أقصد الشمبانيا».

«أوه، لا، بل إنه يهدئني. إنني دائماً أشرب كأساً أو اثنين قبل أن اؤدي أي عمل. ولكن عليك أن تذهب الآن، يكاد يحين الوقت.

قادني مرافق إلى مقصورة خاصة، وهناك وجدت غرترود مع آل تايزن، بالإضافة إلى شخصية بارزة من هيئة المسرح الإدارية، حيَّاني وهو يبتسم.

بعد سماع رنة الجرس الثانية مباشرة، وجَّهت غرترود إليَّ نظرة ودّية وأومأت برأسها مشجعة. وشدّ تايزن الجالس خلفي على ذراعي وقرصها من فرط إثارته. وأظلم المسرح، وتصاعد هدير افتتاحيتي بمهابة متناهياً إلى سمعي من الأسفل. هنا هيمنت عليّ السكينة.

ثم ظهر العمل أمام ناظري، مألوفاً جداً وأيضاً غريباً جداً، وقد استغنى عني تماماً وأصبحتْ له حياته الخاصة. وإذ بي وجهاً لوجه مع مسرات الأيام الماضية وأتراحها، والليالي وما اعتلج فيها من آمال وأرق، ومع شغف تلك الفترة واشتياقها، وقد انفصلتْ وتحولتْ.

والانفعالات التي عشتها في السر نُقلت بوضوح وبشكل مؤثر إلى ألف إنسان مجهول موجود في دار المسرح. ثم ظهر ميوث وبدأ بالغناء مع شيء من التحفظ. ثم أخذ صوته يعدو أقوى، وأطلق العنان لنفسه وراح يغني بانفعال عميق، وردّت عليه السوبرانو بصوت عذب عالي النبرة. ثم كان الجزء الذي تذكرت تماماً أداء غرترود له، والذي يعبّر عن إعجابي بها وكان اعترافاً صريحاً بحبي. وحولتُ بصري لأنظر في عينيها البراقتين ففهمتا رسالتي واستقبلتاهما بحرارة، وأضحت ذكرى شبابي كله برهة من الزمن أشبه بشذا عطر لفاكهة ناضجة.

منذ تلك اللحظة ازداد هدوء سريرتي وأخذت أنصت كأني فرد من النظارة. ثم ضجّت الصالة بالتصفيق. وظهر المغنون أمام الستارة وانحنوا. واستُدعي ميوث عدة مرات وهو يرسل ابتسامة هادئة إلى دار المسرح التي اضحت مضاءة الآن. وألحوا عليّ أيضاً كي أظهر، لكني كنت من فرط الانفعال بحيث كرهت أن أعرج خارجاً من معتزلي المريح.

من ناحية أخرى، ضحك وجه تايزر، وسطع كالشمس المشرقة، وعانقتْ ذراعه ذراعي وأخذ أيضاً يصافح كلتا يديّ الشخصية البارزة من الهيئة الإدارية للمسرح.

كانت المأدبة جاهزة وكانت ستقام حتى وإن فشلت الأوبرا. وانتقلنا إلى مكان المأدبة بواسطة عربات خيل، غرترود مع زوجها، وآل تايزر وأنا معاً. وخلال فترة الانتقال القصيرة، إذا ببريجيت، التي لم تكن حتى ذلك الوقت قد نطقت بأي كلمة، تجهش فجأة بالبكاء. في أول الأمر حاولتْ أن تكبح نفسها، لكنها سرعان ما غطت وجهها بيديها وأرسلت دموعاً حَرَّة. ولم أرغب في أن اقول أي شيء ودُهشت لأن تايزر

بدوره قد لزم الصمت ولم يطرح أي أسئلة. واكتفى بإحاطتها بذراعه وغمغم ببضع كلمات رقيقة، مواسية كما يفعل المرء مع طفل.

فيما بعد، وخلال تبادل المصافحات، والتمنيات الطيبة والأنخاب، غمز ميوث لي بعينه متهكماً. وسالني الناس باهتمام عن عملي التالي وأصيبوا بالخيبة عندما قلت أنه سيكون أوراتوريو. ثم شربوا نخب الأوبرا التالية، التي لم أؤلفها حتى يومنا هذا.

لم أتمكن من سؤال تايزر عمّا ألمّ بأخته، ولماذا بكت، إلا في وقت متأخر جداً من تلك الأمسية، بعد أن غادرنا وكدنا نأوي إلى أسرتنا. أما هي فكانت قد خلدت إلى النوم منذ وقت طويل. ونظر إلي صديقي بحدة وبشيء من الدهشة، وهز رأسه وصفّر، إلى أن كررت سؤالي.

عندئذ قال مؤنباً: « إنك أعمى كخفاش. هل أفهم أنك لم تلاحظ أي شيء؟ ».

قلت وقد ازداد ارتيابي في الأمر: « لا ».

« حسن سأقول لك. إن الفتاة مولعة بك منذ وقت طويل. وطبعاً، هي لم تبح لي بهذا، كما لم تخبرك. لكني لاحظتُ ذلك، والحق أقول لك، كنتُ سأفرح كثيراً لو أن انسجاماً ما حصل بينكما ».

قلت وقد انتابني حزن حقيقي: « يا إلهي! ولكن ماذا كان خطبها في هذه الأمسية؟ ».

« تقصد لماذا بكت؟ يا لك من طفل! أتظن أننا لم نر؟ ».

« تريا ماذا ؟ ».

« يا للسماوات! لست مضطراً إلى أن تخبرني بأي شيء، وقد كنتَ محقاً في صمتك حول الأمر في الماضي. ولكن ما كان يجب أن ترنو إلى السيدة ميوث بتلك النظرة. والآن بتنا نفهم بوضوح تام ».

لم أطلب منه أن يحفظ سري. كنت أعلم أنه موضع ثقة. ووضع يده برفق على كتفي.

«في استطاعتي الآن، يا صديقي العزيز، أن أتصور بجلاء كل ما عانيته خلال تلك السنين بدون أن تبوح لنا بشيء. لقد مررتُ بدوري بتجربة مشابهة ذات مرة. فلنبق معاً حالياً لنضع بعض الموسيقى الجيدة، موافق؟ وأيضاً حتى نواسي الفتاة. هات يدك! لقد أدت عملاً رائعاً! حسن، الوداع حتى أراك ثانية في أرض الوطن! سأسافر عائداً مع بريجيت غداً صباحاً».

هنا افترقنا، لكنه بعد بضع لحظات عاد راكضاً وقال بجدية صارمة: «يجب إعادة إدخال الفلوت في العرض التالي. لا تنس!».

هكذا انتهى يوم من الابتهاج وبقينا جميعاً يقظين حتى ساعة متأخرة ونحن نفكر فيه. وفكرت أيضاً ببريجيت. كنت أقابلها كثيراً خلال الفترة الأخيرة وأصبحت صديقها المقرب، وكانت تلك أمنيتي، تماماً كما كانت غرترود صديقة لي. وعندما خمَّنتْ بريجيت أني أحب امرأة أخرى وقع لها ما وقع لي تماماً عندما اكتشفتُ الرسالة في منزل ميوث وأقدمت فيما بعد على شحن مسدسي. وعلى الرغم من أن الأمر سبب لي الحزن، إلا أنه لم يسعني إلا أن أبتسم.

أمضيت بقية أيامي وأنا في ميونيخ مع آل ميوث. لم يعد الأمر كم كان في السابق عندما كنا نحن الثلاثة نمضي فترات بعد الظهر أولاً في الغناء والعزف معاً، ولكن بعد خبو وهج عرض الأوبرا، لم يبق غير ذكرى مشتركة صامتة لذاك الوقت، وأيضاً بين حين وآخر في إعادة إضرام مشاعر سابقة بين ميوث وغرترود. وأخيراً، وبعد أن ودعتهما، التفتُّ لألقي نظرة عابرة إلى المنزل الذي

تلفّه السكينة من بين الأشجار الجرداء. وتمنيت أن أعود إلى هناك ذات يوم وكان سيسعدني أن أهب نجاحي الصغير وسعادتي مقابل أن أساعد هذين الاثنين اللذين في الداخل على أن يعود الوئام بينهما وإلى الأبد.



8

كما توقع هاينريش، وبعد عودتي إلى الوطن، أخذت نتائج نجاحي تلاحقني بعواقب كثيرة غير مرغوبة وأيضاً بأخرى مسلية. وقد كان من السهل التخلص من المشاكل التجارية بوضع المسائل المتعلقة بالأوبرا بين يدي وكيل. ولكن كان هناك أيضاً زائرون، وصحافيون، وناشرون ورسائل حمقاء، وقد استغرق مني بعض الوقت لأتأقلم مع الأعباء الصغيرة الناجمة عن الشهرة المفاجئة ولأبرأ من خيبة الأمل الأولى. إن الناس يطالبون بحقوقهم من المشاهير بطرق ملفتة للنظر. إنهم لا يفرقون بين الأطفال المعجزة، والمؤلفين الموسيقيين، والشعراء، واللصوص والقتلة. فأحدهم يريد صورة الشخص المشهور، وآخر يريد إمضاءه، وثالث يتسول مالاً، وكل زميل شاب في المهنة يرسل عمله، ويغدقه بالتقريظ ثم يطلب إبداء رأيه. فإذا لم يُجب، أو أعطى رأياً لم يعجبه، إذا بهذا المعجب نفسه يصبح فجأة لدوداً، وهمجياً وممتعضاً. وتطلب المجلات صور الشخص المشهور وتسرد الصحف قصة حياته، ومنشأه وشكله، ويتذكره أصدقاء الدراسة، ويعلن الأقرباء البعيدون

أنهم كانوا قد قالوا قبل سنين مضت إن قريبهم سوف يغدو شخصاً مشهوراً ذات يوم.

من بين هذه الرسائل التي ترهقني، وصلتني أيضاً واحدة من الآنسة شنيبل أضحكتني، وواحدة من إنسان كنت قد نسيت أمره منذ فترة طويلة. كانت من الحسناء "ليدي" التي كاتبتني، بدون أن تأتي على ذكر ركوبنا المزلجة، بوصفها صديقة قديمة مخلصة. كانت قد تزوجت مدرّس موسيقى في مسقط راسها وأعطتني عنوانها لكي أرسل لها قريباً كل مؤلفاتي ممهورة بإهداء رقيق إليها. وأرفقتْ الرسالة بصورة فوتوغرافية تبين التقاسيم الشهيرة وقد ازدادت سناً وخشونة. فأرسلت لها بعبارات تفيض بالود.

غير أن الأشياء الصغيرة تنتمي إلى النقاط الثانوية التي لم تخلّف أثراً هاماً. حتى ثمار نجاحي الطيبة والمنعشة، كالتعرُّف إلى أناس مثقفين ومميزين تمتزج الموسيقى في أرواحهم وليس فقط يتحدثون عنها، لم تكن نتاج حياتي الحقيقية التي ظلت، لاحقاً، كما في الماضي، منفصلة، ولم يطرأ عليها تغيير يُذكر منذ ذلك الحين. ولم يبق لي إلا أن أحكي لك عن تحول أحداث حياة أعز أصدقائي.

لم يكن العجوز السيد إمثور مسلياً كعادته خلال فترة غياب غرترود. غير أنه كان يقيم أمسية موسيقية، مرة كل ثلاثة أسابيع، بين الأعداد الغفيرة من الصور التي تزين منزله، بمختارات من موسيقى الحجرة، وكنت أحضرها بانتظام. وكنت أحياناً أحضر تايزر معي، لكن إمثور ألحّ عليّ كي آتي لزيارته بعيداً عن الزائرين. لذا كنت أتوجه أحياناً إلى هناك في المساء، الوقت المفضل لديه، وأبقى في صحبته في غرفة مكتبه ذات الأثاث البسيط، حيث علّق صورة لغرترود على أحد جدرانها. وقد توصلتُ والسيد إمثور العجوز

بالتدريج، على الرغم من التحفظ الظاهري في تعاملنا معاً، إلى تفاهم تام وشعرنا بحاجة إلى تبادل الحديث، لذا لم يكن من النادر بالنسبة إلينا أن نتحدث عن أكثر ما يشغل أفكارنا. واضطررت إلى أن أحدثه عما وقع في ميونيخ ولم أخف عنه الانطباع الذي تركته العلاقة القائمة بين الزوجين. فأومأ برأسه متفهماً.

قال وهو يتنهد: « قد يتحول كل شيء تحولاً حسناً، ولكن لا يسعنا أن نفعل أي شيء. إنني أتطلع إلى حلول فصل الصيف، حيث سأجتمع بابنتي مدة شهرين. إنني نادراً ما أزورها في ميونيخ، ولا أحب أن أذهب إلى هناك. ثم إنها تتصرف بشجاعة فائقة بحيث أني لا أرغب في أن أزعجها وأجعلها تضعف ».

لم تجلب رسالة غرترود أي أخبار ولكن عندما قامت بزيارة والدها قرابة عيد الفصح، وزارت بيتنا الصغير، بدت نحيلة ومتوترة الأعصاب، وعلى الرغم من أنها حاولت أن تكون طبيعية معنا وأن تخفي ما لديها، فإننا غالباً كنا نرى تعبير عجز غير معهود على وجهها، وقد أضحى رزيناً. عزفتُ لها مقطوعة ألفتها، ولكن عندما طلبت منها أن تغني شيئاً لنا، هزت راسها برفق رافضة.

قالت غير متأكدة: « في وقت آخر».

لقد تبين لنا جميعاً أنها تعيسة، وقد اعترف لي والدها لاحقاً أنه اقترح عليها أن تبقى معه إلى الأبد، لكنها رفضت.

قلت: « إنها تحبه ».

هز كتفيه لامبالياً ثم رماني بنظرة أسى: « لا أدري. ومن يستطيع أن يحلل هذا الوضع البائس لكنها قالت إنها ستبقى معه إكراماً له. وهو شديد الحيرة والتعاسة ويحتاج إليها أكثر مما يظن. إنه لا يبوح لها بأي شيء، لكن هذا مرتسم على وجهه ».

ثم أخفض الرجل العجوز صوته وقال بهدوء شديد وبإحساس بالخجل: « إنها تعني أنه يعاقر الخمر».

قلت، محاولاً أن أواسيه: « لقد كان دائماً يفعل ذلك قليلاً، لكني لم أره قط ثملاً. إنه في هذا المجال يكبح نفسه. وهو من النوع العصبي غير المعتاد على الانضباط، ولكن لعله يجلب إلى نفسه من المعاناة أكثر مما يسبب للآخرين ».

لم يكن أي منا يعرف مدى ما كان هذان الرائعان يعانيان في السر، ولا أعتقد أنهما كفّا عن أن يحب أحدهما الآخر، ولكنهما في أعمق أعماق طبيعتيهما لم يكن أحدهما ينتمي إلى الآخر، وهما لم يتقاربا إلا من خلال الشغف وعبر ثمالة ساعات النشوة. إن القبول الهادئ للحياة والفهم الصامت لطبيعته شيئان لم يعرفهما ميوث قط ولم يكن في وسع غرترود إلا أن تصبر على نوبات ثورته وكآبته، وتقلبات مزاجه السريعة، ورغبته المتواصلة في إنكار ذاته والثمالة، وتأسف لها، غير أنها لم تستطع أن تتغير أو أن تتعايش معها. وهكذا أحبّ أحدهما الآخر، ولكنهما لم يتقاربا كما يجب قط، وفي حين أنه كان يرى أنه خُدع وسُرق من آماله في العثور على السكينة والسعادة من خلال غرترود، أدركت هي وتألمت لدى معرفتها أن نواياها الطيبة وتضحياتها قد ذهبت عبثاً، وأنها عاجزة عن مواساته وعن إنقاذه من نفسه. وهكذا إذا بحلم كل منهما السري وأعز أمنياته يتبدد. ولم يتمكنا من البقاء معاً إلا بتقديم التضحيات والتجمل بالصبر، وهذه شجاعة منهما.

لم أقابل هاينريش من جديد إلا في الصيف عندما أحضر غرترود إلى والدها. كان اشد رقة معها ومعي، وأكثر انتباهاً إلينا من أي وقت سابق. وأدركت كم كان يخشى أن يفقدها، وشعرت أيضاً أنه لن

يتمكن أبداً من تحمل خسارة كتلك. لكنها كانت مرهقة ولم ترغب إلا في الراحة والهدوء لكي تلملم شتات أمرها وتستعيد قواها وسكينة نفسها. أمضينا أمسية هادئة معاً في حديقة بيتنا. جلست غرترود بين بريجيت وأمي، التي أمسكت يدها. وأخذ هاينريش يتمشى بهدوء جيئة وذهاباً بين الورود، وعزفتُ مع تايزر سوناتا على الكمان على المصطبة. إن مرأى غرترود جالسة بارتياح هناك تستمتع بسلام تلك السويعات، وكيف كانت بريجيت تلتصق بحب بالمرأة الجميلة والحزينة، وميوث الذي طأطأ راسه وهو يتمشى في الظل بهدوء وينصت إلينا، كانت أشياء انطبعت صورتها في مخيلتي بشكل لا يمحى. بعد ذلك، قال هاينريش بما يشبه المزاح ولكن بعينين حزينتين: «فقط انظر إلى النسوة الثلاث الجالسات معاً، الوحيدة بينهن التي تبدو سعيدة هي أمك. علينا نحن أيضاً أن نحاول أن نتقدم في السن مثلها».

بعد هذا، ذهب كلٌ في طريقه. سافر ميوث إلى بايروث، وذهبت غرترود مع والدها إلى الجبال، وتوجه آل تايزر إلى شتاير مارك، وعدتُ مع والدتي إلى ساحل بحر الشمال. وهناك أكثرتُ في التمشي على طول الشاطئ، أنصتُ إلى البحر، وأفكر، كما كنت أفعل وأنا في شبابي وأنا مذهول ومرتعب، في فوضى الحياة العبثي والمحزن، في أنه يمكن للحب أن يكون بلا طائل، وأن على الذين يتبادلون مشاعر الود أن يصنع كل منهم قدره وحده، وأن يذهب كل منهم في طريقه المجهولة، وكيف أن كل منهم يجب أن يساعد الآخر ويقترب أكثر منه ومع ذلك يعجز عن فعل ذلك، كما يحدث في الأحلام المضطربة المبهمة. وكثيراً ما فكرت في ملاحظات ميوث عن الشباب والشيخوخة، وتساءلت إن كانت الحياة ستبدو لي أشد بساطة

ووضوحاً. وعندما ذكرت هذا لأمي في سياق تبادل الحديث ابتسمت وبدت هادئة تماماً. وجعلتني أشعر بالخجل من نفسي عندما ذكرتني بصديقي تايزر الذي لم يصبح عجوزاً بعد، لكنه راشد بما يكفي لتكون له حصة من التجارب ومع ذلك واصل الحياة ببال خال من الهم كطفل، وهو يترنم بألحان موتسارت. كان واضحاً أن هذا لا علاقة له بالسن، وأن معاناتنا وجهلنا ما هما ربما إلا المرض الذي حدثني عنه السيد لوهه. أمْ أن ذاك الرجل الحكيم كان طفلاً آخر مثل تايزر؟.

على أية حال، ما كان للتفكير والتأمل الحزين أن يغيرا أي شيء، فعندما كانت الموسيقى تحرك كياني، كنت أتوصل إلى فهم كل شيء بدون الاستعانة بالكلمات. وأعي عندئذ تناغم جوهر الحياة الصرف وأشعر بوجوب وجود معنى وقانون عادل خلف كل ما يحدث. وحتى لو أن ذلك كان وهماً، فإنه أعانني على الحياة وكان عزاءً لي.

ربما كان من الأفضل لو أن غرترود لم تبتعد عن زوجها خلال الصيف. لقد كانت قد بدأت تستعيد صحتها. وعندما رأيتها من جديد في فصل الخريف، بعد العودة من رحلتي، بدت أفضل حالاً واستعادت قدرتها على الاستمرار. لكن الآمال التي عقدناها على هذا التقدم قُدِّر لها أن تخفق.

كانت غرترود قد شعرت بتحسن أثناء مكوثها مع والدها بضعة اشهر. فقد استطاعت أن تستسلم إلى حاجتها إلى الراحة، وتمكنت من البقاء في هذه الحالة الهادئة، مع شعور بالارتياح، بعيداً عن العراك اليومي، كما يستسلم شخص تَعِبٌ إلى النوم عندما يُترك وحده. ولكن يبدو أنها كانت أشد إرهاقاً مما اعتقدنا ومما كانت تعرف هي نفسها، فمع اقتراب موعد عودة ميوث إليها، عادت إليها

الكآبة من جديد، وجافاها النوم، وتوسلت إلى والدها كي يدعها تطيل أكثر قليلاً فترة مكوثها معه.

طبعاً هذه الفكرة أرعبت إمثور، لأنه اعتقد أنها ستفرح بالعودة إلى ميوث بعد أن استعادت قواها وعزيمتها، لكنه لم يجادلها، بل إنه اقترح بحذر تمديد فترة الانفصال في الوقت الحاضر مع الأخذ في الاعتبار حصول الطلاق لاحقاً. فاعترضت بشدة على ذلك.

صرخت بعنف: «لكني أحبه، ولن أغدر به. كل ما في الأمر أن الحياة معه صعبة! إني فقط أريد أن أرتاح مدة أطول، ربما شهرين آخرين، إلى أن أشعر أني أقوى».

حاول إمثور أن يواسيها. من ناحيته لم يكن لديه اعتراض على بقاء ابنته معه مدة أطول. وكاتب ميوث ليخبره أن غرترود لم تستعد عافيتها بعد وأنه يتمنى أن تمكث معه بعض الوقت. ولسوء الحظ، لم يستقبل ميوث هذا النبأ استقبالاً حسناً. فخلال فترة فراقهما، تفاقم اشتياقه إلى زوجته كثيراً. وكان ينتظر بفارغ الصبر الاجتماع بها ثانية وكله عزم على أن يكسب حبها من جديد وبشكل كامل.

كانت رسالة إمثور إليه بمثابة خيبة أمل عظيمة له. فكتب له رسالة غاضبة ملؤها الارتياب في نوايا حميه. شعر أن هذا الأخير قد ألّبها ضده بما أنه يرغب في حل الزواج. وطالب باجتماع فوري بغرترود، التي أمل أن يستميلها إليه من جديد. وجاءني السيد إمثور حاملاً الرسالة ورحنا نتدبّر فترة طويلة حول ما يجب عمله. واعتبرنا نحن الاثنان أنه من الأفضل تجنب عقد لقاء بين الاثنين في الوقت الحاضر لأنه من الواضح أن غرترود لن تحتمل أي تفجيرات عاطفية. وكان إمثور شديد القلق وسألني إن كان في إمكاني أن أذهب لأقابل ميوث لأقنعه بترك غرترود في سلام بعض الوقت. الآن صرت أدرك

أنه كان عليّ أن أفعل ذلك. أما في ذلك الوقت كانت لدي بعض الشكوك واعتقدت أن من الحماقة أن أدع صديقي يعرف أني موضع سر حميه، وأني على علم بأمور تخص حياته لا يرغب هو في أن يكاشفني بها. لذا رفضت، وكل ما حدث أن السيد إمثور كتب رسالة أخرى، وطبعاً لم تفد بشيء.

غير أن ميوث هو الذي جاء بلا سابق إنذار وبث فينا جميعاً الرعب بعنف حبه وشكوكه الذي نادراً ما يكبحه. ودهشتْ غرترود، التي لم تعرف بأمر تبادل الرسائل القصير الأمد، واضطربت لظهوره المفاجئ ولانفعالاته شبه العنيفة. وكان مشهداً مؤلماً، لا أدري تفاصيله. كل ما أعرفه أن ميوث حث غرترود على العودة معه إلى ميونيخ، فأعلنت له أنها مستعدة لتنفيذ ما يشاء، ما دام لا بديل هناك، غير أنها طلبت أن يسمح لها بالبقاء مع والدها فترة أطول بما أنها مرهقة وما زالت بحاجة إلى الراحة. عندئذ اتهمها بأنها تريد أن تتخلى عنه، وألمح إلى أن والدها هو الذي حرضها على فعل ذلك. بل إن ريبته تعاظمت عندما حاولت برفق أن تشرح له الأمر، ثم كان من شدة الحماقة بحيث أنه في نوبة غضب ومرارة أمرها على عجل أن تعود إليه. عندئذ فرضت كبرياؤها نفسها، فلزمت الصمت ورفضت أن تسمع منه المزيد وأعلنت أنها الآن ستبقى مع والدها رغم كل شيء. في صباح اليوم الذي تلا وقوع هذا المشهد، حاول ميوث أن يسترضيها، وبعد أن أعرب عن خجله وندمه، رضخ لكل رغباتها، ومن ثم سافر عائداً إلى ميونيخ بدون أن يراني.

فزعتُ عندما سمعتُ عن الأمر واستشعرتُ المتاعب الآتية في الأفق وهو ما كنت أخشاه منذ البداية. وقلت في نفسي، بعد ذلك الحادث البشع والأحمق قد يمر وقت طويل قبل أن تهدأ غلواؤها

وتستعيد قواها ثانية، وفي تلك الأثناء كان هناك خطر أن يصبح متهوراً، وعلى الرغم من كل الأشواق التي تتنازعه، قد يزداد نفوراً منها، وسرعان ما سيتحمل العيش وحده في المنزل الذي كان فيه سعيداً فترة من الوقت. سوف يفسح المجال لليأس، ومعاقرة الخمر وربما إقامة علاقات مع نساء ما زلن يلاحقنه.

حتى ذلك الحين، كل شيء كان هادئاً. وراسل غرترود ومرة أخرى طلب غفرانها. وردت على رسالته وحثته، بأسلوب متعاطف وودي، على التجمّل بالصبر. وفي تلك الفترة لم أكن أراها. وحاولت أحياناً أن أقنعها بالغناء، لكنها كانت دائماً ترفض. لكني رأيتها مرات عديدة جالسة إلى البيانو.

لقد كان منظر هذه المرأة الأبيّة، الجميلة، التي طالما رايتها تفيض قوة، وبشراً وصفاءً، وها هي الآن ترتعش خوفاً على كيانها ذاته، منظراً غريباً عليّ. كانت أحياناً تأتي لزيارة أمي، وتسألها بحرارة عن أحوالنا، وتجلس إلى جانب العجوز على مقعد طويل رمادي اللون بعض الوقت، وتقوم بمحاولة للتسامر معها. وكان يحزنني أن أسمعها وأن أرى كم كان صعباً عليها أن ترسم ابتسامة. وكانت تحافظ على المظاهر وكأنما لا أنا ولا أي إنسان آخر نعرف بحزنها، أو نعتبره حالة عصبية وضعفاً جسدياً. لذا لم أكن أقوى على النظر في عينيها اللتين يرتسم فيهما بوضوح حزنها المكبوت، والمفترض أن أعرف به. كنا نتحدث ونعيش ونتقابل وكأن كل شيء هو كما كان دائماً، ومع ذلك لم نكن نشعر بالارتياح ونحن معاً وأخذ كل منا يتجنب الآخر. ووسط هذه الفوضى المحزنة من المشاعر، كانت بين حين وآخر تتملكني فكرة تسبّب لي إثارة مفاجئة، تقول إن قلبها لم يعد معلقاً بزوجها وإنها الآن حرة، وأن الأمر منوط بي في أن لا

أخسرها ثانية، بل أن أحظى بها لنفسي وألازمها وأحميها من العواصف والأحزان. ثم أقفلت باب غرفتي عليّ، وأخذت أعزف من جديد موسيقى أوبراي المفعمة بالحب العارم والشوق، ووجدتني أحبها فجأة من جديد وأفهمها، وأمضيت ليالٍ أرقاً ومترعاً باشوق، وعدت من جديد إلى معاناة كل عذابات الشباب السابقة المضحكة، والرغبات المحبطة، وبشدةٍ لا تقلُّ عما كان يحدث في الماضي عندما اشتهيتها للمرة الأولى ومنحتها تلك القبلة الوحيدة، التي لا تنسى. أحسست بها من جديد تحرق شفتيّ وفي غضون بضع ساعات دمّرتْ سكينة السنين وإذعانها.

فقط في حضور غرترود كان هيامي يخمد. وحتى لو كنت من الحماقة والخساسة بحيث أسعى لتحقيق رغباتي وحاولت، بلا أي اعتبار لزوجها الذي كان صديقي، أن أستولي على قلبها، لخجلت من إظهار شيء خلاف التعاطف ومراعاة الظروف عندما أواجه هذه المرأة الرقيقة، والحزينة، المجلّلة تماماً بالحزن. وكانت كلما اشتدت معاناتها وبدت أنها تفقد الأمل، تغدو أكثر غباءً واشد نأياً. كانت تشمخ براسها الرائع التقاطيع والحالك الشعر عالياً كعهدها دائماً ولا تسمح لأي منا بالقيام باقل محاولة للاقتراب منها ومدّ يد المساعدة إليها.

لعل تلك الاسابيع الطويلة من الصمت المشؤوم كانت الأصعب في حياتي. فها هي غرترود قريبة مني، وأيضاً بعيدة، ولا سبيل إلى الوصول إليها، وترغب في أن تبقى وحدها، وها هي بريجيت، التي علمت بأمر حبها لي وترسخت بيننا ببطء، بعد فترة من تجنب مقابلتها، علاقة مقبولة من جديد. وبيننا جميعاً كانت أمي العجوز، التي راقبت معاناتنا، وخمّنت بكل ما يجري لكنها لم تجرؤ على التفوه

بأي كلمة، بما أني أنا نفسي حافظت على صمت عنيد وشعرت أني لا استطيع أن أقول لها أي كلمة عن حالتي. أما أسوأ ما في الأمر فكان رعبي من اضطراري إلى أن أظل متفرجاً مع إيمان راسخ عاجز بأن صديقيّ العزيزين يندفعان مباشرة نحو الكارثة، وأنا غير قادر على البوح بأني أعرف السبب.

بيد أن والد غرترود كان المعاني الأكبر. وكنت طوال سنين عديدة أعرفه كرجل رابط الجأش، نشيط، وحاذق، أما الآن فقد تقدم في السن وتبدل حاله، أصبح يتكلم بصوت أكثر خفوتاً وأقل رصانة، لم يعد يمازح وأصبح قلقاً وبائساً. وذات يوم من أيام تشرين ثاني ذهبت لأقابله، وبخاصة لأسمع أية أخبار لكي أُدخل البشر إلى نفسي وأيضاً لأواسيه.

استقبلني في غرفة مكتبه، وقدم لي أحد أفخر أنواع سيجاره وبدأ يحدثني بأسلوب مهذب، خفيت. فعل ذلك بصعوبة وسرعان ما تخلى عنه. ثم نظر إليّ وهو يبتسم ابتسامة مضطربة وقال: «تريد أن تعرف كيف تجري الأمور، صح؟ إنها سيئة جداً، يا صديقي العزيز. لقد عانت الفتاة أكثر مما توقعنا، وإلا لكان تعاملها مع الوضع أفضل من ذلك. إنني مع حصول طلاق، لكنها سترفض ذلك رفضاً باتاً. إنها تحبه، هذا ما تقوله هي على الأقل، ومع ذلك فهي تخشاه. إنه وضع سيء. الفتاة مريضة، إنها تغمض عينيها، وترفض أن تنصت إلى صوت العقل، وتعتقد أن كل شيء سيكون على ما يرام إذا ما انتظر الناس وتركوها في سلام. وهذا، طبعاً، مجرد هستيريا، ولكن مرضها يبدو أشد استفحالاً. تصور أنها أحياناً تخشى حتى أن يسيء زوجها معاملتها إذا عادت إليه، ولكنها تعلن أنها تحبه».

لقد بدا أنه لا يفهمها وكان يراقب سير الأحداث بإحساس بالعجز. أما بالنسبة إليّ فكان جلياً أن معاناتها هي نتيجة الصراع القائم بين الحب والكبرياء. فهي لم تكن تخشى أن يضربها، بل أن تكف عن احترامه، وبينما هي تحاول كسب الوقت بقلق عارم، كانت تأمل في أن تستعيد قواها. لقد استطاعت أن تتحكم فيه وتلجمه، ولكن بفعلها ذلك بلغت من فرط الارهاق بحيث فقدت كل ثقة في قدراتها، وهذا هو سر مرضها. لقد كانت تشتاق إليه لكنها خشيت أن تفقده إلى الأبد إذا ما أسفرت محاولة جديدة للمصالحة عن الفشل. عندئذ بدأت أرى بوضوح مدى عقم وضلال أفكاري الوقحة حول الفوز بحبها.

لقد كانت غرترود تحب زوجها ولا تأبه البتة بأي إنسان آخر غيره.

إن السيد إمثور تفادى التحدث معي عن ميوث لعلمه أنني صديقه، لكنه كان يكرهه ولم يفهم كيف استطاع أن يجذب غرترود إليه. كان يعتبره أشبه بمشعوذ شرير يأسر الأبرياء ولا يطلق سراحهم أبداً. إن الهوى دائماً لغز وغير مسؤول، ولسوء الحظ أنه لا ريب في أن الحياة لا ترحم أبناءها الأنقى وغالباً ما يقع الأجدرُ من الناس صرعى حب مَنْ يدمرونهم.

أثناء هذا الوضع المضطرب تلقيت رسالة قصيرة من ميوث، عملتْ على تخفيف التوتر. قال فيها: « عزيزي كون، الآن ستعرض أوبراك في كل مكان، وربما بشكل أفضل مما عرضت هنا. إلا أنه يسعدني أن تعود ثانية، فلنقل الأسبوع القادم، لأني سأغني دوري في أوبراك مرتين. أنت تعلم أن زوجتي مريضة وأنا هنا وحدي. لذا في إمكانك أن تمكث معي بدون التزام بالرسميات. مع أطيب تمنياتي. ميوث ».

كان نادراً ما يبعث إلي رسائل وكلها غير ضروري، حتى أنني قررت على الفور أن أذهب. لا بد أنه بحاجة إليّ. للوهلة الأولى فكرت في إبلاغ غرترود. ربما كانت فرصة لكسر الحواجز. لعلها تحمّلني رسالة له، أو أنقل منها رسالة شفوية رقيقة، تطلب منه فيها أن يأتي، أو حتى أن يأتي معي. كانت مجرد فكرة، لكني لم أنفذها. واكتفيت بزيارة والدها قبل رحيلي.

حدث ذلك في أواخر الخريف، حين كان الطقس رديئاً، رطباً وعاصفاً. ومن ميونيخ كان في الإمكان أحياناً مشاهدة الجبال المجاورة، المغطاة بالثلج الحديث، مدة ساعة. وكانت المدينة كئيبة ومبللة بالمطر. وتوجهت من فوري إلى منزل ميوث. كان كل شيء هناك كما تركته في العام السابق. الخادم نفسه، والغرف هي نفسها بترتيب الأثاث نفسه، غير أن المكان بدا مهجوراً وخالياً، وقد خلا أيضاً من الأزهار التي كانت غرترود دائماً تنسقها. ولم يكن ميوث في الداخل. قادني الخادم إلى غرفتي وساعدني على إفراغ حوائجي. ثم بدلت ملابسي، ولما لم يكن مضيفي قد وصل بعد، هبطت إلى غرفة الموسيقى، حيث كان في إمكاني أن أسمع حفيف أوراق الأشجار من خلف زجاج النافذة وجلست بعض الوقت أفكر في الماضي. وكلما طال مكوثي هناك وأنا أتفرج على الصور وأقلب صفحات الكتب، زاد حزني، وكأن هذا المنزل بما يحتويه عاجز عن تقديم المساعدة. فجلست عند البيانو وقد ضاق صدري علّي أتخلص من تلك الأفكار العقيمة، وعزفت بريلود الزفاف التي كنت قد ألفته، وكأني بذلك أستطيع أن أستعيد السعادة من الماضي.

أخيراً سمعت وقع خطى سريعة، وثقيلة تقترب ثم دخل هاينريش ميوث. مد يده وألقى عليّ نظرة مرهقة.

قال: « عذراً لتأخري، كنت مشغولاً في المسرح. أنت تعلم أني أغني هذا المساء. هل نتناول الطعام الآن؟ ».

تبعته خارج الغرفة. ولاحظت أنه قد تغير، أصبح شارد الذهن ولامبالياً. لم يتكلم إلا عن المسرح وبدا غير راغب في مناقشة أي شيء آخر. فقط بعد أن انتهينا من تناول الطعام، وجلسنا يواجه أحدنا الآخر على كرسيين أصفري اللون من الخيزران، قال فجأة: « إنني شديد الامتنان لأنك أتيت. وهذا المساء سابذل مجهوداً خاصاً ».

قلت: « شكراً لك. لا تبدو لي على ما يرام ».

« أحقاً؟ لابأس ـ سرعان ما سنبتهج. أنا إنسان منفصل عن زوجته. أنت تعلم هذا. أليس كذلك؟ ».

« نعم ». وأشاح بوجهه جانباً.

« ألديك أي أخبار عن غرترود؟ ».

« لا شيء معين. لا زالت في حالة من التوتر العصبي ولا تنام جيداً ».

« أوه، حسن، دعنا من هذا الحديث. إنها في أيد أمينة ».

نهض واقفاً وأخذ يتمشى في أرجاء الغرفة. وشعرت أنه ما زال يريد أن يقول شيئاً. نظر إليّ نظرة ثاقبة، وأعتقد أنها كانت مرتابة. ثم ضحك ولم يبح به.

قال، وقد غير الموضوع: « لوتي ظهرت من جديد ».

« لوتي؟ ».

« نعم، لوتي التي أتتك ذاك اليوم وحكت لك حكاية عني. لقد تزوجت أحدهم هنا، ويبدو أنها ما زالت تميل إليّ. لقد زارتني هنا ».

مرة أخرى نظر إليّ نظرة مختلسة وضحك عندما وجد أنني قد صدمت.

سألته مع شيء من التردد: « هل استقبلتها؟ ».

« أوه، أنت تعتقد أني قادر على فعل ذلك! كلا، يا صديقي العزيز، لقد ابعدتها. ولكن سامحني، إني أقول هراءً. إنني مرهق من فرط التعب، وعليّ أن أغني هذا المساء. إذا لم يكن لديك مانع، سأذهب لأستلقي مدة ساعة وأحاول أن أنام ».

« طبعاً، يا هاينريش، خذ قسطاً جيداً من الراحة. سوف أذهب إلى المدينة قليلاً. هلا أمرت لي بعربة؟ ».

لم أطق المكوث في ذاك المنزل من جديد وسط الصمت لأنصت إلى الريح وهي تهب على الأشجار. فتوجهت إلى المدينة بلا أية وجهة، ورحت أتجول في معرض الفن القديم. وتفرجت على الصور هناك مدة نصف ساعة في إضاءة سيئة. ثم حان وقت الاغلاق، ولم أجد أفضل من قراءة الصحف في مقهى والتفرج على الواجهات الزجاجية الكبيرة المطلة على الطريق الرطبة. وقررت أخيراً أن أخترق حاجز البرودة هذا بأي ثمن وأتحدث بصراحة مع هاينريش.

ولكن لدى عودتي، وجدته يبتسم وطلق المحيا.

قال في حبور: « كل ما كنت بحاجة إليه هو النوم. إنني الآن أشعر بانتعاش تام. يجب أن تعزف لي شيئاً! البريلود، من فضلك ».

سررت ودهشت لرؤية كل هذا التغير قد طرأ عليه، ولبيت له رغبته. ولدى انتهائي من العزف بدأ يتحدث كعادته، بسخرية وبقدر من الشك. وترك كل العنان لمخيلته ومن جديد أسر قلبي كله. وتذكرت الأيام الأولى من صداقتنا، وعندما غادرنا المنزل في المساء، نظرت فيما حولي عفوياً وقلت: « ألم تعد تحتفظ بكلب؟ ».

« لا . غرترود لا تحب الكلاب ».

ركبنا إلى المسرح يلفنا الصمت. سلّمت على قائد الأوركسترا وقادني أحدهم إلى مقعدي.ومرة أخرى استمعت إلى الموسيقى الشهيرة، لكن كل شيء كان مختلفاً عن المرة الأخيرة. جلست وحدي في المقصورة، فغرترود لم تكن هناك، والرجل الذي يمثل ويغني هناك في الأسفل أيضاً كان متغيراً. كان يغني باتقاد وانفعال. وبدا أن الجمهور قد أحبه في هذا الدور وكان يتابعه بحماس منذ البداية. أما أنا فوجدت أن أتقاده مفرط وصوته عال أكثر مما ينبغي، ويكاد يكون مغتصَباً. وخلال فترة الاستراحة الأولى هبطت إليه. كان قد عاد إلى غرفة تبديل ملابسه وجلس يشرب الشمبانيا، وبعد أن تبادلنا بضع كلمات لاحظت أن عينيه غير مستقرتين كعيني سكير.

بعد ذلك، وبينما كان ميوث يغني، ذهبت لأقابل قائد الأوركسترا.

سألته: «قل لي، هل ميوث مريض؟ يبدو لي أنه يواظب على شرب الشمبانيا. أنت تعلم أنه صديقي، أليس كذلك؟».

وجه إليّ نظرة يائسة.

«لا أدري إن كان مريضاً. لكن من الواضح أنه يدمر نفسه. وفي بعض الأحيان كان يدخل إلى خشبة المسرح ويكاد يكون سكران، وإذا حصل ولم يتمكن من الشرب، يصبح تمثيله وغناؤه رديئين. كان معتاداً على شرب كأس من الشمبانيا قبل الظهور، أما الآن فلا يشرب أقل من ملء زجاجة كاملة. فإذا أردت أن تقدم له نصيحة ما . ولكن لا فائدة. إن ميوث يدمر نفسه عن عمد».

جاء ميوث ليصحبني وتوجهنا إلى أقرب نزل لنتناول طعام العشاء. وعاوده وهنه وصمته كما كان عند الغداء، وجرع كميات كبيرة من نبيذ البورت الداكن اللون، وإلا لما تمكن من النوم، وبدا وكأنه

يبغي أن ينسى بأي ثمن أن هناك في العالم أموراً أخرى غير تعبه ورغبته في النوم.

في طريق عودتنا إلى العربة انتعش برهة، وضحك ثم قال:

« يا صديقي، بدوني، أوبراك لا تساوي شيئاً، لا أحد غيري قادر على غناء ذاك الدور».

في صباح اليوم التالي استيقظ في وقت متأخر وكان ما يزال تعباً وفاتر الهمة، بعينين غير مستقرتين ووجه شاحب شحوب الموتى. وبعد أن تناول طعام إفطاره تنحيت به جانباً وتحدثت معه.

قلت معبراً عن قلقي ونزقي: « أنت تقتل نفسك. إنك تنعش نفسك بالشمبانيا ومن الطبيعي بعد ذلك أن تدفع الثمن. إنني أستطيع أن أتصور لماذا تفعل هذا، وما كنت لأتفوه بكلمة واحدة لو لم تكن متزوجاً. فبفضلها أصبحت إنساناً محترماً وشجاعاً، من الخارج ومن الداخل ».

ابتسم بوهن، وكان واضحاً أن سُرَّ لما ابديه من عنف: « يا له من كلام! وبماذا تدين هي لي؟ هل تتصرف بشجاعة؟ إنها تمكث مع والدها وتتركني وحدي. فلماذا تريد مني أن ألملم نفسي في حين أنها هي لا تفعل ذلك؟ إن كل الناس يعرفون أنه لم يعد بيني وبينها أي شيء، وأنت أيضاً تعرف هذا، ولكن على الرغم من كل ذلك عليّ أن أغني وأدخل السرور إلى قلوب الناس. إنني لا أستطيع أن أفعل هذا وأنا أشعر بالخواء والاشمئزاز من كل شيء، خاصة من الفن ».

« على الرغم من كل هذا، يجب أن تفتح صفحة جديدة، يا ميوث! لا يبدو أن الشرب يجلب لك السعادة! أنت في حالة بؤس تام! إذا كنت غير قادر على الغناء في الوقت الحاضر، فاستأذن بالغياب، وسوف تحصل عليه في الحال. اذهب إلى الجبال، أو إلى البحر، أو إلى

أي مكان تشاء واستعد عافيتك! وكف عن هذا الشرب الأحمق للخمر! إنه ليس فقط أحمق، بل وجبان. أنت تعلم هذا علم اليقين ».

ابتسم لسماع هذا. ثم قال ببرود: « آه، نعم. عليك أن تذهب وترقص الفالس أحياناً! سوف يفيدك، صدقني! كفاك تفكيراً دائماً في ساقك الحمقاء. إنها مجرد وهم! ».

صرخت في غضب: « كفى! أنت تعلم تماماً أن الأمر مختلف. إني أحب كثيراً أن أرقص لو أستطيع، لكني لا أستطيع. أما أنت فقادر تماماً على أن تلملم نفسك وتتصرف بوعي أكثر. يجب أن تكف نهائياً عن شرب الخمر».

« حتماً! يا عزيزي كون، أنت تضحكني. إن من الصعب عليّ أن أتغير وأكف عن معاقرة الخمر تماماً كما هو صعب عليك أن ترقص. يجب أن أتمسك بالأشياء التي ما زالت ترفع من معنوياتي. أتفهم؟ إن الذين يعاقرون الخمر يهتدون عندما يجدون في جيش الخلاص أو في مكان آخر شيئاً يرضيهم أكثر ويدوم أطول. لقد توفر مثل هذا الشيء لي ذات مرة، أقصد النساء، ولكن لم تعد أي امرأة أخرى تثير اهتمامي منذ أن أصبحتْ لي وها هي الآن تهجرني، وهكذا ..».

« هي لم تهجرك. سوف تعود. هي فقط مريضة ».

« هذا ما تظنه أنت وهذا ما تظنه هي أيضاً، أعرف، لكنها لن تعود. فعندما تشرف سفينة على الغرق، تكون الجرذان هي أول من يغادرها. طبعاً، الجرذان لا تدرك أن السفينة سوف تغوص ولكن ينتابها إحساساً بغيضاً فتهرب، ولا شك في أنه يكون في نيتها أن تعود قريباً».

« أوه، لا تقل هذا! لطالما انتابك اليأس في حياتك ومع ذلك عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي ».

« هذا صحيح! وذلك لأني عثرت على ما يشبه العزاء أو المخدِّر، أحياناً يكون على صورة امرأة، وحيناً صديق حميم - نعم، أنت أيضاً من بينهم - وفي أحيان أخرى كان موسيقى أو هتافاً في المسرح. أما الآن فلم تعد هذه الأشياء تمدني بأي متعة ولهذا تراني أعاقر الخمر. ولا أستطيع أن أغني إذا لم أشرب أولاً بضع كؤوس من الخمر، أما الآن فلم يعد في إمكاني أيضاً أن أفكر، أو أتحدث، أو أعيش أو اشعر أني على أحسن ما يرام إذا لم أشرب أولاً بضع كؤوس من الخمر. على أية حال، يجب أن تكف عن وعظي، مهما كان رأيك. لقد تعرّضت للموقف نفسه من قبل، قبل نحو اثني عشرة سنة. عندئذ أخذ أحدهم أيضاً يعظني ولم يدعني وشأني. كان ذلك حول فتاة ما، وبالمصادفة كان أعز أصدقائي ».

« ثم؟ ».

« ثم اضطررت إلى أن أطرده. وبعد ذلك لم أحتفظ باي صديق فترة طويلة، في الواقع، إلى أن قابلتك ».

« هذا واضح ».

قال بنبرة معتدلة: « أحقاً؟ حسن، الاختيار لك. ولكن أريد أن أقول إنني سأكون آسفاً إذا ما تركتني الآن بالذات وأنا في وضعي الحرج. إنني متعلق بك، وقد فكرت أيضاً في شيء يدخل السرور إلى قلبك ».

« أحقاً ما هو؟ ».

« اسمع. أنت متيم بزوجتي، أو على الأقل قد كنت كذلك، وأنا أيضاً متيم بها، إلى أقصى حد. فلنحتفل هذا المساء، فقط أنت وأنا على شرفها. وثمة سبب لهذا. لقد أعددت لوحة مرسومة لصورتها الشخصية، كانت في وقت سابق من العام تتردد على الفنان وكنت

غالباً ما أرافقها. وعندما رحلت كانت اللوحة قد تمت تقريباً. وكان الفنان يريد منها أن تجلس أمامه مرة أخيرة، لكني مللت الانتظار وأمرت أن تصلني اللوحة كما هي. حدث هذا قبل اسبوع، وقد أطِّرت ووصلتني إلى هنا بالأمس. كان يجب أن أعرضها عليك توّاً، ولكن من الأفضل أن نحتفل بها. والحق لن يكون احتفالاً بكل معنى الكلمة بدون بضع كؤوس من الشمبانيا. وكيف لي أن أستمتع به بعد ذلك؟ ما رأيك؟ ».

شعرت بالانفعال بل وحتى بالدموع الكامنة خلف سلوكه المازح، فوافقته على الفور على الرغم من أني لم أكن في حالة نفسية مناسبة.

أعددنا العدة للاحتفال على شرف المرأة التي بدا أنه فقدها إلى الأبد، كما فقدتها أنا.

سألني: « أتذكر أي الأزهار تحب؟ إني لا أعرف أي شيء عن الأزهار أو عن أسمائها. لقد كانت تحضر بعض الأزهار البيضاء والصفراء، وأيضاً الحمراء. هل تعرف نوعها؟ ».

« نعم، أعرف بعضها. لماذا؟ ».

« يجب أن تشتري بعضاً منها. اطلب عربة. عليّ أن أتوجه إلى المدينة في كل الأحوال. يجب أن نتصرف وكأنها موجودة بيننا ».

لقد فكر في أشياء أخرى كثيرة جعلتني أدرك مدى عمق وإلحاح تفكيره في غرترود، وقد اسعدني وأحزنني معاً أن ألاحظ هذا. فبسببها تخلص من الكلب وعاش وحيداً، هو الذي في السابق لم يكن يطيق أن يعيش طويلاً بلا نساء. لقد رسم لها صورتها. وطلب مني أن أشتري الأزهار التي تحب. وكأنه خلع عن وجهه قناعاً فرأيت تحت التقاسيم الأنانية، القاسية، وجه طفل.

قلت معترضاً: «ولكن يجب أن نرى اللوحة الآن أو بعد الظهر. فمن الأفضل دائماً أن يتفرج المرء على اللوحات في ضوء النهار».

«وهل لهذا أهمية؟ في إمكانك أن تنظر إليها مرة أخرى غداً. أتمنى أن تكون لوحة جيدة، ولكن هذا غير مهم، في الحقيقة، نحن فقط نريد أن ننظر إلى صاحبة الصورة».

بعد أن تناولنا الطعام ذهبنا إلى المدينة وقمنا ببعض المشتريات، أولاً الأزهار، باقة كبيرة من أزهار الأقحوان، وسلة من الورود، وباقتين من الليلك الأبيض. ثم خطرت على باله فكرة وهي أن يرسل كمية كبيرة من الأزهار إلى غرترود في ر.

قال وهو مستغرق في التفكير: «الأزهار جميلة. استطيع أن أفهم سبب ولع غرترود بها. أنا أيضاً أحبها، لكني لا استطيع أن أزعج نفسي بالعناية بشيء كهذا، وعندما لا تكون هناك امرأة تسهر عليها، فإنها دائماً تبدو لي مهملة ولا تمتعني».

في المساء، وجدت أن اللوحة الجديدة قد وضعت في غرفة الموسيقى وقد غطيت بقماشة من الحرير. وتناولنا وجبة فاخرة، ومن ثم رغب ميوث أولاً في الاستماع إلى بريلود الزفاف. وبعد أن عزفتها، كشف عن اللوحة، ووقفنا أمامها بعض الوقت صامتين. كانت غرترود مرسومة بالطول الكامل وهي ترتدي ثوباً صيفياً خفيفاً، وعيناها البراقتان توجهان نظرة ملؤها الثقة من اللوحة إلينا. ومرّ بعض الوقت قبل أن تبادلنا النظر وأمسك كل منا بيد الآخر. ثم ملأ هاينريش كأسين بنبيذ الراين، وانحنى احتراماً للوحة، ثم شربنا نخب المرأة التي كنا نحن الاثنان نفكر فيها. ثم حمل الصورة بعناية ونقلها إلى الخارج.

طلبت منه أن يغني شيئاً، ولكن لم تكن به رغبة.

قال وهو يبتسم: « أتذكر كيف قضينا إحدى الأمسيات معاً قبل حفل الزفاف؟ ها أنا الآن عازب من جديد وسوف نحاول مرة أخرى أن نبتهج ونشرب بعض الكؤوس والاستمتاع قليلاً. كان يجب أن يكون صديقك تايزر هنا، إنه يعرف كيف يشيع جو المرح أفضل منك ومني. بلّغه تحياتي عندما تعود إلى الوطن. أنت لا تطيقني، ولكن لا يهم ».

بهذا الجو المرح المنتظم الذي كان يتميز به وهو في أفضل حالاته، بدأ يتحدث ويذكرني بأمور وقعت في الماضي، وقد أدهشني بمقدار ما كان يتذكر. حتى الأشياء الصغيرة العابرة التي ظننت أنه قد نسيها منذ عهد بعيد، ظلت مستقرة في ذاكرته. ولم ينس أيضاً أول أمسية أقضيها في منزله، مع ماريان وكرانتزل وكيف تشاجرنا. ولزم الصمت فقط فيما يخص غرترود. لم يأت على ذكر الفترة التي دخلت خلالها إلى حياتنا، وقد أسعدني أنه لم يفعل.

سررت بهذه الأمسية المتعة بشكل غير متوقع وتركته يعبّ بلا ضابط من النبيذ الجيد ولم أعاتبه. كنت أعلم كم هي نادرة لحظات المزاج الرائق معه، وكيف أنه لم يعزّها ويتشبث بها عندما تأتيه بين حين وآخر، ولم تكن تأتيه إلا بمساعدة النبيذ. وكنت أعلم أيضاً أن هذه الحالة النفسية لا تدوم طويلاً وأنه غداً قد يصبح متوتراً ولا يطاق. ومع ذلك، كان يسعدني ويكاد يبهجني أن أستمع إلى ملاحظاته الحاذقة، والواعية، وإن كانت ربما متناقضة. وكان أثناء التحدث يوجه، أحياناً، إحدى نظراته الجذابة إليّ، ولم يكن يفعل ذلك إلا في مثل تلك الأوقات، وكانت أشبه بنظرات من أفاق لتوه من حلم.

في إحدى اللحظات، عندما كان صامتاً ويفكر، أخذت أسرد عليه ما كان صديقي الثيوصوفي قد قاله لي عن مرض الذي يشعرون بالوحشة.

قال بود: « أوه، وأظنك صدقته. كان يجب أن تغدو لاهوتياً ».

« لماذا تقول هذا؟ على أية حال، قد تكون فكرة لا بأس بها ».

« أوه، بلا شك. إن الحكماء يثبتون باستمرار من وقت إلى آخر أن كل شيء ما هو إلا خيال. أتدري، كنت كثيراً ما أقرأ مثل تلك الكتب في الماضي وأؤكد لك أنه لا نفع فيها، لا نفع على الإطلاق. إن كل ما يكتب عنه أولئك الفلاسفة ما هو إلا لعب، لعلهم بهذا يواسون أنفسهم، فأحد الفلاسفة يبشر بمذهب الفردية لأنه لا يطيق معاصريه، وآخر يبشر بالاشتراكية لأنه لا يحتمل وحدته. ربما يكون إحساسنا بالعزلة مرض، ولكن لا حيلة للإنسان في ذلك. والسَرنمة أيضاً مرض، ولهذا ترى المصاب بها يقف في الواقع على حافة السطح، وعندما يناديه أحدهم، يقع وتنكسر رقبته ».

« إن هذا أمر مختلف تماماً ».

« ربما، لن أقول إني على حق. كل ما أعنيه هو أن الحكمة لا توصل إلى أية نتيجة. هناك فقط نوعان من الحكمة، أما الباقي فمجرد كلام تافه ».

« أي نوعين من الحكمة تقصد؟ ».

« حسن، إما أن العالم سيء ولا قيمة له، كما يبشر البوذيون والمسيحيون، وفي هذه الحالة على الإنسان أن يعاقب نفسه ويتخلى عن كل شيء - أنا أعتقد أنه يمكن تحقيق الطمأنينة بهذه الطريق - والزاهدون لا يعيشون حياة قاسية كما يظن الناس. أو أن العالم طيب وصحيح - عندئذ يكتفي الإنسان بلعب دور فيه وبعد ذلك يموت بسلام، لأن دوره قد انتهى ».

و« أنت بماذا تؤمن؟ ».

«لا فائدة من هذا السؤال. إن أغلب الناس يؤمن بكليهما، تبعاً لتقلبات الطقس، وحالتهم الصحية، ووضعهم المالي. والمؤمنون الحقيقيون لا يعيشون وفقاً لمعتقداتهم. وهذا حالي أنا أيضاً. فمثلاً أنا أؤمن بما آمن بوذا، أي بأن الحياة لا تساوي شيئاً، لكني أحيا من أجل الأشياء التي تروق لأحاسيسي وكأن هذا أهم ما يمكنني عمله. ليت هذا كان فقط أكثر إشباعاً».

حين انتهينا لم يكن الوقت قد تأخر. وبينما نحن ننتقل إلى الغرفة المجاورة، التي لا يضيئها إلا مصباح كهربائي واحد متوهج، أمسك ميوث بذراعي وأوقفني، ثم أضاء كل المصابيح وبعد ذلك كشف الغطاء عن صورة غرترود التي كانت قائمة هناك. ومرة أخرى ألقينا نظرة على وجهها العذب، الغالي، ثم أعاد الغطاء إلى الصورة من جديد، وأطفأ الأنوار وصحبني إلى غرفتي ووضع بضع مجلات على الطاولة تحسباً فيما لو اردت أن أقرأ. ثم أمسك بيدي وقال بهدوء: «تصبح على خير، يا صديقي العزيز».

أويت إلى السري وبقيت يقظاً نحواً من نصف ساعة وأنا أفكر فيه. لقد أثر بي وجعلني أشعر بالخجل أن اسمع مقدار الإخلاص الذي تذكر به كل الأحداث الصغيرة التي وقعت خلال فترة صداقتنا. هو الذي اكتشف أن من الصعب عليه أن يمدّ فترة الصداقة، قد تشبث بأولئك الذين تعلّق بهم بحماس فاق تصوري.

بعد ذلك استغرقت في النوم ورايت أحلاماً مضطربة عن ميوث، وأوبراي والسيد لوهه. وعندما استيقظت، كان الوقت ما يزال ليلاً. وقد أيقظتني نوبة خوف لا علاقة لها بأحلامي. وشاهدت اللون الرمادي الباهت لانبلاج الفجر يحدد إطار النافذة، وانتابني شعور بكرب عميق.

ثم سمعت طرقاً شديداً وسريعاً على بابي. قفزت خارجاً من سريري وفتحته. كان الجو بارداً ولم أكن قد أدرت مفتاح النور. كان الخادم يقف أمامي في الخارج، لا يرتدي ما يكفي من الملابس، ويحدق إليّ بقلق وعيناه مملوءتان بالرعب.

همس، وهو يلهث: « هلا أتيت من فضلك؟ لقد وقع حادث ».

ارتديت مبذلاً وتبعت الشاب وهو يهبط الدرج. فتح باباً، ثم ابتعد ليفسح لي مجالاً للدخول. وفي الغرفة كانت هناك طاولة من الخيزران وضع عليها شمعدان، عليه اشتعلت ثلاث شمعات ثخينة. وإلى جانب الطاولة كان سرير مشوش، وجدت عليه صديقي هاينريش ممدّداً على وجهه.

قلت بخفوت: « يجب أن نقلبه ».

لم يجرؤ الخادم على القيام بذلك.

قال متلعثماً: « سوف أستدعي طبيباً ».

لكني أجبرته على أن يستجمع شجاعته وقلبنا الرجل المضطجع. نظرت إلى وجه صديقي، كان شاحباً ومتغيراً. وكان قميصه ملطخاً بالدماء. وعندما وضعناه وأعدنا الغطاء فوقه، انتفض فمه قليلاً ولم تعد عيناه تريان أي شيء.

ثم أخذ الخادم يحكي لي بالضبط ما حدث لكني لم أرغب في سماع أي شيء. ولما وصل الطبيب كان ميوث ميتاً لتوه. وفي الصباح بعثت برقية إلى إمثور. ثم عدت إلى المنزل الذي يلفه الصمت، وجلست بجوار سرير المتوفى، أنصتّ إلى الريح التي تهب على الأشجار في الخارج، وعندئذ فقط أدركت كم كنت مولعاً بهذا الرجل العاثر الحظ. لم استطع أن أندبه، لقد كان موته أسهل من حياته.

في المساء وقفت في محطة القطار ورايت السيد إمثور العجوز يترجل من القطار، تتبعه امرأة ممشوقة القوام ومتشحة بالسواد. فصحبتهما إلى المتوفى، الذي كان عندئذ قد أُلبس ووُضع في نعشه وسط أزهار اليوم السابق. وانحنت غرترود وقبّلت شفتيه الشاحبتين.

عندما وقفنا عند قبره، رايت امرأة جميلة، طويلة القامة ذات وجه لطخته الدموع، تحمل وروداً بيدها وتقف وحدها، وعندما وجّهت نظري نحوها مستغرباً، وجدت أنها لوتي. أومأت إليّ براسها وابتسمت. لكن غرترود لم تبك، بل كانت تنظر أمامها، بانتباه وثبات، تحت المطر الخفيف الذي تذروه الريح. منتصبة كشجرة فتية تدعمها جذور قوية. غير أن ذلك كان مجرد ضبط نفس، فبعد ذلك بيومين، وبينما هي تحل باقات زهور ميوث التي كانت في تلك الأثناء قد وصلتها إلى منزلها، انهارت، ومرت فترة طويلة من الزمن لم نرها قط خلالها.

9

حزني أيضاً، لم يخرج إلى العلن إلا لاحقاً، وكما هو الحال دائماً تذكرت عدداً لا يحصى من الأمثلة على ظلمي لصديقي المتوفى. في الحقيقة، لقد ابتلى نفسه بأسوأ الأشياء، وليس فقط بالموت. ورحت أتفكر طويلاً في هذه الأشياء ولم أعثر على أي شيء غامض أو مبهم في مصيره، ومع ذلك فكله كان رهيباً ويبعث على السخرية. لم يكن يختلف في أي شيء عن حياتي، أو حياة غرترود وحياة الكثيرين. فالقدر ليس رحيماً، والحياة متقلبة وفظيعة، ولا خير ولا عقل في الطبيعة، ولكن الخير والعقل موجودان فينا، نحن البشر، الذين يتلاعب بنا القدر، وفي إمكاننا أن نكون أقوى من الطبيعة ومن القدر، ولو حتى لبضع ساعات. ويمكننا أن نتقارب وقت الحاجة، وأن نتبادل الفهم والحب، ونعيش ليواسي أحدنا الآخر.

وأحياناً عندما يرين الصمت في الأعماق السحيقة، في وسعنا أن نقوم بما هو أكثر. نستطيع عندئذ أن نكون آلهة برهة من الزمن ونمد

يداً آمرة ونخلق أشياء لم تكن موجودة، وبعد أن نخلقها تواصل وجودها بدوننا. ومن الأصوات، والكلمات وأشياء أخرى هشة، وعديمة الفائدة، نستطيع أن ننشئ دُمى مُفكِّرة وعاطفية، نستطيع أن نبتكر مذاهب فلسفية وأغاني مفعمة بالمعنى والعزاء، هي أجمل وأكثر خلوداً من لعبة الحظ والقدر الكئيبة. يمكننا أن نكنز روح الله في قلوبنا ويمكنه، أحياناً، عندما نصبح مترعين به، أن يتبدَّى في عيوننا وفي كلامنا، وأيضاً أن يكلِّم الآخرين الذين لا يعرفونه أو لا يرغبون في معرفته. إننا لا نستطيع أن نتخلَّص من مسار الحياة، ولكن في إمكاننا أن نوطِّن أنفسنا على أن نتفوق على الحظ وأيضاً أن ننظر بثبات إلى الأشياء الأشد إيلاماً.

وهكذا، وخلال السنوات التي انصرمت منذ وفاة هاينريش ميوث، أعدته إلى الحياة ألف مرة ومرة، وكان في استطاعتي أن أحدثه بحكمة وحب يفوقان كل ما فعلته وهو حي. وبمرور الزمن، توفيت والدتي، وأيضاً بريجيت تايزر الرقيقة، التي تزوجت من موسيقي، بعد سنين من الانتظار وأتاحت فرصة للجرح كي يلتئم، ولم تنج من أول ولادة لها.

كانت غرترود قد تغلبت على الألم الذي عانته عندما تلقت زهورنا كتحية وتودّد من المتوفى. وأنا غالباً لا أحدثها عن الأمر على الرغم من أني أراها في كل يوم، لكني أعتقد أنها تستعيد ذكرى ربيع حياتها وكأنها تنظر إلى واد ناء كانت قد شاهدته أثناء رحلة قامت بها منذ زمن بعيد، وليس كما تنظر إلى جنة عدن المفقودة. وكانت قد استعادت قواها وصفاءها وأيضاً عادت إلى الغناء، ولكنها منذ أن طبعت تلك القبلة الباردة على شفتي الرجل المتوفى، لم تقبّل أي رجل آخر. وفي سياق تلك السنين، بعد أن التأم الجرح وأضاء كيانها

سحرها القديم، طرقت أفكاري الدروب القديمة المحرَّمة وتساءلت: لم لا؟ ولكن في دخيلتي كنت أعرف الجواب مسبقاً، أعرف أنه لا يمكن أن يطرأ أي تبدل على علاقة كل منا بالآخر. إنها صديقتي، وبعد أن تنصرم عهود الوحدة، والقلق، عندما سأخرج عن صمتي بأغنية أو سوناتة، فإنها ستكون، أولاً وقبل كل شيء، لنا نحن الاثنان. لقد كان ميوث على حق. عندما نتقدم في السن، نصبح أكثر قناعة منا ونحن في عهد الشباب، لذا فلن ألعنه، لأنني في أحلامي سمعت شبابي كأغنية رائعة، صرت أجدها الآن أكثر عذوبة وأشد تناغماً مما كانت في الواقع.



من إصدارات الدار

على دروب الثقافة الديمقراطية	بوعلي ياسين	1994
موليير	ف. مولاتولي	1994
قراصنة وأباطرة	نوعام تشومسكي	1995
حرية الآخر	جاد الكريم الجباعي	1995
المعري والشيرازي	علي خلوف	1996
القرآن بين التفسير والتأويل	أنور خلوف	1997
ما وراء الحجاب	فاطمة المرنيسي	1997
حوارات في قضايا		
المرأة . التراث . الحرية	نبيل فياض	1997
نرسيس وغولدموند	هرمان هسه	1996

روسهالده   هرمان هسه 1997

ذئب السهوب   هرمان هسه 1997

كاليغولا   ألبير كامو 1997

خلفاء بلا خلافة   أ. أ. إغناتنكو 1997

انهيار الماركسية السوفييتية   محمد سيد رصاص 1997

حزب الرفاه   يوسف الجهماني 1997

الصراع السياسي في تركيا   ف. إ. دانيلوف 1998

سيصدر عن الدار

مفهوم الإرهاب في القانون الدولي

صفحات مجهولة من تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي

ثغر حلم / قصص قصيرة

عشتار وا لمولودة / قصص قصيرة

الرق ـ تاريخه، معاصره، حكمه في الإسلام





فالقدر ليس رحيماً، والحياة متقلبة وفظيعة، ولا خير ولا عقل في الطبيعة، ولكن الخير والعقل موجودان فينا، نحن البشر، الذين يتلاعب بنا القدر، وفي إمكاننا أن نكون أقوى من الطبيعة ومن القدر، ولو حتى لبضع ساعات. ويمكننا أن نتقارب وقت الحاجة، وأن نتبادل الفهم والحب، ونعيش ليواسي أحدنا الآخر.



وأحياناً عندما يرين الصمت في الأعماق السحيقة، في وسعنا أن نقوم بما هو أكثر. نستطيع عندئذ أن نكون آلهة برهة من الزمن ونمد يداً آمرة ونخلق أشياء لم تكن موجودة، وبعد أن نخلقها تواصل وجودها بدوننا. ومن الأصوات، والكلمات وأشياء أخرى هشة، وعديمة الفائدة، نستطيع أن ننشئ دُمى مُفكِّرة وعاطفية، نستطيع أن نبتكر مذاهب فلسفية وأغاني مفعمة بالمعنى والعزاء، هي أجمل وأكثر خلوداً من لعبة الحظ والقدر الكئيبة. يمكننا أن نكنز روح الله في قلوبنا ويمكنه، أحياناً، عندما نصبح مترعين به، أن يتبدَّى في عيوننا وفي كلامنا، وأيضاً أن يكلِّم الآخرين الذين لا يعرفونه أو لا يرغبون في معرفته. إننا لا نستطيع أن نتخلَّص من مسار الحياة، ولكن في إمكاننا أن نروِّض أنفسنا على أن نتفوق على الحظ وأيضاً أن ننظر بثبات إلى الأشياء الأشد إيلاماً.